وقال آخر:
أسروها وجه النهار من الدن فأمسوا وهم لها أسراء
وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه:
عقار عليها من دم الصب نفضة ومن عبرات المستهام فواقع
معودة غصب العقول كأنما لها عند ألباب الرجال ودائع
وأما ما وصفت به غير ما قدمناه، فمن ذلك قول أبي الفضل يحيى بن سلامة الحصكفي
والحصكفي نسبة إلى حصن كيفا:
وخليع بت أعتبه ويرى عتبي من العبث
قلت إن الخمر مخبثة قال حاشاها من الخبث
قلت منها القيء، قال أجل طهرت عن مخرج الحدث
قلت فالأرفاث تتبعه قال طيب العيش في الرفث
وسألوها فقلت متى قال عند الكون في الجدث
وقال آخر:
ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بماحوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح
وقريب من المعنى قول الآخر:
وزناً الكأس فارغة وملأى فكان الوزن بينهما سواء
وقال أبو نواس:
قهوة أعمى عنها ناظراً ريب المنون
عتقت في الدن حتى هي في رقة ديني
ثم شجت فأدارت فوقها مثل العيون
حدقاً ترنو إلينا لم تحجر بجفون
ذهباً يثمر درا كل إبان وحين
من يدي ساق عليه حلة من ياسمين
غاية في الظرف والشكل وفرد من المجون
وقال:
ذد بماء الكرم والعنب خطرات الهم والنوب
قهوة لو أنها نطقت ذكرت ساماً أبا العرب
وهي تكسو كف شاربها دستبانات من الذهب
وقال تاج الملوك بن أيوب:
وكم ليلة فيها وصلنا غبوقنا وكم من صباح كان فيه صبوح
تدار علينا من أكف سقاتنا عقار من الهم الطويل تريح
تلوح لنا كالشمس في كف أغيد يلوح لعيني البدر حين يلوح
مدام تحاكي خده ورضابه ونكهته في الطيب حين تفوح
ولكن لها أفعال عينيه في الحشا فكل حشا فيها عليه جريح
وقال أيضاً:
والكأس أعطاها عقيقاً أحمراً قان، فأعطيها لجيناً يققا
من قهوة ما العيش إلا أن أرى مصطبحاً في شربها مغتبقا
أشربها شرباً هنيئاً من يدي غصن رشيق وغزال أرشقا
ومما قيل فيها إذا مزجت بالماء، فمن ذلك قول أبي نواس:

وصفراء قبل المزج بيضاء بعده كأن شعاع الشمس يلقاك دونها
ترى العين تستعفيك من لمعانها وتحسر حتى ما تقل جفونها
ومنه أخذ ديك الجن فقال:
وحمراء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق
وقال أبو هلال العسكري:
راح إذا ما الليل مد رواقه لاحت تطرز حلة الظلماء
حتى إذا مزجت أراك حبابها زهرات أرض أو نجوم سماء
وقال أيضاً:
وكأس تمتطي أطراف كف كأن بنانها من أرجوان
أنازعها على العلات شرباً لهن مضاحك من أقحوان
يلوح على مفارقها حباب كأنصاف الفرائد والجمان
وطالعني الغلام بها سحيراً فزاد على الكواكب كوكبان
ووافقها بخد أرجوان وخلفها بفرع أدجوان
قوله:
كأنصاف الفرائد والجمان
مأخوذ من قول ابن الرومي:
لها صريح كأنه ذهب ورغوة كاللآلئ الفلق
وقال أبو نواس:
فإذا علاها الماء ألبسها حباً شبيه جلاجل الحجل
حتى إذا سكنت جوانحها كتبت بمثل أكارع النمل
وهو مأخوذ من قول الأول، ويقال: إنه ليزيد بن معاوية:
وكأس سباها التجر من أرض بابل كرقة ماء الحزن في الأعين النجل
إذا شجها الساقي حسبت حبابها عيون الدبا من تحت أجنحة النمل
وقال أبو نواس أيضاً:
قامت تريني وأمر الليل مجتمع صبحا تولد بين الماء واللهب
كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب
وقال ابن المعتز:
للماء فيها كتابة عجب كمثل نقش في فص ياقوت
وقال العسكري:
ذاب في الكأس عقيق فجرى وطفا الدر عليه فسبح
نصب الساقي على أقداحها شبك الفضة تصطاد الفرح
وقال ابن الساعاتي:
وليلة بات بدر التم ساقينا يدير فلك من شربها شهبا
بكر إذا فرعت بالماء كان بنا جداً وإن كان في كاساتها لعبا

حمراء من خجل حتى إذا مزجت لم تدر ما خجلا تحمر أم غضبا
تزيد بالبارد السلسال جذوتها وما سمعت بماء محدث لهبا
تكسو النديم إذا ما ذاقها وضحاً حتى كأن شعاع الشمس قد شربا
وقال آخر:
فنبهتني وساقي القوم يمزجها فصار في البيت للمصباح مصباح
قلنا على علمنا والشك يغلبنا أراحنا نارنا أم نارنا الراح
وقال ابن وكيع التنيسي:
وصفراء من ماء الكروم كأنها فراق عدو أو لقاء صديق
كأن الحباب المستدير بطوقها كواكب در في سماء عقيق
صببت عليها الماء حتى تعوضت قميص بهار من قميص شقيق
وقال آخر:
حمراء ما اعتصموا بالماء حين طفت إلا وقد حسبوها أنها لهب
وقال الخالديان:
فهاتها كالعروس محمرة ال خدين في معجر من الحبب
كادت تكون الهواء في أرج ال عنبر لو لم تكن من العنب
من كف راض عن الصدود وقد غضبت في حبه على الغضب
فلو ترى الكأس حين يمزجها رأيت شيئاً من أعجب العجب
نار حواها المزاج يلهجها الماء ودر يدور في لهب

مبادرة اللذات ومجالس الشراب

قال أحمد بن أبي فنن:
جدد اللذات فاليوم جديد وامض فيما تشتهي كيف تريد
واله ما أمكن يوم صالح إن يوم الشر لا كان عتيد
وقال ديك الجن:
تمتع من الدنيا فإنك فاني في أيدي حوادث عاني
ولا تنظرن اليوم لهواً إلى غد ومن لغد من حادث بأمان
فإني رأيت الدهر يسرع بالفتى وينقله حالين مختلفان
فأما الذي يمضي فأحلام نائم وأما الذي يبقى له فأماني
وقال ابن المعتز من أبيات:
وبادر بأيام السرور فإنها سراع وأيام الهموم بطاء
وخل عتاب الحادثات لوجهها فإن عتاب الحادثات عناء
تعالوا فسقوا أنفسا قبل موتها ليأتي ما يأتي وهن رواء
وقال أحمد المارداني:
عاقر الراح ودع نعت الطلل واعص من لامك فيها وعذل
غادها واسع لها واغر بها وإذا قيل: تصابي، قل أجل
إنما دنياك فاعلم ساعة أنت فيها وسوى ذاك أمل
وقال ابن بسام:
واصل خليلك إنما ال دنيا مواصلة الخليل

وانعم ولا تتعجل ال مكروه من قبل النزول
بادر بما تهوى فما تدري متى وقت الرحيل
وارفض مقالة لائم إن الملام من الفضول
ومما وصفت به مجالس الشرب، فمن ذلك قول أبي نواس:
في مجلس ضحك السرور به عن ناجذيه وحلت الخمر
وقال ديك الجن:
كأنما البيت بريحانة ثوب من السندس مشقوق
وقال السري:
ألست ترى ركب الغمام يساق وأدمعه بين الرياض تراق
وقد رق جلباب النسيم على الثرى ولكن جلابيب الغيوم صفاق
وعندي من الريحان نوع تجسه وكأس كرقراق الخلوق دهاق
وذو أدب جلت صنائع كفه ولكن معاني الشعر منه دقاق
له أبداً من نثره ونظامه بدائع حلي ما لهن حقاق
وأغيد مهتز، على صحن خده غلائل من صبغ الحياء رقاق
أحاطت عيون العاشقين بخصره فهن له دون النطاق نطاق
وقد نظم المنثور فهو قلائد علينا، وعقد مذهب وخناق
وغرفتنا بين السحائب تلتقي لهن علينا كلة ورواق
تقسم زوار من الهند سقفها خفاف على قلب الكريم رشاق
أعاجم تلتذ الخصام كأنها كواعب زنج راعهن طلاق
أنسن بنا أنس الإماء تحببت وشيمتها غدر بنا وإباق
مواصلة والورد في شجراته مفارقة إن حان منه فراق
فزر فتية، برد الشراب لديهم حميم إذا فارقتهم وغساق
قوله:
أحاطت عيون العاشقين بخصره فهن له دون النطاق نطاق
مأخوذ من قول المتنبي:
وخصر تثبت الأحداق فيه كأن عليه من حدق نطاقا
وقال أبو هلال العسكري:
وليل ابتعت به لذة وبعت فيه العقل والدينا
أصاب فيه الوصل قلب الجوى وبات فيه الهم مسكينا
وقد خلطنا بنسيم الصبا نسيم راح ورياحينا
وأكؤس الراح نجوم إذا لاحت بأيدينا هوت فينا
تضحك في الكأس اباريقنا وحسبما تضحك تبكينا
ومما قيل في طي مجالس الشراب، فمن ذلك قول بعض الشعراء:
حكم العقار إذا قصدت لشربها في لذة من مسمع وقيان
ألا تعود لذكر ما أبصرت من أحدوثة من شارب سكران
وقال آخر:
إذا ذكر النبيذ فليس حقاً إعادة ما يكون على النبيذ
إعادة ما يكون من السكارى يكدر صفوة العيش اللذيذ
وقال آخر:

تنازعوا لذة الصهباء بينهم وأوجبوا لرضيع الكأس ما يجب
لا يحفظون على السكران زلته ولا يريبك من أخلاقهم ريب

وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ما قيل في وصف معصرة الخمر:

قال أبو الفرج الببغاء:

ومعصرة أنخت بها وقرن الشمس لم يغب
فخلت قرارها بالرا ح بعض معادن الذهب
وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب
وجاش عباب واديها بمنهل ومنسكب
وياقوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحبب
فيا عجباً لعاصرها وما يفنى به عجبي
وكيف يعيش وهو يخو ض في بحر من اللهب

وقال ابن المعتز يصف الدنان:

ودنان كمثل صف رجال قد أقيموا ليرقصوا دستبندا

وقال القطامي يصف جرار الخمر:

واستودعتها رواقد مقيرة دكن الظواهر قد برنس بالطين
مكافحات لحر الشمس قائمة كأنهن نبيط في تبابين

وقال العلوي الأصفهاني:

مخدرة مكنونة قد تقشفت كراهبة بين الحسان الأوانس
وأترابها يلبسن بيض غلائل هي العري مغرور بها كل لابس
مشعثة مرهاء ما خلت أنني أرى مثلها عذراء في زي عانس

ومما قيل في الراووق، قال بعض الشعراء:

كأنما الراووق وانتصابه خرطوم فيل سقطت أنيابه
والبيت منه عطر ترابه كأن مسكاً فتقت عيابه

وقال آخر:

سماء لاذ، قطرها رحيق رحب الذرى ينحط فيه الضيق
ماء عقيق لو جرى العقيق حتى إذا ألهبها التصفيق
صحنا إلى جيراننا: الحريق

ومما وصفت به زقاق الخمر، فمن ذلك قول الأخطل:

أناخوا فجروا شاصيات كانها رجال من السودان لم يتسربلوا

وقال أبو الهندي وأجاد في شعره:

أتلف المال وما جمعته طلب اللذات من ماء العنب
واستباء الزق من حانوتها شائل الرجلين معضوب الذنب
كلما كب لشرب خلته حبشياً قطعت منه الركب

وقال ابن المعتز:

وتراها وهي صرعى فرغاً بين الندامى
مثل أبطال حروب قتلوا فيها كراماً

وقال العلوي الأصفهاني:

عجبت من حبشي لا حراك به لا يدرك الثأر إلا وهو مذبوح
طوراً يرى وهو بين الشرب مضطجع رخو الصفاق وطوراً وهو مشبوح

ومما وصفت به الأباريق، فمن ذلك قول شبرمة بن الطفيل:

كأن أباريق الشمول عشية إوز بأعلى الطف عوج الحناجر

وقال آخر:

يا رب مجلس فتية نادمتهم من عبد شمس في ذرى العلياء
وكأنما إبريقهم من حسنه ظبي على شرف أمام ظباء

وقال ابن المعتز:

وكأن إبريق المدام لديهم ظبي على شرف أناف مدلها
لما استحثته السقاة جثى لها فبكى على قدح النديم وقهقها

وقال إسحاق الموصلي:

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهن عظام

وكلهم نظروا إلى قول علقمة بن عبدة:

كأن إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم

وقال محمد بن هانئ من أبيات:

والأباريق كالظباء العواطي أوجست نبأة الخيول العتاق
مصغيات إلى الغناء مطلا ت عليه كثيرة الإطراق
وهي شم الأنوف يشمخن كبراً ثم يرعفن بالدم المهراق

وقال أبو نواس عفا الله عنه:

والكوب يضحك كالغزال مسبحاً عند الركوع بلثغة الفأفاء
وكأن أقداح الرحيق إذا جرت وسط الظلام كواكب الجوزاء

وقال بشار بن برد:

كأن إبريقنا والقطر من فمه طير تناول ياقوتاً بمنقار

ومما وصفت به الكاسات والأقداح، فمن ذلك قول ابن المعتز:

غدا بها صفراء كرخية تخالها في كأسها تتقد
وتحسب الماء زجاجاً لها وتحسب الأقداح ماء جمد

وقال ابن المعتز أيضاً عفا الله عنه:

وكأس تحجب الأبصار عنها فليس لناظر فيها طريق
كأن غمامة بيضاء بيني وبين الكأس تخرقها البروق

وقال أبو الفرج الببغاء:

من كل جسم كأنه عرض يكاد لطفاً باللحظ ينتهب
كأنما صاغه النفاق فما يخلص منه صدق ولا كذب

وقال الرفاء:

كأن الكئوس بفضلاتها متوجة بأكاليل نور
جيوب من الوشي مزرورة يلوح عليها بياض النحور

وقال آخر:

وكأنما الأقداح مترعة الحشا بين الشروب كواكب الجوزاء
وكأنها ياقوتة فضلاتها مخروطة من درة بيضاء

وقال المعوج:

يعاطيك كأساً غير ملأى كأنها إذا مزجت أحداق درع مزرد
كأن أعاليها بياض سوالف يلوح على توريد خد مورد

وقال أبو نواس:

وكأنما الروض السماء ونهره فيه المجرة والكئوس الأنجم
وقال الثعالبي:
يا واصف الكأس بتشبيهها دونك وصفاً عالي القدر
كأن عين الشمس قد أفرغت في قالب صيغ من البدر
وقال آخر:
أقول للكأس إذ تبدت بكف أحوى أغن أحور
أخربت بيتي وبيت غيري وأصل ذا كعبك المدور
الباب الخامس
في الندمان والسقاة
قال سهل بن هارون: ينبغي للنديم أن يكون كأنما خلق من قلب الملك يتصرف بشهواته
ويتقلب بإرادته، لا يمل المعاشرة، ولا يسأم المسامرة، إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يقظ،
ويكون كاتماً لسره، ناشراً لبره. قالوا:
فاخر كاتب نديماً، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مؤونة، وأنا للجد، وأنت للهزل، وأنا
للشدة، وأنت للرخاء، وأنا للحرب، وأنت للسلم. فقال النديم: أنا للنعمة، وأنت للخدمة،
وأنا للحظوة، وأنت للمهنة، تقوم وأنا قاعد، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأب لراحتي، وتشقى لما
فيه سعادتي، فأنا شريك وأنت معين، كما أنك تابع وأنا قرين.
فلم يحر الكاتب جواباً.
والله أعلم.
وسئل إسحاق بن إبراهيم الموصلي رحمه الله عن الندماء، فقال:
واحد غم، واثنان هم، وثلاثة قوام، وأربعة تمام، وخمسة مجلس، وستة زحام، وسبعة
جيش، وثمانية عسكر، وتسعة اضرب طبلك، وعشرة الق بهم من شئت.
وقال الجماز: النبيذ حرام على اثني عشر نفساً، من غنى الخطأ، واتكأ على اليمين، وأكثر
من أكل البقل، وكسر الزجاج، وسرق الريحان، وبل ما بين يديه، وطلب العشاء، وقطع البم،
وحبس أول قدح، وأكثر الحديث، وامتخط في منديل الشراب، وبات في موضع لا يحتمل
المبيت فيه.
قال أبو هلال العسكري:
ما أعاف النبيذ خيفة إثم إنما عفته لفقد النديم
ليس في اللهو والمدامة حظ لكريم دون النديم الكريم
فتخير قبل النبيذ نديماً ذات خلال معطرات النسيم
وجمال إذا نظرت بديع وضمير إذا اختبرت سليم
وقال آخر:

أرى للكأس حقاً لا أراه لغير الكأس إلا للنديم
هو القطب الذي دارت عليه رحى اللذات في الزمن القديم
وقال آخر:
وندمان أخي ثقة كأن حديثه حبره
يسرك حسن ظاهره وتحمد منه مختبره
ويستر عيب صاحبه ويستر أنه ستره
وقال آخر:
ونديم حلو الحديث يجاري ك بما تشتهيه في ميدانك
ألمعي كأن قلبك في أض لاعه أو كلامه في لسانك
وقال يحيى بن زياد:
ولست له في فضلة الكأس قائلاً لأصرفه عنها: تحس وقد أبى
ولكن أحييه وأكرم وجهه وأشرب ما أبقى وأسقيه ما أشتهي
ولست إذا ما نام عندي بموقظ ولا مسمع يقظان شيئاً من الأذى
وقال آخر:
ليس من شأنه إذا دارت الكأ س فأزري إدمانها بالحلوم
قول ما يسخط وإن أس خطه عند ذاك قول النديم
وقال عبد الرحمن العطوي رحمه الله:
اخطب لكأسك ندماناً تسر به أو لا فنادم عليها حكمة الكتب
أخطبه حراً كريماً ذا محافظة ترى مودته من أقرب النسب
وقال أبو نواس:
وندمان يرى عيباً عليه بأن يمشي وليس به انتشاء
إذا نبهته من نوم سكر كفاه مرة منك النداء
فليس بقائل لك: إيه دعني ولا مستخبراً لك ما تشاء
ولكن سقني ويقول أيضاً عليك الصرف إن أعياك ماء
إذا ما أدركته الظهر صلي لا عصر عليه ولا عشاء
يصلي هذه في وقت هذي وكل صلاته أبداً قضاء
وقال آخر:
نبهت ندماني فهبوا بعد المنام لما استحبوا
هذا أجاب وذا أنا ب وذا يسير وذاك يحبو
أنشدتهم بيتاً يعلم ذا الصبابة كيف يصبو
ما العيش إلا أن تح ب وأن يحبك من تحب
فتطربوا والأريحي ة شأنه طرب وشرب
وقال أبو عبادة البحتري عفا الله تعالى عنه:
ونديم نبهته ودجى اللي ل وضوء الصباح يعتلجان
قم نبادر بها الصيام فقد أق مر ذاك الهلال من شعبان
وقال أيضاً:
بات نديماً لي حتى الصباح أغيد مجدول مكان الوشاح
كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح
يساقط الورد علينا وقد تبلج الصبح، نسيم الرياح

إن لان عطفاه قسا قلبه أو ثبت الخلخال جال الوشاح
أمج كأسي بجنى ريقه وإنما أمزج راحاً براح
ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد. قال إبراهيم الموصلي عفا الله تعالى عنه ورحمه:
دخلت يوماً على الفضل بن يحيى فصادفته يشرب وعنده كلب، فقلت له: تنادم كلباً!
قال: نعم، يمنعني أذاه، ويكف عني أذى سواه، ويشكر قليلي، ويحفظ مبيتي ومقيلي.
وأنشد:
وأشرب وحدي من كراهتي الأذى مخافة شر أو سباب لئيم
انتهى وأستغفر الله العظيم.
ومما قيل في السقاة، فمن ذلك قول الصنوبري عفا الله عنه:
ومورد الخدين يخ طر حين يخطر في مورد
يسقيك من جفن اللجي ن إذا سقاك دموع عسجد
حتى تظن النجم ين زل أو تظن الأرض تصعد
فإذا سقاك بعينه وبفيه ثم سقاك باليد
حياك بالياقوت ث م الدر من تحت الزبرجد
وقال ديك الجن:
ومزر بالقضيب إذا تثنى ومزهاة على القمر التمام
سقاني ثم قبلني وأوما بطرف سقمه يشفي سقامي
فبت له علىالندمان أسقي مداماً في مدام في مدام
وقال ابن المعتز:
تدور علينا الراح من كف شادن له لحظ عين يشتكي السقم مدنف
كأن سلاف الخمر من ماء خده وعنقودها من شعره الجعد يقطف
وقال أيضاً:
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه الكلام
فكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام
وقال أحمد بن أبي فنن:
بكف مقرطق خنث تطيب بطيبه الريب
تراها وهي في كفي ه من خديه تلتهب
وقال الصنوبري:
وساق إذا هم ندماننا بأن يزجى الكأس لم يزجه
كلعبة عاج على فرشه وليث عرين على سرجه
لطيف الممنطق مهتزه ثقيل المؤزر مرتجه
سقاني بعينيه أضعاف ما سقاني بكفيه من غنجه
وقال آخر:
يا ساقي إن دارت إلى فلا تمزج فإني بدمعي مازج كاسي
ويا فتى الحي إن غنيت من طرب فغن: واحربا من قلبه القاسي
وقال ابن المعتز:

وعاقد زنار على غصن الآس دقيق المعاني مخطف الخصر مياس
سقاني عقاراً صب فيها مزاجها فأضحك عن ثغر الحباب فم الكاس
وقال أيضاً:
قام كالغصن في النقا يمزج الشمس بالقمر
وسقاني المدام وال ليل بالصبح مؤتزر
والثريا كنور غص ن على الغرب قد نثر
وقال البحتري:
وفي القهوة أشكال من الساقي وألوان
حباب مثل ما يضح ك عنه وهو جذلان
ويسكر مثل ما يسك ر طرف منه وسنان
وطعم الريق إن جاد به والصب هيمان
لنا من كفه راح ومن رياه ريحان
وقال أبو القاسم الهبيري الكاتب رحمة الله تعالى عليه:
سقاني الراح ساق، كل راح سوى ألحاظ عينيه سراب
يدير الكأس مبتسماً علينا فما ندري أثر أم حباب؟
وقد سفر الدجى عن ثوب فجر منير مثل ما سفر النقاب
فخلت الصبح في أثر الثريا بشيراً جاء في يده كتاب
وقال أبو الشيص:
يطوف علينا به أحور يداه من الكأس مخضوبتان
غزال تميل بأعطافه قناة تعطف كالخيزران
وقال أبو بكر محمد بن عمار:
وهويته يسقي المدام كأنه قمر يطوف بكوكب في حندس
متأرج الحركات تندى ريحه كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس في أنام سوسن ويدير أخرى في محاجر نرجس
وقال المعوج يصف ساقية:
لا عيش إلا من كف ساقية ذات دلال في طرفها مرض
كأنما الكأس حين تمزجها نجوم ليل تعلو وتنخفض
وقال آخر يصف امرأة ساقية:
وساقية كأن بمفرقيها أكاليلاً على طبقات ورد
لها طيب المنى وصفاء لون وحمرة وجنة ومذاق شهد
وقال ديك الجن يصف ساقياً وساقية:
أفديكما من حاملي قدحين قمرين في غصنين في دعصين
رود منعمة ومهضوم الحشا للناظرين منى وقرة عين
قامت مؤنثة وقام مؤنثاً فتناهبا الألحاظ بالنظرين
صبا على الراح إن هلالنا قد صب نعمته على الثقلين
وإلى كأسكما على ما خيلت بالتبر معجوناً بماء لجين

الباب السادس
في الغناء والسماع

وما ورد في ذلك من الحظر والإباحة، وما استدل به من رأى ذلك، ومن سمع الغناء من
الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن التابعين ومن الأئمة والعباد والزهاد، ومن غنى من
الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقواد عنهم، ومن اشتهر بالغناء وأخبار القيان.
ذكر ما ورد في الغناء من الحظر والإباحة
قد تكلم الناس في الغناء في التحريم والإباحة واختلفت أقوالهم وتباعدت مذاهبهم
وتباينت استدلالاتهم، فمنهم من رأى كراهته وأنكر استماعه، واستدل على تحريمه، ومنهم
من رأى خلاف ذلك مطلقاً وأباحه وصمم على إباحته، ومنهم من فرق بين أن يكون
الغناء مجرداً أو أضيف إليه آلة كالعود والطنبور وغيرهما من الآلات ذوات الأوتار
والدفوف والمعازف والقصب، فأباحه على انفراده وكرهه إذا انضاف إلى غيره وحرم سماع
الآلات مطلقاً. ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلة استدلت بها. وقد رأينا أن نثبت
في هذا الموضع نبذة من أقوالهم على سبيل الاختصار وحذف النظائر المطولة فنقول وبالله
التوفيق.
أما ما قيل في تحريم الغناء وما استدل به من رأى ذلك، فإنهم استدلوا على التحريم
بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء المسلمين. أما دليلهم من
الكتاب العزيز فقول الله عز وجل: " قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون
والذين هم عن اللغو معرضون ". وقوله عز وجل: " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ".
وقوله سبحانه وتعالى: " والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ". وقوله
تبارك وتعالى: " ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم
ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ". وقوله سبحانه وتعالى: " واستفزز من استطعت
منهم بصوتك "، وقوله: " أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون
". قال ابن عباس: سامدون هو الغناء بلغة حمير، وقال مجاهد: هو الغناء بقول أهل
اليمن، سمد فلان إذا غنى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية "

ومن الناس من يشتري لهو الحديث ": إنه الغناء، ومن طريق آخر: إنه الغناء وأشباهه.
وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هو - والذي لا إله إلا هو - الغناء. وعن
مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالى: " واستفزز من استطعت منهم بصوتك " قال: صوته
الغناء والمزامير. وعنه في قوله تعالى: " والذين لا يشهدون الزور " قال: الغناء.
وأما دليلهم من السنة، فما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن الله عز وجل
حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها، ثم قرأت " ومن الناس من يشتري لهو
الحديث " الآية. وروي عن أبو أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: " ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله عز وجل إليه شيطانين على منكبيه يضربان
بأعقابهما على صدره حتى يمسك ". وروي أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله
عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى
". وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "
نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة ".
وأما أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله
عنه أنه قال: ما تغنيت قط. فتبرأ من الغناء وتبجح بتركه. وروي عن ابن مسعود رضي
الله عنه أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. وروي أن ابن عمر
رضي الله عنهما مر على قوم محرمين ومعهم قوم ورجل يغني فقال: ألا لا سمع والله لكم، ألا
لا أسمع والله لكم. وروي عن عبد الله بن دينار قال: مر ابن عمر رضي الله عنهما بجارية
صغيرة تغني، فقال: لو ترك الشيطان أحداً ترك هذه. وعن إسحاق بن عيسى قال: سألت
مالك بن أنس رضي الله عنه عما ترخص فيه بعض أهل المدينة من الغناء فقال: ما يفعله
عندنا إلا الفساق. وقال الشعبي: لعن المغني والمغني له وقال الحكم بن عتيبة: حب السماع
ينبت النفاق في القلب. وروي أن رجلاً سأل القاسم بن محمد فقال: ما تقول في الغناء،

أحرام هو؟ فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: إذا كان يوم القيامة فأتى بالحق والباطل أين
يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: أفت نفسك. وقال الفضيل بن عياض: الغناء
رقية الزنا. وقال بعضهم: الغناء رائد من رواد الفجور. وقال الضحاك: الغناء مفسدة
للقلب، مسخطة للرب. وقال يزيد بن الوليد مع اشتهاره بما اشتهر به: يا بني أمية، إياكم
والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله
السكر، فإن كنتم لا شك فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا. وإني لأقول ذلك
فيه على أنه أحب إلي من كل لذة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلة الصادي، ولكن
الحق أحق أن يقال.
وأما أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في كتاب أدب
القضاة: الغناء لهو مكروه يشبه الباطل. وقال: من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.
قال القاضي حسين بن محمد: وأما سماعه من المرأة التي ليست بمحرم، فإن أصحاب
الشافعي قالوا: لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو
مملوكة. وقال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته.
ثم غلظ القول فيه وقال: هو دياثة. قال: وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى
الباطل، ومن دعا إلى باطل كان سفهاً فاسقاً. وقال مالك بن أنس: إذا اشترى جارية
فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب، قال: وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن
سعد أهل الكوفة وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة، وإبراهيم النخعي، والشعبي وغيرهم
لا خلاف بينهم في ذلك. قال: ولا يعرف أيضاً بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع
منه. وقال بعض الزهاد: والغناء يورث العناد في قوم، ويورث التكذيب في قوم، ويرث
القساوة في قوم.
وقال بعضهم عن حاله عند السماع:

أتذكر وقتنا وقد اجتمعنا على طيب الغناء إلى الصباح
ودارت بيننا كأس الأغاني فأسكرت النفوس بغير راح
فلم ترفيهم إلا نشاوي سروراً والسرور هناك صاحي

إذا لبى أخو اللذات فيه منادي اللهو حي على السماح
ولم يملك سوى المهجات شيئاً أرقناها لألحاظ ملاح
هذا ملخص ما ذكروه في تحريم الغناء. وقد استدل من أباحه بما يناقض ما تقدم على ما
نذكر ذلك إن شاء الله في إباحة الغناء.
في إباحة الغناء والضرب بالآلة
وقد تكلم الناس في إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهي الدف واليراع
والقصب والأوتار على اختلافها من العود والطنبور وغيره، وأباحوا ذلك واستدلوا عليه
وضعفوا الأحاديث الواردة في تحريمه، وتكلموا على رجالها وجرحوهم وبسطوا في ذلك
المصنفات ووسعوا القول وشرحوا الأدلة. وطالعت من ذلك عدة تصانيف في هذا الفن
مجردة له ومضافة إلى غيره من العلوم. وكان ممن تكلم في ذلك وجرد له تصنيفاً الشيخ
الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي رحمه الله تعالى، فقال في ذل ما
نذكر مختصره ومعناه:
اعلم أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة إلى الكافة. قال
الله تعالى: " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة
والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا
النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ". فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة،
وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وسن وشرع، وأمر ونهى، كما أمر صلى الله عليه وسلم.
فليس لأحد بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالاقتداء بهم والاتباع لسنتهم أن يحرم ما أحل الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم
إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنة ماضية صحيحة، أو إجماع من الأمة على مقالته.
وأما الاستدلال بالموضوعات والغرائب والأفراد من رواية المكذبين والمجرحين الذين لا تقوم
بروايتهم حجة، وبأقاويل من فسر القرآن على حسب مراده ورأيه، فلا يرجع إلى قولهم ولا

يسلك طريقهم، إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره، وإنما يلزم
بقول من أيد بالوحي والتنزيل، وعصم من التغيير والتبديل.
قال الله تعالى: " وما ينطق عن
الهوى إن هو إلا وحي يوحى ". فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر ولم ينه عن أمر إلا
بوحي من الله تعالى. وكذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن أمر لم ينزل فيه وحي
توقف حتى يأتيه الوحي، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله.

ما استدلوا به على إباحة الغناء
من الأحاديث النبوية

قد استدلوا على إباحة الغناء بأحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
منها ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل علي أبو بكر رضي الله عنه
وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث وليستا
بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزمار الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك
يوم عيد. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا
عيدنا ". ومن طريق آخر عنها رضي الله عنها قالت: دخل عل رسول الله صلى الله
عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه،
ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم! فأقبل
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " دعهما ". فلما غفل غمزتهما فخرجتا،
وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله صلى الله عليه
وسلم، وإما قال: " تشتهين تنظرين " فقلت نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده وهو
يقول: " دونكم يا بني أرفدة " حتى إذا مللت قال. " حسبك؟ " قلت نعم. قال: "
فاذهبي ". ومن طريق آخر عنها رضي لله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها
وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه،
فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال: " دعهما يا أبا

بكر فإنها أيام عيد ". وتلك الأيام أيام منى. وقالت عائشة: رأيت النبي صلى الله عليه
وسلم يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر، فقال النبي صلى
الله عليه وسلم: " دعهم أمناً بني أرفدة " يعني من الأمن. قال أبو محمد علي بن أحمد بن
سعيد بن حزم رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث: أين يقع إنكار من أنكر من إنكار
سيدي هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما! وقد
أنكر عليه الصلاة والسلام إنكارهما، فرجعا عن رأيهما إلى قوله صلى الله عليه وسلم.
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت جارية من الأنصار في حجري فزففتها، فدخل
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء، فقال: " يا عائشة ألا تبعثين معها من يغني
فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء ". وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:
نكح بعض الأنصار بعض أهل عائشة فأهدتها إلى قباء، فقال لها رسول الله صلى الله عليه
وسلم: " أهديت عروسك "؟ قالت نعم. قال: " فأرسلت معها بغناء فإن الأنصار يحبونه
"؟ قال لا. قال: " فأدركيها يا زينب " امرأة كانت تغني بالمدينة رواه أبو الزبير محمد بن
الزبير بن مسلم المكي عن جابر. وعنه أيضاً قال: أنكحت عائشة رضي الله عنها ذات
قرابة لها رجلاً من الأنصار، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أهديتم الفتاة
"؟ قالوا نعم. قال: " أرسلتم معها "؟ - قال أبو طلحة راوي الحديث: ذهب عني -
فقالت لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها
من يقول:
أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم "
وروي عن فضالة بن عبيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لله اشد أذناً إلى
الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته ". قال أبو عبد الله
الحاكم في كتابه المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه،
وقد خرجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه. قال الحافظ أبو

الفضل محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله تعالى: ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت أن الله تعالى يستمع إلى حسن الصوت بالقرآن كما
يستمع صاحب القينة إلى قينته، فأثبت دليل السماع إذ لا يجوز أن يقيس على استماع
محرم. قال: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغني بالقرآن ". هذا ما
ورد في السماع.
وأما ما ورد في الضرب بالآلة، فمن ذلك ما ورد في الدف. روي عن محمد بن حاطب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في
النكاح ". قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى: هذا حديث صحيح ألزم أبو الحسن
الدارقطني مسلماً إخراجه في الصحيح، وقال: قد روي عنه يعني محمد حاطب أبو مالك
الأشجعي وسماك بن حرب وابن عون ويوسف نب سعد وغيرهم. قال: وأخرج هذا
الحديث أبو عبد الرحمن النسائي وأبو عبد الله بن ماجة في سننهما. وروى الحافظ أبو
الفضل بسند رفعه إلى جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع
صوت دف فقال: " ما هذا "؟ فقيل: فلان تزوج. فقال: " هذا نكاح ليس بالسفاح ".
وقد ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدم. وروى أبو الفضل أيضاً بسنده
إلى خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ قالت: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
فدخل على صبيحة بني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات
يضربن بدف لهن ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما
في غد، فقال: " دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين قبله ".
وهذا حديث صحيح أخرجه
البخاري. قال: وقد رواه حماد بن سلمة ن خالد بن ذكوان أتم من هذا، قال: كنا بالمدينة
يوم عاشوراء وكان الجواري يضربن بالدف ويغنين، فدخلنا على الربيع بنت معوذ، فذكرنا

لها ذلك، فقالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عرسي وعندي
جاريتان تغنيان وتندبان آبائي الذين قتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان: وفينا نبي يعلم ما في
غد، فقال: " أما هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غد إلا الله عز وجل ". وعن عائشة رضي
الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر سفراً، فنذرت جارية من قريش لئن
رده الله تعالى أن تضرب في بيت عائشة بدف. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم
جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فلانة ابنة فلان نذرت لئن
ردك الله تعالى أن تضرب في بيتي بدف، قال: " فلتضرب ".
قال أبو الفضل: وهذا إسناد
تصل ورجاله ثقات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا نذر في معصية الله
".فلو كان ضرب الدف معصية لأمر بالتكفير عن نذرها أو منعها من فعله. وروي عن
الشعبي قال: مر عياض الأشعري في يوم عيد فقال: مالي لا أراهم يفلسون فإنه من السنة!
والتفليس: الضرب بالدف. قال هشيم.
وأما ما ورد في اليراع، فقد احتج بعضهم بحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو
ما خرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني في سننه
قال: حدثنا أحمد بن عبد
الله لغداني، حدثنا مسلم، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع،
قال: سمع ابن عمر رضي الله عنهما مزماراً، فوضع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق،
وقال لي: يا نافع، هل تسمع شيئاً؟ قلت لا. قال: فرفع إصبعيه من أذنيه وقال: كنت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا. قال أبو عبد الله
اللؤلئي: سمعت أبا داود يقول: هذا الحديث منكر. وقال الحافظ محمد بن طاهر: هذا
حديث خرجه أبو داود في سننه هكذا وقد أنكره. وقد ورد من غير هذا الطريق أن ابن
عمر رضي الله عنهما سمع راعياً وذكره. وفساد هذا الحديث من وجهين: أحدهما فساد
طريق الإسناد، فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقي تكلم فيه أهل النقل وتفرد بهذا

الحديث عن نافع ولم يؤوه عنه غيره. وقال البخاري: سليمان بن موسى عنده مناكير.
والثاني قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: أتسمع؟ ولو كان ذلك منهياً عنه لم يأمره
بالاستماع. وقوله: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثل
هذا. ولو كان حراماً لنهاه عنه وصرح بتحريمه، لأنه الشارع المأمور بالبيان. قالت عائشة
رضي الله عنها: علقت على سهوة لي سراً فيه تصاوير، فلما رآه رسول الله صلى الله
عليه وسلم تلون وجهه وهتكه. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي
الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك. ورأى يزيد بن طخفة مضطجعاً على بطنه فنهاه
وقال: " هذه ضجعة يبغضها الله عز وجل ". وسمع صلى الله عليه وسلم رجلاً يلعن
ناقته، فوقف فقال: " لا يتبعنا ملعون "، فنزل عنها وأرسلها.
قال الحافظ المقدسي: وتأخير
البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال، فثبت فساد هذا الحديث إسناداً ومتناً.
وأما ما ورد في القصب والأوتار. ويقال له التغيير، ويقال له القطقطة أيضاً. ولا فرق بينه
وبين الأوتار، إذ لم يوجد في إباحته وتحريمه أثر لا صحيح ولا سقيم، وإنما استباح المتقدمون
استماعه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه، وكان أصله الإباحة.
وأما الأوتار، فالقول فيها القول في القصب، لم يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها. قال: وكل ما
أوردوه في التحريم فغير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا خلاف بين أهل
المدينة في إباحة سماعه. ومن الدليل على إباحته أن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد
الرحمن بن عوف مع جلالته وفقهه وثقته كان يفتي بحله، وقد ضرب بالعود - وسنذكر خبره
في ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى - ولم تسقط عدالته بفعله عند أهل العلم، فكيف
تسقط عدالة المستمع! وكان يبالغ في هذا الأمر أتم مبالغة. وقد أجمعت الأئمة على عدالته
واتفق البخاري ومسلم على إخراج حديثه في الصحيح، وقد علم من مذهبه إباحة سماع
الأوتار. والأئمة الذين رووا عنه أهل الحل والعقد في الآفاق إنما سمعوا منه ورووا عنه بعد

استماعهم غنائه وعلمهم أنه يبيحه، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل، سمع منه ببغداد بعد
حلفه أنه لا يحدث حديثاً إلا بعد أن يغني على عود، وذلك أنه لا شك سمع غناءه ثم سمع
حديثه. قال: وهذا أمر لم يردعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحليله ولا تحريمه نص
يرجع إليه، فكان حكمه كحكم الإباحة. وإنما تركه من تركه من المتقدمين تورعاً كما تركوا
لبس اللين وأكل الطيب وشرب البارد والاجتماع بالنسوان الحسان، ومعلوم أن هذا كله
حلال. وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الضب وسئل عنه أحرام هو؟ قال:
" لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدنثي أعافه " وأكل على مائدته صلى الله عليه وسلم.
وقد روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: إذا رأيت أهل المدينة اجتمعوا على
شيء فاعلم أنه سنة. وقد روي عن محمد بن سيرين رحمه اله أن رجلاً قدم المدينة بجوار،
فنزل على ابن عمر وفيهن جارية تضرب، فجاء رجل فساومه فلم يهو منهن شيئاً. فقل:
انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعاً من هذا، فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه،
فأمر جارية قال: خذي، فأخذت العود حتى ظن ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك، فقال ابن
عمر: حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان، قال: فبايعه. ثم جاء الرجل إلى ابن عمر
فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني غبنت بسبعمائة درهم. فأتى ابن عمر إلى ابن جعفر فقال:
إنه قد غبن بسبعمائة درهم، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه، فقال: بل نعطيها
إياه. وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حزم واستدل بها على إباحته فقال: فهذا عبد الله
بن جعفر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود، وإن كان ابن عمر
كره ما ليس من الجد فلم ينه عنه، وقد سفر في بيع مغنية كما ترى، ولو كان حراماً ما
استجاز ذلك أصلاً.
وأما ما ورد في المزامير والملاهي، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر
المقدسي: وأما القول في المزامير والملاهي، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز

استماعها. فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية
يفعلونه غير مرتين كل ذلك يحول الله عز وجل بيني وبين ما أريده من ذلك ثم ما هممت
بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته فإني قلت لغلام من قريش ليلة وكان يرعى معي في
أعلى مكة لو أنك أبصرت غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب قال أفعل.
فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير
فقلت ما هذا فقالوا فلان تزوج فلانة بنت فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله عز وجل
على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال ماذا فعلت قلت
ما صنعت شيئاً ثم خبرته الخبر فقال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك فقال أفعل فخرجت
حتى دخلت مكة فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت تلك الليلة فسألت عنه فقالوا
فلان نكح فلانة فجلست أنظر فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس فخرجت
إلى صاحبي فأخبرته الخبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله تعالى برسالته ". قال
الحافظ أب الفضل: وكان هذا قبل النبوة والرسالة ونزول الأحكام والفرق بين الحلال والحرام،
فإن الشرع لما ورد أمره الله تعالى بالإبلاغ والإنذار فأقره على ما كان عليه في الجاهلية ولم
يحرمه كما حرم غيره. قال: والدليل على أنه باق على الإباحة قول الله عز وجل: " وإذا
رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة والله
خير الرازقين ". ثم بين الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال: كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائماً، يخطب خطبتين.
فكانت الجواري إذا أنكحوهن يمرون فيضربون بالدف والمزامير فيتسلل الناس ويدعون
رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً، فعاتبهم الله عز جل بقوله: " وإذا رأوا تجارة أو
لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ". وقال: هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن

عبد اله بن حميد عن خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال. والله عز وجل عطف اللهو
على التجارة وحكم المعطوف حكم ما عطف عليه، والإجماع على تحليل التجارة، فثبت
أن هذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية لأنه غير محتمل أن يكون رسول
الله صلى الله عليه وسلم حرمه، ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عز
وجل من ترك رسوله صلى الله عليه وسلم قائماً ثم خرج ينظر إليه ويستمع. لم ينزل في
تحريمه آية لا سن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله.
قال: ويزيد ذلك بياناً ووضوحاً حديث عائشة رضي الله عنها في المرأة التي زفتها وقد تقدم
ذكر الحديث. وروي أيضاً بسند رفعه عن زوج درة بنت أبي لهب قال: دخل على رسول
الله صلى الله عليه وسلم حين تزوجت درة فقال: " هل من لهو ".
في توهين دلائل التحريم
قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسي رحمه الله تعالى الأحاديث التي استدلوا بها على
تحريمه وفسروا بها الآيات والأحاديث التي استدلوا بها على تحريمه مما قدمنا ذكر ذلك في
حججهم ومما لم نذكره مما يستدل به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها. وتكلم الإمام أبو
حامد الغزالي رحمه الله أيضاً في ذلك ووهن احتجاجهم إذا ثبت الحديث على ما نذكر
ذلك.
قال الحافظ أبو الفضل:
أما ما احتجوا به من الآيات في قوله تعالى: " ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن
سبيل الله بغير علم " الآية. وما أوردوه في ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس،
وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر رضي لله عنهم، فنظرت في جميعها فلم أر فيها
طريقاً يثبت إلا واحداً منها رواه يوسف بن موسى القطان عن جرير بن عبد الحميد عن
عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى: "
ومن الناس من يشتري لهو الحديث " قال: الغناء وأشباهه.
وسائرها لا يخلو من رواية
ضعيف لا تقوم بروايته حجة.

قال: ورأيت في بعضها رواية عطية العوفي عن ابن عباس من حديث غير ثابت أصلاً "
ومن الناس من يشتري لهو الحديث " قال: باطل الحديث وهو الغناء ونحوه، وهو أن رجلاً
من قريش اشترى جارية مغنية فنزلت فيه. قال: وهذا وإن لم يصح عندي الاحتجاج
بسندهم فيلزمهم قبوله لأنهم احتجوا به فيكون في حق هذا الرجل بعينه.
وقد ورد في الآية تفسير ثالث يلزمهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثاً رفعه إلى نافع عن ابن
عمر رضي الله عنهما: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله عز وجل: " ومن
الناس من يشتري لهو الحديث " " اللعب والباطل وتشح نفسه أن يتصدق بدرهم ". قال:
وهذا أيضاً غير ثابت عندي وإنما أوردت هذين التفسيرين مناقضة لما أوردوه فيما تمسكوا
به.
قال: ولن أركن إلى هذا أبداً ولا أقنع به ولا أحتج عليه ولا ألزمهم إياه، بل أقول صح عن
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إجماع أهل السنة على أن السنة تقضي على الكتاب،
وأن الكتاب لا يقضي على السنة، وقد جاءت السنة الصحيحة: أن النبي صلى الله عليه
وسلم استمع للغناء وأمر باستماعه، وقد أوردنا في ذلك من الأحاديث ما تقدم إيراده. قال:
وجواب ثان يقال لهؤلاء القوم المحتجين بهذه التفاسير: هل علم هؤلاء الصحابة الذين أوردتم
أقاويلهم من هذه الآية ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يعلمه؟ فإن قالوا: لم
يعلمه وعلمه هؤلاء، كان جهلاً عظيماً بل كفراً. وإن قالوا: علمه، قلنا: نقل إلينا عنه في
تفسير هذه الآية مثل ما نقل عن هؤلاء من الصحابة، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا
يجوز بحاجل. ومن المحال أن يكون تفسير قوله عز وجل: " ومن الناس من يشتري لهو
الحديث " هو الغناء، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما كان معكن لهو فإن
الأنصار يعجبهم اللهو ".
وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير.
وقال أبو حاتم محمد بن حسان في كتاب الضعفاء: الله عز وجل يؤتي رسوله صلى الله

عليه وسلم تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال: " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس
ما نزل إليهم ".
ومن المحال المحال أن يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لخلقه مراده حيث
جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسراً لهم حتى يفهموا مراد الله عز وجل فلا يفعل ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أبان مراد الله عز وجل من الآي وفسر لأمته، ما تهم
الحاجة إليه، وبين سنته صلى الله عليه وسلم. فمن تتبع السنن وحفظها وأحكمها فقد
عرف تفسير كتاب الله عز وجل وأغناه لله تعالى عن الكلبي وذويه، وما لم يبين رسول الله
صلى الله عليه وسلم لأمته في معاني الآي التي أنزلت عليه مع أمر الله عز وجل له بلك
جاز ذلك كان لمن بعده من أمته أجوز، وترك التفسير لما تركه رسول الله صلى الله عليه
وسلم أحرى.
قال: ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله: " لتبين للناس ما نزل إليهم " القرآن
كله أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه من الكتاب متشابه من الآي. فالآيات التي
ليس فيها أحكام لم يبين كيفيتها لأمته. فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم دل
ذلك على أن المراد من قوله تعالى: " لتبين للناس ما نزل إليهم " كان بعض القرآن لا الكل.
وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في هذه الآية: وأما شراء لهو الحديث بالدين
استبدالاً به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه. وليس كل غناء
بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله وهو المراد ف الآية، ولو قرأ القرآن: ليضل
به عن سبيل الله لكان حراماً.
حكي عن بعض المنافقين: أنه كان يؤتم الناس ولا يقرأ إلا سورة " عبس " لما فيها من
العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم عمر بقتله ورأى فعله حراماً لما فيه من
الإضلال فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم.
وقال الثعلبي في أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبي ومقاتل: نزلت في النضير بن
الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصي، كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري

أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا
أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع
القرآن.
واحتجوا بقوله تعالى: " أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون
" قال ابن عباس: هو الغناء بلغة حمير، يعني - السمود - قال الغزالي رحمه الله: فنقول
ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضاً، لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل: إن ذلك
مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضاً مخصوص بأشعارهم وغنائهم في
معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى: " والشعراء يتبعهم الغاوون " وأراد به شعراء
الكفار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه.
واحتجوا بقوله تعالى: " والذين هم عن اللغو معرضون ". قال الثعلبي: قال الحسن، عن
المعاصي. وقال ابن عباس: الحلف الكاذب. وقال مقاتل: الشتم والأذى. وقال غيرهم: ما
لا يحل من القول والفعل. قال: وقيل اللغو الذي لا فائدة فيه.
واحتجوا بقوله تعالى: " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ". قال الثعلبي: أي القبيح من
القول. وبقوله تعالى: " وإذا مروا باللغو مروا كراماً ". قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار
الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وبقوله: " واستفزز من استطعت منهم بصوتك ". قال
ابن عباس ومجاهد وقتادة: بدعائك إلى معصية الله تعالى. وكل داع إلى معصية الله تعالى
من جنود إبليس.
وأما ما احتجوا به من الحديث فإنهم احتجوا بحديث روي عن أبي أمامة الباهلي رضي
الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا تحل
التجارة فيهن وأثمانهن حرام والاستماع إليهن حرام ". قال الحافظ أبو الفض المقدسي رحمه
الله: هذا حديث رواه عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة،
قال: والصحابة كلهم عدول. وأما عبيد الله بن زحر وعلي والقسم فهم في الرواية سواء لا
يحتج بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقة فكيف إذا روي عن مثله. أما عبيد

الله بن زحر فيقال: إنه من أهل مصر. قال أبو مسهر الغساني: عبيد الله بن زحر صاحب
كل معضلة ليس على حديثه اعتماد. وقال عثمان بن سعيد الدارمي: قلت ليحيى بن
معين: عبيد الله ابن زحر كيف حديثه؟ قال: كل حديثه ضعيف، قلت: عن علي بن يزيد
وغيره؟ قال نعم. وقال عباس الدوري عن يحيى: عبيد الله بن زحر ليس بشيء. وقال
أبو حاتم في كتاب الضعفاء والمتروكين: عبيد الله بن زحر منكر الحديث جداً، روى
الموضوعات عن الثقات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالظلمات، وإذا اجتمع في إسناد
عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقسم بن عبد الرحمن لا يكون متن ذلك الحديث إلا مما
عملت أيديهم فلا يحل الاحتجاج بهذه الصحيفة.
قال المقدسي: وهذا الحديث قد اجتمعوا في إسناده، قال: وأما علي بن يزيد فهو من أهل
دمشق يكنى بأبي عبد الملك روى عن القاسم قال النسائي في كتاب الضعفاء: علي بن
يزيد متروك الحديث. وقل أبو عبد الرحمن بن حيان: علي بن يزيد مطروح منكر الحديث
جداً. وأما القاسم بن عبد الرحمن ويكنى بأبي عبد الرحمن فقال يحيى بن معين: القاسم
بن عبد الرحمن لا يسوي شيئاً. وقال أحمد بن حنبل، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية
فقال: منكر الحديث. وقال أبو حاتم بن حسان: القاسم يروي عنه أهل الشام، كان يروي
عن الصحابة المعضلات ويأتي عن الثقات بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يسبق إلى القلب
أنه المعتمد لها.
قال المقدسي: فهذا شرح أحوال رواة الحديث الذي احتجوا به في التحريم، هل تجوز
روايته كما ذكره الأئمة حتى يستدل به في التحليل والتحريم.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أمرني ربي عز وجل بنفي
الطنبور والمزمار " وهو حديث رواه إبراهيم بن اليسع بن الأشعث المكي وإسماعيل بن
هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. وإبراهيم هذا - قال البخاري -:
منكر الحديث. وقال النسائي: المكي ضعيف.
واحتجوا بما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن ضرب الدف ولعب الصنج وصوت الزمارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمون عن
مطر بن سالم عن علي قال: وعبد الله هو القداح ذاهب الحديث، ومطر هذا شبه مجهول.
واحتجوا بما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: نهاني رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن المغنيات والنواحات وعن شرائهن وبيعهن والتجارة فيهن وقال: " كسبهن حرام
". قال: وهذا حديث رواه علي بن يزيد الصدائي عن الحارث بن نبهان عن أبي إسحاق
السبيعي عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: والحارث بن نبهان ليس بشيء ولا
يكتب حديثه قاله يحيى بن معين. وقال البخاري: الحارث منكر الحديث. وقال أحمد بن
حنبل: الحارث رجل صالح ولم يكن يعرف الحديث ولا يحفظ، منكر الحديث. وقال
النسائي: الحارث بن نبهان متروك الحديث. لم يروه عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله
السبيعي وغيره ولا رواه عنه غير علي بن يزيد الصدائي. وعلى هذا قال أحمد بن عدي:
أحاديثه لا تشبه أحاديث الثقات. والحارث الذي روى عن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفي الأعور، أجمع أهل النقل على كذبه، والحمل
في هذا الحديث على الحارث بن نبهان وإن كان في الإسناد من الضعفاء غيره.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " صوتان ملعونان في الدنيا
والآخرة صوت مزمار عند نعمة وصوت ندبة عند مصيبة " وهذا حديث رواه محمد بن
زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومحمد بن زياد هذا هو
الطحان اليشكري. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عنه فقال: أعور كذاب
خبيث يضع الحديث. وقال يحيى بن معين: أجمع الناس على طرح هؤلاء النفر لا يعتد بهم،
منهم محمد بن زياد. وكان أبو يوسف الصيدلاني يقول: قدم محمد بن زياد الرقة بعد موت
ميمون بن مهران.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر خسفاً ومسخاً وقذفاً يكون في

هذه الأمة، قالوا: يا رسول الله إنهم يقولون: لا إله إلا الله، قال: " نعم إذا أظهروا النرد
والمعازف وشرب الخمور ولبس الحرير " قال: وهذا حديث رواه عثمان بن مطر عن عبد
الغفور عن عبد العزيز بن سعيد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال:
وعثمان هو الشيباني من أهل البصرة وكان ضريراً. قال يحيى بن معين: ليس بشيء. وقال
البخاري: متروك الحديث.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " بعثني ربي عز وجل بمحق
المزامير والمعازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية والخمر وأقسم ربي عز وجل بعزته
ألا يشربها عبد في الدنيا " الحديث. قال: وهذا حديث رواه محمد بن الفرات عن أبي
إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور عن علي بن أي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن
الفرات هذا من أهل الكوفة. قال أبو بكر بن أبي شيبة: هذا شيخ كذاب. وقال يحيى بن
معين: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك. وقد تقدم ذكر السبيعي والحارث الأعور،
ومضى الكلام عليه.
واحتجوا بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مسنداً: " إن الغناء ينبت النفاق في
القلب " وهو حديث عبد الرحمن بن عبد الله العمري ابن أخي عبيد الله بن عمر عن
أبيه عن سعيد ابن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم،
وعبد الرحمن هذا قال أحمد بن حنبل: ليس يسوى حديثه شيئاً، سمعت منه ثم تركناه
وكان ولي قضاء المدينة، أحاديثه مناكير وكان كذاباً. قال النسائي: وهو متروك الحديث.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من استمع إلى قيان صب في
أذنيه الآنك " وهو حديث رواه أبو نعمي الحلبي عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد
بن المنكدر عن أنس بن مالك. وأبو نعيم اسمه عبيد بن هشام من أهل حلب ضعيف ولم
يبلغ عن ابن المبارك. مرسل.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لعن الله النائحة والمستمعة

والمغني والمغنى له " وهو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائني عن الحسن البصري عن أبي
هريرة، وعمرو هذا قال أبو أحمد بن عدي: منكر الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة
شيئاً. وقال ابن عدي: هذا الحديث غير محفوظ.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " النظر إلى المغنية حرام
وغناؤها حرام وثمنها حرام " وهو حديث يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفلي
المدني عن يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويزيد الأول قال النسائي: متروك الحديث. وقال أحمد
بن حنبل: عنده مناكير. وقال يحيى بن معين: يزيد بن عبد الملك ليس بذاك.
واحتجوا بما روي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "
واتخذ القيان والمعازف "، وهو حديث رواه فرج بن فضالة الشيباني من أهل حمص عن
يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن علي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال
عبد الرحمن بن مهدي: أحاديث الفرج عن يحيى بن سعيد منكرة. وقال يحيى بن معين:
فرج ضعيف. وقال أبو حاتم بن حسان: فرج بن فضالة كان يقلب الأحاديث الصحيحة
ويلصق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة، لا يحل الاحتجاج به.
واحتجوا بحديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد
الرحمن فذكر حديثاً قال فيه: " نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند مصيبة
وصوت عند نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان " وهذا حديث رواه محمد بن عبد الرحمن
بن أبي ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليه هذا الحديث وضعف لأجله. قال أبو حاتم
بن حسان: كان رديء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروي الشيء على وجه الوهم
ويستحق الترك. وتركه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.
واحتجوا بأنه صلى الله عليه وسلم سمع صوتاً فقال: " انظروا من هذا " فنظرت فإذا
معاوية وعمرو يتغنيان. الحديث، وفيه: " اللهم اركسهما في الفتنة ركساً " وهو حديث

رواه يزيد بن أبي زياد عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبي برزة الأسلمي. ويزيد
هذا من أهل الكوفة، وكان الكذبة يلقنونه على وفق اعتقادهم فيتلقاها ويحدث بها ضعفة
أهل النقل، وقد روي هذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه ابن التابوت.
قال المقدسي: ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أحداً من أصحابه إلا
بخير.
واحتجوا بما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفع الحديث، أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال: " يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقف في متخذي القيان
وشاربي الخمور ولابسي الحرير " وهو حديث رواه زياد بن أبي زياد الجصاص عن أبي
نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وزياد هذا متروك الحديث.
واحتجوا بحديث روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: " من مات وله قينة فلا تصلوا عليه " وهو حديث روي بإسناد مجهول
عن خارجة بن مصعب عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن علي. وخارجة متروك
الحديث من أهل سرخس.
واحتجوا بما روي عن عبد الرحمن بن الجندي قال: قال عبد الله بن بسر صاحب النبي
صلى الله عليه وسلم: يا بن الجندي، فقلت: لبيك يا أبا صفوان، قال: والله ليمسخن قوم
وإنهم لفي شرب الخمور وضرب المعازف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف
وابن الجندي مجهول. والنبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه ألا يعذب أمته بما عذب به
الأمم قبلها فأعطاه ذلك.
واحتجوا بما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه وقد تقدم بعضه، وفيه زيادة أخرى أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا الجلوس إليهن " ثم
قال: "والذي نفسي بيده ما رفع رجل عقيرته بغناء إلا ارتدف على ذلك شيطان على
عاتقه هذا وشيطان على عاتقه هذا حتى يسكت " وهذا حديث قد تقدم أوله من

حديث عبيد الله بن زحر، وهذه الزيادة من رواية مسلمة بن علي الدمشقي عن يحيى بن
الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة. ومسلمة هذا، قال ابن معين: ليس
بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث. وقد تقدم القول في القاسم بن عبد الرحمن.
واحتجوا بحديث روي عن عبد الله بن مسعود من رواية سلام بن مسكين قال: حدثني
شيخ سمع أبا وائل يقول: سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول: "الغناء ينبت النفاق في القلب " هكذا رواه سلام عن شيخ مجهول لا يعرف. ورواه
جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه
عن عبد الله بن مسعود وقوله، ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه الثقات عن
شعبة بن الحجاج عن مغيرة عن إبراهيم، قوله، ولم يذكر أحداً تقدمه فيه وهذا أصح
الأقاويل فيه من قول إبراهيم. قال الغزالي رحمه الله تعالى: قول ابن مسعود: ينبت النفاق
أراد به في حق المغني فإنه في حقه ينبت النفاق إذا غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره
ويروج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضاً لا يوجب
تحريماً، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث
والأنعام والزرع ينبت الرياء والنفاق في القلب المعاصي فقط. بل المباحات التي هي مواقع
نظر الخلق أكثر تأثيراً. ولذلك نزل ابن عمر رضي الله عنهما عن فرس هملج تحته وقطع
ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مشيته، فهذا النفاق من المباحات.
واحتجوا بحديث روي عن صفوان بن أمية قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذ جاءه عمرو بن قرة فقال: يا نبي الله إن الله عز وجل كتب علي الشقوة ولا
أراني أرزق إلا من دفي بكفي أفتأذن لي في الغناء من غير فاحشة؟ فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: " لا إذن ولا كرامة ولا نعمة " وذكر حديثاً طويلاً، وهو حديث رواه عبد
الرزاق بن همام الصنعاني عن يحيى بن العلاء عن بشر بن نمير عن مكحول قال: حدثني

يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أمية.
ويحيى بن العلاء هذا مدني الأصل رازي. قال يحيى بن معين: يكنى أبا عمرو ليس
بثقة. وقال عمرو بن علي الصيرفي: يحيى بن العلاء متروك الحديث والله أعلم.
واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب
الزمارة، وهو حديث نقله سليمان بن أبي سليمان الداودي البصري عن محمد بن بشر عن
أبي هريرة. وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة.
واحتجوا بقول عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى
بيميني منذ بايعت النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا حديث رواه صقر بن عبد الرحمن
عن أبيه عن مالك بن مغول عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك
في حديث القف والصيد.
قال المقدسي: هذا حديث لم أر فيه تحاملاً، ورأيته ذكر من هذا أشياء لم يأت بها غيره
توجب ترك حديثه والله أعلم. وقال الغزالي رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث: قلنا
فليكن التمني ومس الذكر باليمين حراماً إن كان هذا دليل تحريم الغناء، فمن أين ثبت أن
عثمان كان لا يترك إلا الحرام.
قال الحافظ أبو الفضل المقدسي رحمه الله تعالى: فهذه الأحاديث وأمثالها احتج بها من
أنكر السماع جهلاً منهم بصناعة علم الحديث وعرفته، فترى الواحد منهم إذا رأى حديثاً
مكتوباً في كتاب جعله لنفسه مذهباً واحتج به على مخالفه، وهذا عظيم بل جهل جسيم.
هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى وفيه من الزيادات ما هو منسوب إلى الثعلبي والغزالي
على ما بيناه في مواضعه.
وقد تكلم الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطويس رحمه الله تعالى على السماع في
كتابه المترجم ب " إحياء علوم الدين " وبين دليل الإباحة وذكر بعد ذلك آداب السماع
وآثاره في القلب والجوارح فقال:
اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد
تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة تسمى الاضطراب، وإما موزونة فتسمى التصفيق

والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبين الدليل على إباحته ثم ذكر ما تمسك به القائلون
بتحريمه وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.
قال رحمه الله تعالى: نقل أبو طالب المكي إباحة السماع عن جماعة وقال: سمع من
الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم. وقد فعل
ذلك كثير من السلف صحابي وتابعي. قال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون
السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عز وجل عباده فيها بذكره
كأيام التشريق. ولم يزل أهل المدينة ومكة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا
مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية. قال: وكان لعطاء
جاريتان تلحنان وكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر
السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يسمعون! فقال: كيف أنكر السماع
وأجازه وسمعه من هو خير مني. وقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع. وإنما أنكر
اللهو واللعب في السماع.
وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قلة:
حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.
قال الغزالي: ورأيت في بعض الكتب هذا بعينه محكياً عن المحاسبي وفيه ما يدل على
تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره.
وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت: يا
رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: " ما أنكر منه شيئاً ولكن قل لهم
يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن ". قال الغزالي: وعن ابن جريج أنه كان يرخص
في السماع فقيل له: تقدمه يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات
ولا في السيئات لأنه شبيه باللغو، قال الله تعالى: " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم "، ثم
بين الغزالي رحمه الله الدليل على إباحة السماع فقال: اعلم أن قول القائل: السماع حرام،

معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع، ومعرفة
الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص. قال: وأعني بالنص ما أظهره
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله،
فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ويبقى فعلاً لا
حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس. قال: وقد دل
القياس والنص جميعاً على إباحة السماع.
أما القياس فهو أن الغناء اجتمع فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها
فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب. فالوصف الأعم أنه صوت
طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره. والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى
غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات.
أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص
والقياس.
أما القياس فإنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به. وللإنسان عقل
وخمس حواس ولكل حاسة إدراك. وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ. فلذة البصر في
المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة وهي في
مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة. وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الأنتان
المستكرهة. وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المرارة
والمزازة المستبشعة. وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة
والضراسة. وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة. فكذلك الأصوات
المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمر
وغيرها، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها.
وأما النص فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله على عباده به إذ قال تعالى:

" يزيد في الخلق ما يشاء " فقيل: هو حسن الصوت. وفي الحديث: " ما بعث الله نبياً إلا
حسن الصوت ". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لله أشد أذناً للرجل الحسن
الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته " وفي الحديث في معرض المدح لداود عبيه
السلام: " أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع
الإنس والجن والوحش والطير لسماع صوته، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة وما
يقرب من ذلك في الأوقات". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى
الأشعري: " لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود " وقوله تعالى: " إن أنكر الأصوات
لصوت الحمير " يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن. ولو جاز أن يقال: إنما أبيح ذلك
بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس بقرآن. وإذا جاز
سماع صوت غفل لا معنى له، فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني
الصحيحة! وإن من الشعر لحكمة. قال: فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيب حسن.
الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون فإن الوزن وراء الحسن، فكم من صوت
حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب. والأصوات الموزونة
باعتبار مخارجها ثلاثة، فإنها إما أن تكون من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب
القضيب والطبل وغيره. وإما أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسان وإما
غيره. فصوت العنادل والقماري وذوات السجع من الطيور مع طيها موزونة متناسبة المطالع
والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات. وإنما وضعت
المزامير على صورة الحناجر وهي تشبيه الصنعة بالخلقة. وما من شيء توصل أهل
الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها،
منه تعلم الصناع وبه قصدوا الاقتداء. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها
طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور. ولا فرق بين حنجرة

وحنجرة ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة
من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف
وغيرها. ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير، إذ ورد الشرع بالمنع منها لا
للذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ولكن حرمت الخمور واقتضت
ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان، فحرم
معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمه من قبيل الاتباع
كما حرمت الخلوة لأنها مقدمة للجماع. وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين. وحرم
قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى المسكر. وما من حرام إلا وله حرم يطيف به.
وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمى للحرام ووقاية له وحظاراً مانعاً حوله كما
قال صلى الله عليه وسلم: " إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه " فهي محرمة تبعاً
لتحريم الخمر.
الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع
بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً. والكلام المفهوم غير حرام. والصوت الطيب الموزو
غير حرام. فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع، نعم ينظر فيما يفهم منه، إن كان فيه
أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم التصويت به سواء كان بألحان أو لم يكن.
والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح.
ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز مع الألحان. فإن أفراد المباحات إذا
اجتمعت كان مباحاً، ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا
تتضمنه الآحاد، ولا محظور هاهنا. وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد ين يدي رسول
الله صلى الله عليه وسلم، وقال صلى الله عليه وسلم: " إن من الشعر لحكمة " وساق
رحمه الله في هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التي تضمنت إنشاد الشعر والحداء به وهي

أشهر من أن يحتاج إلى سردها. ثم قال بعد سياق الأحاديث:
ولم يزل الحداء وراء الجمال
من عادة العرب في زمان سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وزمان الصحابة، وما هو
إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة. ولم ينقل عن أحد
من الصحابة إنكاره. بل
ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ،
فلا يجوز أن يحرم من حيث
إنه كلام مفهوم مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة.
الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهيج لما
هو الغالب عليه، قال أبو
حامد: فأقول: لله سبحانه تعالى سر في مناسبة النغمات
الموزونة للأرواح حتى أنها لتؤثر
فيها تأثيراً عجيباً. فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها
ما ينوم ومنها ما يضحك
ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد
والرجل والرأس. ولا
ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في
الأوتار حتى قيل: من لم يحركه
الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاد ليس له علاج.
وكيف يكون ذلك بفهم
المعنى، وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فإنه يسكته
الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف
نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. والجمل مع بلادة طبعه يتأثر
بالحداء تأثيراً يستخف معه
الأحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات
الطويلة، وينبعث فيه من النشاط
ما يسكره ويولهه، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها
الإعياء والكلال تحت المحامل
والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمد أعناقها وتصغي إلى
الحادي ناصبة آذانها وتسرع في
سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تتلف
أنفسها في شدة السير وثقل الحمل
وهي لا تشعر بها لنشاطها.
فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي،
قال:
كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل
منهم وأدخلني خباء فرأيت
في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالاً قد ماتت بين
يدي البيت وقد بقي منها
جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه. فقال لي الغلام: أنت
ضيف ولك حق فتشفع في

حقي إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فعساه يحل القيد عني. فلما أحضروا
الطعام امتنعت وقلت: لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد، فقال: إن هذا العبد قد أفقرني
وأهلك جميع مالي، فقلت: ماذا فعل؟ فقال: إن له صوتاً طيباً، وإني كنت أعيش من
ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاث ليال في ليلة
من طيب نغمته فلما حطت أحمالها موتت كلها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفي
فلكرامتك قد وهبته لك قال: فأحببت أن أسمع صوته، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على
جميل يستقي الماء من بئر هناك، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا
على وجهي، فما أظن أني قط سمعت صوتاً أطيب منه.
قال: فإذا تأثير السماع في القلب محسوس. ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن
الاعتدال بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على
سائر البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة. ومهما كالناظر في السماع باعتبار تأثيره في
القلوب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص
واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب.
قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه، ولكن يحرك ما هو فيه.
أقسام السماع وبواعثه
وأقسام السماع تختلف باختلاف الأحوال: فإن منه ما هو مستحب وما هو مباح وما هو
مكروه وما هو حرام. أما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع
منه إلا الصفات المحمودة. وأما المباح فهو لمن لاحظ له من السماع إلا التلذذ بالصوت
الحسن، وأما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكن يتخذه عادة في أكثر
الأوقات على سبيل اللهو. وأما الحرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليه شهوة
الدنيا فلا حرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة. وقد
تكلم على هذه الأقسام الإمام أبو حامد الغزالي فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه:

الكلمات المسجعة الموزونة تعتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب
وهي سبعة مواضع:
الأول: غناء الحجيج فإنهم يدورون أولاً في البلاد بالطبل والغناء وذلك مباح لما فيه من
التشويق إلى الحج وأداء الفريضة وشهود المشاعر.
الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو وهو مباح أيضاً لما فيه من استثارة
النفس وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار.
الثالث: ما يرتجزه الشجعان عند اللقاء في الحرب وهو مباح ومندوب لما فيه من تشجيع
النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدح بالشجاعة والنجدة وقد فعله غير واحد من
الصحابة رضوان الله عليهم، منهم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وغيرهما.
الرابع: أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة وهذا
قسمان: محمود ومذموم.
فأما المذموم فالحزن على ما فات. قال الله تبارك وتعالى: " لكيلا تأسوا على ما فاتكم
". والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه يغضب الله جل جلاله وتأسف على ما لا
تدارك فيه.
وأما المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه. والبكاء
والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك. ولذلك كانت
نياحة داود عليه السلام محمودة، فقد كان يحزن ويحزن ويبكي ويبكي حتى كانت الجنائز
ترفع من مجالس نياحته وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود لأن المفضي إلى
المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه
الأشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى بكاء غيره وإثارة حزنه.
الخامس: السماع في أقوات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له إن كان ذلك السرور مباحاً
كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب ووقت الوليمة والعقيقة وعند الولادة
والختان وعند حفظ القرآن، وكان ذلك معتاد لأجل إظهار السرور. قال: ووجه جوازه أن

من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه،
ويدل على هذا إنشادهم بالدف والألحان عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم يقولون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي

فإظهار السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمود. فقد نقل عن جماعة من
الصحابة أنهم حجلوا في سرور أصابهم كما سيأتي في أحكام في أحكام الرقص وهو جائز
في قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعاً. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم
واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام.

السادس: سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس، فإن كان في حال
مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق. وإن
كان مؤلماً ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوة
لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو، ففي هذا السماع تهييج للعشق
وتحريك للشوق وتحصيل للذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطناب في وصف حسن
المحبوب. قال:

وهذا حلال إن الكان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغي
فيصغي إلى غنائها لتتضاعف لذته في لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسماع الأذن
ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب، فتترادف أسباب اللذة. فهذا نوع تمتع من جملة
مباحات الدنيا ومتاعها، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه. وكذلك إن
غصبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه
وأن يستثير به لذة رجاء الوصال. فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز
تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء. وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي
أو امرأة لا يجوز له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما يتمثل في نفسه فهو حرام لأنه
محرك للفكر في الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه لا لأمر يرجع إلى

نفس السماع. وقد سئل بعض الحكماء عن العشق فقال: دخان يصعد إلى دماغ الإنسان
يزيله الجماع ويهيجه السماع.
السابع: سماع من أحب الله سبحانه وتعالى واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه
فيه، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه، ومؤكد
لعشقه وحبه، ومور زناد قلبه، ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط
الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذواقها، وتسمى تلك الأحوال
بلسان الصوفية وجداً - مأخوذ من الوجود - وللصوفية على هذا كلام يطول شرحه ليس
هذا موضع إيراده. والله أعلم.
العوارض التي يحرم معها السماع
قال أبو حامد رحمه الله تعالى: والسماع يحرم بخمسة عوارض: عارض في المسمع وعارض
في آلة السماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المستمع أو في مواطنه، لأن أركان
السماع هي المسمع والمستمع وآلة السماع.
العارض الأول: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها، وفي
معناها الصبي الذي تخشى فتنته، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل
الغناء بل لو كانت المرأة بحيث تفتن بصوتها في المحاورة في غير ألحان فلا يجوز محاورتها
ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته. فإن قلت:
فهل تقول: إن ذلك حرام بكل حال حسماً للباب، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة.
فأقول: هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان:
أحدهما: أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت منها الفتنة أو لم تخف
لأنها مظنة الفتنة على الجملة. فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصورة.
والثاني: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالنساء في
عموم الحسم بل ينبغي أن يفصل في الحال. وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه
على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو

إلى النظر في أول هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت. وليس تحريك النظر لشهوة المماسة
كتحريك السماع بل هو أشد. وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة ولكن للغناء مزيد أثر
في تحريك الشهوة، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما
لم تؤمر النساء بستر الأصوات، فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه، هذا هو
الأقيس عندي. قال: ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها إذ
يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع صوتهما ولم يحترز عه ولكن لم تكن الفتنة
مخوفة عليه فلذلك لم يحترز. فإذاً يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شاباً
وشيخاً ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال. فإنا نقول: للشيخ أن يقبل زوجته
وهو صائم وليس للشاب ذلك. والقبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو المحظور. والسماع
يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيختلف ذلك أيضاً بالأشخاص.
العارض الثاني: في الآلة بأن تكون من شعائر أهل الشرب أو المخنثين وهي المزامير
والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف وإن
كان فيه الجلاجل وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.
العارض الثالث: في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجاء
أو هو كذب على الله عز وجل أو على رسوله أو على الصحابة كما رتبه الروافض في
هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك القائل
وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال. وأما هجاء
الكفار وأهل البدع فذلك جائز.
فقد كان حسان بن ثابت ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجي الكفار،
وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك.
فأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر
أوصاف النساء فهذا فيه نظر. والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن، وعلى

المستمع ألا ينزله على امرأة معينة إلا على من تحل له من زوجة أو جارية، فإن نزله على
أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإجالة الفكر فيه. ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب
السماع رأساً فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسباً أو
لم يكن، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة فالذي غلب عليه
عشق خلوق ينبغي أن يحترز من السماع بأي لفظ كان، والذي غلب عليه حب الله تعالى
فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلقة بمجاري همته الشريفة.
العارض الرابع: في المستمع وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرة الشباب وكانت
هذه الصفة أغلب من غيرها عليه، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب
شخص معين أو لم يغلب. فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والوصال والفراق
إلا ويحرك ذلك شهوته وينله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار
الشهوة وتحتد بواعث الشر. وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه
الذي هو حزب الله تعالى. والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات، وبين
حزب الله وهو نور العقل إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية. وغالب
القلوب قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال
لإزعاجه فكيف يجوز تكثير أسلحته وتشحيذ سيوفه وأسنته، والسماع مشحذ لأسلحة
جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص. فليخرج مثل عن جميع السماع فإنه يستضريه
والله أعلم.
العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله فيكون
السماع له محبوباً ولا غلبت عليه الشهوة فيكون في حقه محظوراً، ولكنه أبيح في حقه
كسائر أنواع اللذات المباحة إلا أنه اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو
السفيه الذي ترد شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار

والمداومة تصير كبيرة، فبعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة وهو كالمواظبة على متابعة
الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذا فعله
رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح، ولكن
المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، ومهما كان الغرض معالجة له في بعض الأوقات
لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده في أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد
ذلك آثار السماع وآدابه.

آثار السماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله: اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع
للمستمع ثم يثمر الفهم الوجد. وثمر الوجد الحركة بالجوارح. فلينظر إلى هذه المقامات
الثلاثة:

المقام الأول: في الفهم، وهو مختلف باختلاف أحوال المستمع. وللمستمع أربعة أحوال:

إحداها: أن يكون سماعه بمجرد الطبع أي لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان
والنغمات فهذا مباح وهو أخس رتب السماع، إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم.
ولكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة.

الحالة الثانية: أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة إما معينة أو غير معينة وهو سماع
الشباب وأرباب الشهوة ويكون تنزيلهم المسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم.
وهذه الحالة أخس من أن تكلم فيها إلا ببيان خستها والنهى عنها.

الحالة الثالثة: أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملة الله تعالى وتقلب أحواله في
التمكن منه مرة وبعده منه أخرى، وهذا سماع المريدين لا سيما المبتدئين. فإن للمريد لا
محالة مراداً هو مقصده، ومقصده معرفة الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة
بالسر وكشف الغطاء، وله في مقصده طريق هو سالكه، ومعاملات هو مثابر عليها،
وحالات تستقبله في معاملاته. فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو
هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع

أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح
بوصال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو هموم العبرات أو ترادف الحسرات أو
طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بد أن يوافق
بعضها حال المريد في طلبه، فيجري ذلك مجرى القداح الذي يوري زناد قلبه، فتشتعل به
نيرانه، ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه، وتهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعاداته، ويكون
له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله. وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من
كلامه، بل لكل كلام وجوه ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظ. وضرب الإمام الغزالي
لذلك أمثلة يطول شرحها.
الحالة الرابعة: سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزت عن فهم ما سوى الله تعالى حتى
عزل عن فسه وأحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص ف عين الشهود الذي يضاهي
حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف حتى بهتن وسقط
إحساسهن. وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه فني عن نفسه. ومهما فني عن نفسه
فهو عن غيره أفنى، فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود، وفني أيضاً عن
الشهود فإن القلب إن التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود.
فالمستهتر بالمرئي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى
قلبه الذي به لذته. فالسكران لا خبر له في سكره، والملتذ لا خبر له في التذاذه، إنما خبره
من الملتذ به فقط، ولكن هذا في الغالب يكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن
دام لم تطقه القوة البشرية فربما يضطرب تحت أعبائه اضطراباً تهلك فيه نفسه كما روي عن
أبي الحسن النوري أنه سمع هذا البيت:

ما لت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألباب دون نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع في أجمة قصب قد قطعت وبقيت أصولها مثل
السيوف فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجري من رجليه حتى ورمت
قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله.

قال أبو حامد: وهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد وهي أعلى الدرجات، لأن السماع
على الأحوال وهي ممتزجة بصفات البشرية نوع قصور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن
نفسه وأحواله. أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى اليد
والسكين. فيسمع بالله، وفي الله، ومن الله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل
الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء
أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً. قال: ولست أعني
بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى
القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عرفها من عرفها وجهلها
من جهلها ولذلك السر وجود إلا للحاضر. ومثاله المرآة المجلوة، إذ ليس لها لون في نفسها
بل لونها لون الحاضر فيها. وكذلك الزجاجة فإنها تحكي لون قرارها ولونها لون الحاضر
فياه وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول صورتها قبول الصور ولونها هو هيئة
الاستعداد لقبول الألوان. قال: وهذه مغاصة من مغاصات علوم المكاشفة منها نشأ خيال
من ادعى الحلول والاتحاد. هذا ملخص ما أورده في مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم.
المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل الوجد.
قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:
وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد أعني الصوفية والحكماء الناظرين في وجه مناسبة
السماع للأرواح فلننقل من أقوالهم ألفاظاً ثم لنكشف عن الحقيقة فيه.
أما الصوفية، فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع: إنه وارد حق جاء يزعج
القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق. فكأنه عبر
عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع، إذ سمي
السماع وارد حق. وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجده في السماع:
والوجد عبارة عما يوجد عند السماع، وقال: جال بي السماع في ميادين البهاء، فأوجدني

الحق عند العطاء، فسقاني بكأس الصفاء، فأدركت به منازل الرضاء، وأخرجني إلى رياض
النزهة والفضاء.
وقال الشبلي: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة
وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية. وأقوال الصوفية في هذا النوع كثيرة.
وأما الحكماء، فقال بعضهم:
في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس
بالألحان، فلما ظهرت سرت وطربت إليها، فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة
الظواهر. وقال بعضهم:
نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأي واستجلاب العازب من الفكر وحدة الكال من
الأفهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأي ونية
فيصيب ولا يخطئ ويأتي ولا يبطئ. ثم ذكر المعنى الذي الوجد عبارة عنه فقال: هو
عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من
نفسه. وتلك الحالة لا تخلو من قسمين: فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي
من قبيل العلوم والتنبيهات، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم والتنبيهات
بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض. وهذه
الأحوال يهيجها السماع ويقويها فإن ضعفت بحيث لم تؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو
تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة
على خلاف عادته لم يسم وجداً. وإن ظهر على الظاهر سمي وجداً إما ضعيفاً وإما قوياً
بحسب ظهوره وتغييره الظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده وحفظ الظاهر عن التغيير
بحسب قوة الواجد وقدرت على حفظ جوارحه، فقد يقوي الوجد في الباطن ولا يتغير
الظاهر لقوة صاحبه وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد
التماسك. وإلى المعنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد: إنه

مشاهدة ما لم يكن مكشوفاً قبله، فإن الكشف يحصل بأسباب: منها التنبيه، والسماع
منبه. ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها، فإن إدراكها، فإن إدراكها نوع علم يفيد
إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود.
ومنها صفاء القلب، والسماع مؤثر في تصفية القلوب، والصفاء سبب المكاشفة.
ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك
قوته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله، وهذا الاستكشاف من ملاحظة
أسرار الملكوت. وكما أن حمل الجمل يكون بواسطة، فبواسطة هذه الأسباب يكون سبب
الكشف، بل القلب إذا سفا تمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه
يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة وبالرؤيا إذا كان في المنام وذلك جزء من النبوة،
وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة. وذلك كما روي عن محمد بن مسروق
البغدادي أنه قال: خرجت يوماً في أيام جهلي وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت:

بطيزناباذ كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلاً يقول:

وفي جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له في الجوف أمعاء

فقال: وكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم.
قال أبو حامد: فانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة
جهنم وفي لفظ منظوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر. وكما يسمع صوت الهاتف عند
صفاء القلب. ويشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يخيل لأرباب القلوب
بصور مختلفة، وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، ولذلك
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ".
قال: فحاصل الوجد يرجع إلى مكاشفات وإلى حالات ينقسم كل واحد منهما إلى ما لا
يمكن التعبير عنه عند الإقامة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلاً. وضرب لذلك
أمثلة، منها أن الفقيه قد تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك بذوقه أن

بينهما فرقاً في الحكم، فإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير عنه وإن
كان من أفصح الناس، فيدرك بذوقه الفروق ولا يمكنه التعبير عنه، وإدراكه الفرق علم
يصادفه في قلبه بالذوق. ولا شك أن لوقوعه في قلبه سبباً، وله عند الله تعالى حقيقة، ولا
يمكنه الإخبار عنه لقصور في لسانه بل لدقة المعنى أن تناله العبارة.
وأما الحال فكم من إنسان يدرك في قلب في الوقت الذي يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا
يعلم سببه، وقد يتفكر في شيء فيؤثر في نفسه أثراً فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في
نفسه وهو يحسبه. وقد تكون الحالة التي يحسها سروراً يثبت في نفسه بتفكره في سبب
موجب للسرور، أو حزناً فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه. وقد تكون تلك الحال
حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن
المقصود، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون
بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها أعني التفرقة بين الموزون
والمنزحف ولا يمكنه التعبير عنها بما يتضح به مقصوده لمن لا ذوق له. وفي النفس أحوال
غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع
عن غناء مفهوم. فأما الأوتار وسائر النغمات التي ليس مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيراً
عجيباً، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الأوتار، وقد يعبر عنها بالشوق، ولكن شوق لا
يعرف صاحبه المشتاق إليه، فهذا عجيب. والذي اضطربت نفسه بسماع الأوتار
والشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشتاق، ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً
ليس يدري إلى ماذا يشتاق، ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو،
حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمي ولا حب الله تعالى. وهذا له
سر، وهو أن كل شوق فله ركنان: أحدهما صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق
إليه. والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه. فإن وجدت الصفة التي بها

الشوق ووجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت
نارها، أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة. ولو نشأ آدمي وحده حيث لم ير صورة النساء
ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار
الشهوة ولا يدري أنه يشتاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة
النساء، فكذلك في نفس الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى واللذات التي وعد بها في سدرة
المنتهى والفراديس العلا، إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالذي يسمع
لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في
المرآة ليعرف بالمقايسة. فالسماع يحرك منه الشوق، والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد
أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع، فيتقاضاه قلبه
أمراً ليس يدري ما هو فيدهش ويضطرب ويتحير ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق
الخلاص. فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها، ولا يمكن المتصف بها أن
يعبر عنها. فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره. قال:
واعلم أيضاً أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف يسمى التواجد. وهذا التواجد
المتكلف، فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها،
ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى الاستدعاء للأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها
بالحيلة، فإن للكسب مدخلاً في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن، فإن هذه الأحوال قد
تتكلف مباديها ثم تتحقق أواخرها. وكيف لا يكون التكلف سبباً في أن يصير المتكلف
بالآخرة طبعاً، وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفاً ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار
الذهن ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجري به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل
فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته.

وذكر أبو حامد أمثلة نحو ذلك ثم قال: وكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها
عند فقدها، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره، فلقد شوهد في العادات من
اشتهى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه
ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة إليه والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك في
قلبه رسوخاً خرج عن حد اختياره، واشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص، فكذلك
حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا
فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها، ومشاهدة أحوالهم،
وتحسين صفاتهم في النفس، وبالجلوس معهم في السماع، وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى في
أن يرزقه تلك الحالة بأن ييسر له أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحبين
والمشتاقين والخاشعين، فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري. ويدل
على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه
وسلم في دعائه: " اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب من يقربني إلى حبك ". فقد
فزع إلى الدعاء في طلب الحب. قال: فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال،
وانقسامه إلى ما يمكن الإيضاح عنه وإلى ما لا يمكن، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع.
المقام الثالث: في آداب السماع ظاهراً وباطناً، وما يحمد من آثار الوجد ويذم.
قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى: فأما الآداب فهي خمس جمل:
الأول: مراعاة الزمان والمكان والإخوان. قال الجنيد: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا
فلا تسمع: الزمان والمكان والإخوان. قال الغزالي: ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور
طعام و خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا
معنى مراعاة الزمان، فيراعى فراغ القلب. والمكان قد يكون شارعاً مطروقاً أو موضعاً
كريه الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيتجنب ذلك. وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر

غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلاً في
المجلس واشتغل القلب به، وكذا إذا حضر متكبر من أهل الدنيا فيحتاج إلى مراقبته
ومراعاته، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائي بالوجد والرقص وتمزيق الثوب، فكل
ذلك مشوشات، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى.
الثاني: وهو نظر للحاضرين، أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن
يسمع في حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر. والمريد الذي لا يستفيد بالسماع أحد
ثلاثة: أقلهم درجة هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق
السماع، فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل
الذوق فيتنعم بذوق السماع، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو مضيع لزمانه. الثاني: هو
الذي له ذوق ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم
ينكسر بعد انكساراً تؤمن غوائله، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فينقطع
طريقه ويصده عن الاستكمال.
الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه
حب الله تعالى، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله وصفاته وما يجوز عليه
وما يستحيل، وإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا
يجوز، فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم عليه من نفع السماع. قال سهل:
كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه
بعد ملوث بحب الدنيا وشهوة المحمدة والثناء، ولا من يسمع لأجل التلذذ والاستطابة
بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله عن عبادته ومراعاة قلبه وتنقطع عليه طريقة الأدب،
فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه.
الأدب الثالث: أن يكون مصغياً إلى ما يقوله القائل، حاضر القلب، قليل الالتفات إلى
الجوانب، متحرزاً عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد،

مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله له من رحمته في سره، متحفظاً عن حركة
تشوش على أصحابه قلوبهم، بل يكون ساكن الظاهر، هادئ الأطراف متحرزاً عن
التنحنج والتثاؤب، يجلس مطرقاً رأسه كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه، متماسكاً عن
التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة، ساكتاً عن النطق
في أثناء القول بكل ما عنه بد. فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور وغير
ملوم، ومهما رجع إليه اختياره فليعد إلى هدوه وسكونه. ولا ينبغي أن يستديمه حياء من
أن يقال: انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفاً من أن يقال: هو اقسي القلب عديم
الصفاء والرقة. قال: وقوة الوجد تحرك، وقوة العقل التماسك تضبط الظواهر. وقد يغلب
أحدهما الآخر إما لشدة قوته، وإما لضعف ما يقابله، ويكون النقصان والكمال بحسب
ذلك. فلا تظنن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجداً من الساكن باضطرابه، بل
رب ساكن أتم وجداً من المضطرب، فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا
يتحرك فقيل له في ذلك فقال: " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله
الذي أتقن كل شيء " إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت، والجوارح متأدبة في
الظاهر ساكنة.
الأدب الرابع: ألا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص
أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة، لأن التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في
تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مباح فيجوز تحريكه، ولو كان ذلك حراماً لما نظرت
عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون. وقد
روي عن جماعة من الصحابة أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك وذلك في
قصة ابنة حمزة بن عبد المطلب لما اختصم فيا علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن
حارثة رضي الله عنهم، فتشاحوا في تربيتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي:

" أنت مني وأنا منك " فحجل علي. وقال لجعفر: " أشبهت خلقي وخلقي " فحجل. وقال
لزيد: " أنت أخونا ومولانا " فحجل. الحديث. قال: والحجل: الرقص، ويكون لفرح أو
شوق، فحكمه حكم مهيجه إن كان فرحه محموداً، والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود، فإن
كان مباحاً فهو مباح، وإن كان مذموماً فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل
القدوة لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب، وما له صورة اللعب في أعين الناس فينبغي أن
يجتنبه المقتدي به لئلا يصغر في أعين الخلق فيترك الاقتداء به. وأما تخريق الثياب فلا
رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار. ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه
وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على
ضبط نفسه، وتكون صورته صورة المكره، إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس
فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل
اختياري، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه، فالتنفس فعل يحصل
بالإرادة، ولو كلف الإنسان نفسه أن يمسك التنفس ساعة اضطر من باطنه إلى أن يختار
التنفس، فكذلك الزعقة وتخريق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم.
الأدب الخامس: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء
وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقام له الجماعة فلا بد من الموافقة، فذلك من
آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد
إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق. فالموافقة في هذه الأمور
من حسن الصحبة والعشرة، غذ المخالفة موحشة. ولكل قوم رسم، ولا بد من مخالفة
الناس بأخلاقهم كما ورد في الخبر لا سيما إذا كانت أخلاقاً فيها حسن المعاشرة والمجاملة
وتطييب القلب بالمساعدة. وقول القائل: إن ذلك بدعة لم تكن في الصحابة، فليس كل ما
يحكم بإباحته منقولاً عن الصحابة ولم ينقل النهي عن شيء من هذا. والقيام عند الدخول

للداخل لم تكن من عادة العرب، بل كان الصحابة لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه
وسلم في بعض الأحوال كما رواه أنس رضي الله عنه، وإن كان لم يثبت فيه نهي عام، فلا
نرى به بأساً في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام، فإن القصد منه الاحترام
والإكرام وتطييب القلب به، كذلك سائر أنواع المساعدة إذا قصد بها طيبة القلب واصطلح
عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا
يقبل التأويل. ومن الأدب ألا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه ويشوش عليهم
أحوالهم، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر
التكلف، ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع، فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب
القلوب محك للصدق والتكلف. سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب
الحاضرين له إذا كانوا أشكالاً غير أضداد. هذا ملخص ما أورده الغزالي رحمه الله تعالى
في معنى السماع وقسمه إلى هذه الأقسام التي ذكرناها.
وأما أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فقد ذكر مسألة السماع بين إباحته، فبدأ
بذكر الأحاديث التي احتجوا بها وضعف رواتها نحو ما تقدم وذكر الآية: " ومن الناس من
يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم " وأنه قيل: إنه الغناء، فليس عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولا ثبت عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم، فإنما هو قول
بعض المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة، وما كان هكذا فلا يجوز القول به. ثم لو صح لما
كان فيه متعلق، لأن الله تبارك وتعالى يقول: " ليضل عن سبيل الله " وكل شيء اقتنى
ليضل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ولو أنه شراء مصحف أو تعليم قرآن. فإذاً لم يصح
في هذا شيء فقد قال الله عز وجل: " وقد فصل لكم ما حرم عليكم ". وقال تعالى: "
خلق لكم ما في الأرض جميعاً " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعظم الناس
جرماً في الإسلام من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته "، فصح أن كل شيء

حرمه الله عز وجل علينا فقد فصله لنا، وكل ما لم يفصل تحريمه لنا فهو حلال. واستدل
رحمه الله على إباحته بالأحاديث التي ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبي بكر الصديق
رضي الله عنهما في غناء الجاريتين، واستدل أيضاً بحديث نافع أن ابن عمر سمع مزماراً
فوضع إصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق وقال: يا نافع، هل تسمع شيئاً؟ قلت لا، فرفع
إصبعيه عن أذنيه وقال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع مثل هذا وصنع
مثل هذا. قال: فلو كان حراماً ما أباح عليه الصلاة والسلام لابن عمر سماعه ولا أباح ابن
عمر لنافع سماعه، ولكنه عليه الصلاة والسلام كره لنفسه كل شيء ليس من التقرب إلى الله
عز وجل، كما كره الأكل متكئاً، والتنشف بعد الغسل في ثوب يعد لذلك، والستر الموشى
على سهوة عائشة وعلى باب فاطمة رضي الله عنهما، وكما كره صلى الله عليه وسلم
أشد الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم. وإنما بعث عليه الصلاة والسلام منكراً
للمنكر، آمراً بالمعروف. فلو كان ذلك حراماً لما اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم أن
يسد اذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئاً من ذلك
بل أقره وتنزه عنه، فصح أنه مباح وأن الترك له أفضل كسائر فضول الدنيا المباحة.
قال: فإن قال قائل: قال الله تبارك وتعالى: " فماذا بعد الحق إلا الضلال " ففي أي ذلك يقع
الغناء؟ قيل له: حيث يقع التروح في البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولكل امرئ ما نوى فإذا
نوى المرء ترويح نفسه وإجمامها لتقوى على طاعة الله فما أتى ضلالاً. قال: ولا يحل تحريم
شيء ولا إباحته إلا بنص من الله عز وجل أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه
إخبار عن الله عز وجل، ولا يجوز عنه تعالى إلا بالنص الذي لا شك فيه. وقد قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: " من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ". وقد تكلم
على إباحة السماع جماعة من العلماء. وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية. فلنذكر من
سمع الغناء من الصحابة رضي الله عنهم.
من سمع الغناء من الصحابة والتابعين

قد روي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم سمعوا الغناء.
منهم النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهاني في
كتابه المترجم: بالأغاني بسند رفعه إلى أبي السائب المخزومي وغيره، قال: دخل النعمان
بن بشير المدينة في أيام يزيد بن معاوية وابن الزبير فقال: والله لقد أخفقت أذناي من الغناء
فأسمعوني. فقيل له: لو وجهت إلى عزة الميلاء. فإنها من قد عرفت، فقال: إي ورب هذه
البنية! إنها لممن يزيد النفس طيباً والعقل شحذاً، ابعثوا إليها عن رسالتي، فإن أبت صرت
إليها. فقال له بعض القوم: إن النقلة تشتد عليها لثقل بدنها، وما بالمدينة دابة تحملها. فقال
النعمان: وأين النجائب عليها الهوادج؟ فوجه إليها بنجيبة فذكرت علة، فلما عاد الرسول
إلى النعمان قال لجليسه: أنت كنت أخبر بها، قوموا بنا. فقام هو مع خواص أصحابه
حتى طرقوها، فأذنت وأكرمت اعتذرت، فقبل النعمان عذرها وقال لها: غني، فغنت:

أجد بعمرة غنيانها فتهجر أم شأنها شانها؟
وعمرة من سروات النسا ء بالمسك أردانها

قال: وهذا الشعر هو لقيس بن الخطيم في أم النعمان بن بشير، وهي عمرة بنت رواحة
أخت عبد الله بن رواحة، قال: فأشير إلى عزة أنها أمه فأمسكت، فقال: غنني فوالله ما
ذكر إلا كرماً وطيباً ولا تغنى سائر اليوم غيره، فلم تزل تغنيه هذا اللحن حتى انصرف.
ومنهم حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى
محرز بن جعفر قال: ختن زيد بن ثابت بنيه وأولم واجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة
أهل المدينة ، وحضر حسان بن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه فوضع بين يديه
خوان ليس عليه غيره إلا عبد الرحمن ابنه، وكان يسأله كلما وضعت صحفة أطعام يد أم
يدين؟ فلم يزل يأكل حتى جيء بالشواء، فقل: أطعام يد أم يدين؟ فقال: بل طعام يدين،
فأمسك يده، حتى إذا فرغ من الطعام ثنيت وسادة وأقبلت عزة الميلاء وهي إذاً شابة،
فوضع في حجرها مزهر فضربت به وتغنت، فكان أول ما ابتدأت به شعر حسان:

فلا زال قصر بين بصرى وجلق عليه من الوسمي جود ووابل

فطرب حسان وجعلت عيناه تنضحان على خديه وهو مصغ لها.
وروى أيضاً بسنده إلى خارجة بن زيد أنه قال: دعينا إلى مأدبة في آل نبيط، فحضرنا
وحضر حسان بن ثابت، فجلسنا جميعاً على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره
ومعه ابنه عبد الرحمن، وكان إذا أتي بطعام سأل ابنه عبد الرحمن أطعام يد أم طعام
يدين؟ يعني بطعام اليد الثريد، وطعام اليدين الشواء لأنه ينهش نهشاً فإذا قال: طعام يد
أكل، وإذا قال: طعام يدين أمسك يده. فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين مغنيتين إحداهما
رائقة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان بن
ثابت:

أنظر خليلي بباب جلق هل تؤنس دون البلقاء من أحد

قال: فأسمع حسان يقول: قد أراني هناك سميعاً بصيراً، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا
سكن عنه البكاء وإذا غنتا يبكي. قال: وكنت أرى عبد الرحمن ابنه إذا سكتتا يشير
إليهما أن غنيا، فيبكي أبوه، فيقال: ما حاجته إلى بكاء أبيه!.
وروى أيضاً بسنده إلى عباد بن عبد الله بن الزبير عن شيخ من قريش قال: إني وفتية من
قريش عند قينة ومعنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت إذ استأذن حسان، فكرهنا
دخوله وشق علينا، فقال لنا عبد الرحمن ابنه: أيسركم ألا يجلس؟ قال نعم. قال: فمروا
هذه إذا نظرت إليه أن تغني:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

قال: فغنته، فوالله لقد بكى حتى ظننا أنه سيلفظ نفسه. ثم قال: أفيكم الفاسق؟
لعمري لقد كرهتم مجلسي اليوم. وقام فانصرف. وهذا الشعر لحسان بن ثابت وهو مما
امتدح به جبلة بن الأيهم، وهو من قصيدة طويلة منها قوله في مدح آل جفنة:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وروى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن
عبد الله بن العباس: أنه بينما هو يسير مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطريق مكة في
خلافته ومعه من معه من المهاجرين والأنصار، ترنم عمر ببيت فقال له رجل من أهل العراق

- ليس معه عراقي غيره -: غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين!
قال: فاستحيا عمر وضرب
راحلته حتى انقطعت من الركب. قال المقدسي: ويزد ذلك
وضوحاً - وساق حديثاً
بسند رفعه إلى يحيى بن عبد الرحمن - قال: خرجنا مع عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
في الحج الأكبر، حتى إذا كان عمر بالروحاء كلم الناس رباح بن
المعترف، وكان حسن
الصوت بغناء الأعراب، فقالوا: أسمعنا وقصر عنا الطريق،
فقال: إني أفرق من عمر. قال:
فكلم القوم عمر. إنا كلمنا رباحاً أن يسمعنا ويقصر لنا طريق
المسير فأبى إلا أن تأذن له.
فقال له: يا رباح، أسمعهم وقصر عنهم المسير، فإذا أسحرت
فارفع واحدهم بشعر ضرار
بن الخطاب، فرفع عقيرته يتغنى وهم محرمون.
وروى أيضاً بسنده إلى يزيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر رضي الله
عنه مر برجل يتغنى
فقال: إن الغناء زاد المسافر.
وروى سفيان الثوري وشعبة كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي
عن عامر بن سعد
البجلي: أن أبا مسعود البدري، وقرظة بن كعب، وثابت بن يزيد،
وهم في عرس وعندهم
غناء، فقلت: هذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم!
فقالوا: إنه رخص لنا في
الغناء في العرس والبكاء على الميت في غير النواح. إلا أن
شعبة قال: ثابت بن وديعة
مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود.
وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله عن أبي طالب المكي:
سمع من الصحابة عبد الله
بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية
وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك
كثير من السلف صحابي وتابعي بإحسان.
وروى الحافظ أبو الفضل المقدسي بسند رفعه إلى عمر بن أبي
زائدة قال: حدثتني امرأة
عمر بن الأصم قالت: مررنا ونحن جوار بمجلس سعيد بن جبير
ومعنا جارية تغني ومعها
دف وهي تقول:

لئن فتنتني فهي بالأمس أفتنت سعيداً فأمسى قد قلى كل
مسلم
وألقى مفاتيح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب
المنمنم

فقال سعيد: تكذبين تكذبين.

من سمع الغناء من الأئمة والعباد والزهاد

قالوا: وقد سمع الغناء من الأئمة الإمام الشافعي، وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى،

وغيرهما من أصحابهما. روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي رحمه

الله تعالى بسند رفعه إلى المريسي، قال: مررنا مع الشافعي وإبراهيم ابن إسماعيل على دار

قوم وجارية تغنيهم:

خليلي ما بال المطايا كأنها نراها على الأعقاب بالقوم تنكص

فقال الشافعي: ميلوا بنا نسمع. فلما فرغت قال الشافعي لإبراهيم: أيطربك هذا؟ قال

لا. قال: فما لك حس!

وروى أيضاً بسند رفعه إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: كنت أحب السماع وكان أبي

يكره ذلك، فواعدت ليلة ابن الخبازة، فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام، فأخذ

يغني، فسمعت خشفة فوق السطح، فصعدت، فرأيت أبي فوق السطح يسمع ما يغني وذيله

تحت إبطه وهو يتبختر كأنه يرقص. قال: وقد رويت هذه الحكاية أيضاً عن عبد الله بن

أحمد بن حنبل - وساق سنداً إليه - قال: كنت أدعو ابن الخبازة وكان أبي ينهانا عن

الغناء، وكنت إذا كان عندي كتمته من أبي لئلا يسمع. فكان ذات ليلة عندي وهو يقول،

فعرضت لأبي عندنا حاجة - وكانوا في زقاق - فجاء وسمعه يقول، فوقع في سمعه شيء

من قوله، فخرجت لأنظر فإذا بأبي يترجح ذاهباً وجائياً، فرددت الباب ودخلت. فلما كان

من الغد قال أبي: يا بني، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام، أو معناه. قال أبو الفضل: وابن

الخبازة هذا هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الشاعر، وكان عاصر أحمد

ورثاه حين مات.

وروى أبو الفضل أيضاً بسند رفعه إلى أبي مصعب الزهري أنه قال: حضرت مجلس مالك

بن أنس فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال مالك: ما أدري، أهل العلم ببلدنا لا ينكرون

ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره غلا غبي جاهل أو ناسك عراقي غليظ الطبع. وقال أيضاً:

أخبرنا أبو محمد التميمي ببغداد قال: سألت الشريف أبا علي محمد بن أحمد بن أبي

موسى الهاشمي عن السماع فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دار شيخنا أبي
الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه،
حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكية، وأبو القاسم الداركي شيخ الشافعية، وأبو الحسن
طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسن ابن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد،
وأبو عبد الله محمد بن مجاهد شيخ المتكلمين، وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا
أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة، فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق
من يفتي في حادثة يشبه واحداً منهم، ومعهم أبو عبد الله غلام تام، وكان هذا يقرأ القرآن
بصوت حسن، وربما قال شيئاً. فقيل له: قل لنا شيئاً، فقال لهم وهم يسمعون:

خطت أناملها في بطن قرطاس رسالة بعبير لا بأنقاس
أن زر فديتك لي من غير محتشم فإن حبك لي قد شاع في الناس
فكان قولي لمن أدى رسالتها قف لي لأمشي عل العينين والراس

قال أبو علي: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني أن أفتي في هذه المسألة بحظر ولا إباحة.
وممن أحب السماع والغناء وسمعه من الزهاد والعباد والعلماء أبو السائب المخزومي.
روى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى صفية بنت الزبير بن هشام قالت: كان أبو السائب
المخزومي رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم الدهر، وكان أرق خلق الله قلباً وأشدهم
غزلاً. فوجه غلامه يوماً يأتيه بما يفطر عليه، فأبطأ الغلام إلى العتمة. فلما جاء قال له: يا
عدو نفسه، ما أخرك إلى هذا الوقت؟ قال: اجتزت بباب فلان فسمعت منه غناء فوقفت
حتى أخذته. فقال: هاته يا بني، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك، وإن كنت أسأت
لأضربنك. فاندفع يغني بشعر كثير:

ولما علوا شغباً تبينت أنه تقطع من أهل الحجاز علائقي
فلا زلن حسرى ظلعاً لما حملنها إلى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه ويستعيده إلى نصف الليل. فقلت له زوجته: يا هذا، قد انتصف الليل وما
أفطرت. فقال لها: أنت الطلاق إن أفطرنا على غيره. فلم يزل يغنيه ويستعيده حتى

أسحر. فقالت له: هذا السحر وما أفطرنا. فقال لها: أنت الطلاق إن كان سحورنا غيره.
ثم قال لابنه: يا بني، خذ جبتي هذه وأعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما. فقال
له: يا أبت، أنت شيخ وأنا شاب وأنا أقوى على البرد منك، فقال له: يا بني، ما ترك هذا
الصوت للبرد علي سبيلاً ما حييت.
ويؤيد هذه الحكاية ما حكاه أبو طالب المكي في كتابه، قال: كان بعض السامعين يقتات
بالسماع ليقوى به على زيادة طيه، كان يطوي اليوم واليومين والثلاثة، فإذا تاقت نفسه إلى
القوت عدل بها إلى السماع، فأثار تواجده، فاستغنى بذلك عن الطعام.
وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن أبي مليكة عن أبيه عن جده قال: كان بالمدينة
رجل ناسك من أهل العلم والعفة، وكان يغشى عبد الله بن جعفر، فسمع جارية مغنية
لبعض النخاسين تغني:

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلت الغور فالجدين فالفرعا
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فهام الناسك وترك ما كان عليه، حتى مشى إليه عطاء وطاوس ولاماه، فكان جوابه لهما
أن تمثل:

يلومني فيك أقوام أجالسهم فما أبالي أطار اللوم أم وقعا

فبلغ عبد الله بن جعفر خبره، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجارية وسمع غناءها بهذا
الصوت وقال: ممن أخذتيه؟ قالت: من عزة الميلاء، فابتاعها بأربعين ألف درهم. ثم بعث
إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمه إياه، فقال: أتحب أن تسمع هذا الصوت ممن أخذته
عنه تلك الجارية؟ قال نعم. فدعا عزة الميلاء فقال: غنيه إياه. فغنته، فصعق الرجل وخر
مغشياً عليه. فقال ابن جعفر: أثمنا فيه، الماء الماء! فنضح على وجهه. فلما أفاق قال له:
أكل هذا بلغ بك عشقها؟ قال: وما خفي عليك أكثر. قال: أفتحب أن تسمعه منها؟
قال: قد رأيت ما نالني حين سمعته من غيرها وأنا لا أحبها، فكيف يكون حالي إن سمعته
منها وأنا لا أقدر على ملكها! فأخرجها إليه وقال: خذها فهي لك، ووالله ما نظرت إليها

إلا عن عرض. فقبل الرجل يديه ورجليه وقال: أنمت عيني، وأحييت نفسي، وتركتني
أعيش بين قومي، ورددت إلى عقلي، ودعا له دعاء كثيراً. فقال عبد الله: ما أرضى أن
أعطيكها هكذا، يا غلام، احمل معه مثل ثمنها، ففعل.
قال الغزالي رحمه الله في إحياء علوم الدين: كان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون
فيها سماع. قال: وكان أبو الخير العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع،
وصنف فيه كتاباً ورد فيه على منكريه. وحكي عن بعض الشيوخ أنه قل: رأيت أبا
العباس الخضر عليه السلام، فقلت: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟
قال: هو الصفا الزلال الذي لا تثبت عليه إلا أقدام العلماء.
وروى الأصفهاني بسند رفعه إلى ابن كناسة قال: اصطحب شيخ مع شاب في سفينة في
الفرات ومعهم مغنية. فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ: معنا جارية وهي تغني،
فأحببنا أن نسمع غناءها فهبناك، فإن أذنت فعلنا. فقال: أنا أصعد على أطلال السفينة،
فاصنعوا أنتم ما شئتم، فصعد وأخذت المغنية عودها وغنت:

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطء خفي كما ينساب من مكمنه الأرقم

فطرب الشيخ وصاح، ثم رمى بنفسه وبثيابه في الفرات وجعل يغوص ويطفو ويقول: أنا
الأرقم أنا الأرقم! فألقوا أنفسهم خلفه، فبعد لأي ما استخرجوه، وقالوا: يا شيخ، ما حملك
على ما فعلت؟ فقال: إليكم عني، فإني أعرف من معاني الشعر ما لا تعرفون. فقالوا له:
ما أصابك؟ قال: دب من قدمي شيء إلى رأسي كدبيب النمل ونزل من رأسي مثله، فلما
اجتمعا على قلبي عملت ما عملت.
وقال أحمد بن أبي داود: كنت أعيب الغناء وأطعن على أهله، فخرج المعتصم يوماً إلى
الشماسية في حراقة، ووجه في طلبي فصرت إليه. فلما قربت منه سمعت غناء حيرني
وشلني عن كل شيء، فسقط سوطي عن يدي، فالتفت إلى غلامي أطلب منه سوطاً، فقال
لي: قد والله سقط مني سوطي. فقلت له: أي شيء كان سبب سقوطه؟ قال: صوت
سمعته فحيرني، فما علمت كيف سقط، فإذا قصته قصتي.
قال: وكنت أنكر أمر الطرب

على الغناء وما يستفز الناس منه فيغلب على عقولهم، وأناظر المعتصم عليه. فلما دخلت
عليه يومئذ أعلمته بالخبر، فضحك وقال: هذا عمي كان يغنيني:
إن هذا الطويل من آل حفص أنشر المجد بعد ما كان ماتا
فإن تبت مما كنت تناظر عليه من ذم الغناء سألته أن يعيده،
ففعلت وفعل، فبلغ بي الطرب
أكثر مما يبلغه من غيري، ورجعت عن رأي منذ ذلك اليوم. وعمه الذي أشار إليه هو
إبراهيم بن المهدي.
من غنى من الخلفاء وأبنائهم
ونسبت له أصواتٌ من الغناء نقلت عنه
كان من غنى من الحلفاء على ما أورده أبو الفرج الأصفهاني في كتابه المترجم بالأغاني
ونسبت له أصواتٌ جماعةً، منهم عمر بن عبد العزيز قد نسبت له أصواتٌ، ومنهم من
أنكر ذلك. ولعل ما نقل عنه كان منه قبل الخلافة. وكان رحمه الله من أحسن الناس
صوتا. فكان مما نسب إليه من الغناء:
علق القلب سعادا عادت القلب فعادا
كلّما عوتب فيها أو نهى عنها تمادى
وهو مشغوفٌ بسعدى وعصى فيها وزادا
ومما نسب إليه من الغناء ما قيل إنه غناه من شعر جرير:
قفا يا صاحبيّ نزر سعادا لو شك فراقها ودعا البعادا
لعمرك إنّ نفعل سعاد عنّي لمصروف ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذي رفع العمادا
ومن ذلك ما قيل إنه غناه من شعر الأشهب بن رميلة:
ألا يا دين قلبك من سليمى كما قد دين قلبك من سعادا
هما سبتا الفؤاد وهاضتاه ولم يدرك بذلك ما أرادا
قفا نعرف منازل من سليمى دوارس بين حومل أو عرادا
ذكرت لها الشباب وآل ليلى فلم يزد الشباب بها مزادا
فإن نشب الذوائب أمّ عمرو فقد لاقيت أياما شدادا
وممن غنى من خلفاء الدولة العباسية، ممن دونت له صنعة، الواثق بالله أبو جعفر هارون
بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه إلى إسحاق بن
إبراهيم الموصلي قال: دخلت يوما دار الواثق بالله بغير إذن إلى موضع أمر أن أدخله إذا
كان جالسا، فسمعت صوت عود من بيت وترنما لم أسمع أحسن منه. فأطلع خادم رأسه
ثم رده وصاح بي، فدخلت وإذا أنا بالواثق بالله. فقال: أي شيء سمعت ؟ فقلت:

الطلاق كامل لازمٌ له وكل مملوك له حر، لقد سمعت ما لم أسمع مثله قط حسنا ! فضحك
وقال: وما هو ؟ إنما هذه فضلة أدب وعلم مدحه الأوائل واشتهاه أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم وكثر في حرم الله عز وجل ومهاجر رسول الله
صلى الله عليه وسلم، أتحب أن تسمعه ؟ قلت: إي والله الذي شرفني بخطابك وجميل
رأيك. فقال: يا غلام، هات العود وأعط إسحاق رطلا؛ فدفع الرطل إلي وضرب وغني في
شعر لأبي العتاهية بلحن صنعه فيه:

أضحت قبورهم من بعد عزّتهم تسفى عليها الصّبا والحرجف الشّمل
لا يدفعون هواماً عن وجوههم كأنهم خشبٌ بالقاع منجدل

فشربت الرطل ثم قمت. فدعوت له، فأحتبسني وقال: أتشتهي أن تسمعه بالله ؟ فقلت:
إي والله، فغنانيه ثانية وثالثة، وصاح ببعض خدمه وقال: احمل إلى إسحاق الساعة ثلاثمائة
ألف درهم. قال: يا إسحاق، قد سمعت ثلاثة أصوات وشربت ثلاثة أرطال وأخذت
ثلاثمائة ألف درهم، فأنصرف إلى أهلك مسروراً ليسروا معك، فأنصرفت بالمال. وقال أبو
الفرج بسنده إلى عريب المأمونية قالت: صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط.
ولقد صنع في هذا الشعر:

هل تعلمين وراء الحبّ منزلةً تدني إليك فإن الحبّ أقصاني
هذا كتاب فتىً طالت بليّته يقول يا مشتكي بثّي وأحزاني

قال: وكان الواثق بالله إذا أراد أن يعرض صنعته على إسحاق نسبها إلى غيره فقال: وقع
إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فأسمعه، وأمر من يغنيه إياه. وكان إسحاق يأخذ نفسه
بقول الحق في ذلك أشد أخذ، فإن كان جيداً رضيه وأستحسنه وإن كان فاسداً أو
مطرحاً أو متوسطاً ذكر ما فيه. فإن كان للواثق فيه هوىً سأله تقويمه وإصلاح فاسده وإلا
اطرحه. وقال إسحاق بن إبراهيم: كان الواثق أعلم الناس بالغناء، وبلغت صنعته مائة
صوت، وكان أحذق من غنى بضرب العود، ثم ذكر أغانيه. وذكر أبو الفرج الأصفهاني
منها أصواتا؛ منها:

ولم أر ليلى غير موقف ليلةٍ بخيف منىً ترمى جمار المحصّب

ويبدي الحصى منها إذا خذفت به من البرد أطراف البنان المخضّب
ألا إنما غادرت يا أمّ مالكٍ صدىً أينما تذهب به الريح يذهب
وأصبحت من ليلى الغداة كناظرٍ مع الصبح في أعجاز نجم مغرّب
وذكر أصواتا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها أختصارا.
قال: ولما خرج المعتصم إلى عمرية أستخلف الواثق. فوجه الواثق إلى الجلساء والمغنين أن
يبكروا إليه يوما حده لهم، ووجه إلى إسحاق، فحضر الجميع.
فقال لهم الواثق: إني عزمت
على الصبوح، ولست أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشيء الواحد،
فأجلسوا معي حلقة، وليكن إلى جانب كل جليسٍ مغن، فجلسوا كذلك. فقال الواثق: أنا
أبدأ، فأخذ العود فغنى وشربوا وغنى من بعده، حتى انتهى إلى إسحاق وأعطى العود فلم
يأخذه؛ فقال: دعوه. ثم غنوا دورا آخر؛ فلما بلغ الغناء إلى إسحاق لم يغن وفعل ذلك ثلاث
مرات. فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأدخلوا؛ فما قال لأحد منهم:
اجلس. ثم قال: علي بإسحاق. فلما رآه قال: يا خوزي يا كلب، أتبذل لك وأغني فتترفع
علي ! أتراني لو قتلتك كان المعتصم يقيدني بك ! ابطحوه، فبطح وضرب ثلاثين مقرعة
ضرباً خفيفا وحلف لا يغني سائر يومه سواه؛ فأعتذر وتكلمت الجماعة فيه؛ فأخذ العود،
وما زال يغني حتى أنقضى مجلسه. وللواثق بالله في الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها
الشرح.
ومنهم المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر. قال يزيد
المهلبي: كان المنتصر حسن العلم بالغناء، وكان إذا قال الشعر صنع فيه وأمر المغنين
بإظهاره. فلما ولي الخلافة قطع ذلك وأمر بستر ما تقدم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانيه.
ومنهم المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل. ذكر أيضا أنه كان يغني أصواتا.
فمما غنى به في شعر عدي بن الرقاع:
لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
فمن يك منّا يبت آمنا ومن يك من غيرنا يهرب
وهذه الأبيات من قصيدة لعدي بن الرقاع قالها في الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن

مروان ومصعب بن الزبير وقتل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى
في أخبار عبد الله بن الزبير.
ومنهم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله.
هو ممن له يدٌ في الغناء
وصنعةٌ حسنة. ومما نقل من أغانيه أنه غنى في شعر الفرزدق:
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا
وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: إن المعتضد جمع النغم العشر في صوت صنعه في
شعر دريد بن الصمة وهو:
يا ليتني فيها جذع أخبّ فيها وأضع
قال: وأستعلمني هل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا، فعرفته صحته ودللته على ذلك
حتى تيقنه فسر به. قال عبيد الله: وهو لعمري من جيد الصنعة ونادرها. قال: وقد
صنع ألحاناً في عدة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمحدثين وعارضهم بصنعته
فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصر، ولا أتى بشيءٍ يعتذر منه. قال: فمن ذلك أنه
صنع في قول الشاعر:
أما القطاة فإني سوف أنعتها نعتاً يوافق نعتي بعض ما فيها
فجاء في نهاية الجودة وهو أحسن ما صنع في هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه وأشتراك
القدماء والمحدثين في صنعته مثل معبد ونشيط ومالك وأبن محرز وسنان وعمر الوادي وأبن
جامع وإبراهيم وأبنه إسحاق وعلويه.
قال: وصنع في:
تشكّى الكميت الجرى لمّا جهدته وبيّن لو يسطيع أن يتكلّما
فما قصر في صنعته ولا عجز عن بلوغ الغاية فيها مع اصوات له صنعها تناهز مائة صوت
ما فيها ساقط ولا مرذول. فهؤلاء الذين لهم صنعة في الغناء من الخلفاء.
وأما أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة بدٌ في هذا الفن.
فمنهم إبراهيم بن المهدي وأخته علية بنت المهدي رحمهما الله تعالى، وإبراهيم يكنى أبا
إسحاق أمه شكلة أمةٌ مولدة كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له: شاه أفرند قتل مع
المازيار وسبيت شكلة فحملت إلى المنصور فوهبها لمحياة أم ولده فربتها وبعثت بها إلى
الطائف فنشأت هناك، فلما كبرت ردت إليها. فرآها المهدي فأعجبته فطلبها من محياة

فأعطته إياها فولدت له إبراهيم.
قال أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم قال:
كان إبراهيم بن المهدي أشد خلق الله إعظاما للغناء وأحرصهم عليه وأشدهم منافسةً
فيه. قال: وكانت صنعته لينة فكان إذا صنع شيئا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليه طعن أو
تقريع فقلت صنعته في أيدي الناس مع كثرتها. وكان إذا قيل له فيها شيء يقول: إنما أصنع
تطربا لا تكسبا وأغني لنفسي لا للناس فأعمل ما أشتهي. قال: وكان حسن صوته يستر
عوار ذلك. وكان الناس يقولون: لم ير في جاهليةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسن غناءً من
إبراهيم بن المهدي وأخته علية. وكان إبراهيم يجادل إسحاق ويأخذ عليه في مواطن كثيرة
إلا أنه كان لا يقوم له ويظهر إسحاق خطأه. ووقع بينهما في ذلك بين يدي الرشيد وفي
مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أمور نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار إسحاق بن إبراهيم.
وكان إبراهيم بن المهدي في أول أمره يتستر في الغناء بعض التستر إلا أنه يذكره في مجلس
الرشيد أخيه. فلما كان من أمره في الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى في
أخبار الدولة العباسية عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد، ثم لما أمنه المأمون بعد هربه
منه تهتك بالغناء ومشى مع المغنين ليلا إذا خرجوا من عند المأمون، وإنما أراد المأمون
بذلك ليظهر للناس أنه قد خلع ربقة الخلافة من عنقه وأنه تهنك فلا يصلح للخلافة. وكان
من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتا. وكان مع
علمه وطبعه ومعرفته يقصر عن الغناء القديم وعن أن ينحوه في صنعته. فكان يحذف نغم
الأغاني الكثيرة العمل حذفا شديدا ويحققها على قدر ما يصلح له ويفي بأدائه فإذا عيب
ذلك عليه قال: أنا ملك وأبن ملكٍ وإنما أغني على ما أشتهي وكما ألتذ. فهو أول من أفسد
الغناء القديم.
وروى عن حمدون بن إسماعيل قال: قال إبراهيم بن المهدي: لولا أني أرفع نفسي عن هذه
الصناعة لأظهرت منها ما يعلم الناس معه أنهم لم يروا قبلي مثلي.

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن جعفر بن سليمان الهاشمي قال: حدثنا إبراهيم أبن
المهدي قال:
دخلت يوما على الرشيد وبي فضلة خمارٍ وبين يديه أبن جامع وإبراهيم الموصلي فقال:
بحياتي يا إبراهيم غن، فأخذت العود ولم ألتفت إليهما لما في رأسي من الفضلة فغنيت:
أسرى بخالدة الخيال ولا أرى شيئا ألذّ من الخيال الطارق
إن البليّة من تملّ حديثه فأنقع فؤادك من حديث الوامق
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنت قلبي كالجناح الخافق
شوقاً إليك ولم تجاز مودّتي ليس المكذّب كالحبيب الصادق
فسمعت إبراهيم يقول لأبن جامع: لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطلب لما أكلنا خبزاً أبدا
فقال أبن جامع: صدقت، فلما فرغت من غنائي وضعت العود ثم قلت: خذا في حقكما
ودعا باطللنا.
وروى عن إبراهيم قال:
كان الرشيد يحب أن يسمعني فخلا بي مرات إلى أن سمعني، ثم حضرته مرةً وعنده
سليمان بن أبي جعفر فقال لي: عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك وقد أحب أن
يسمعك، فلم يتركني حتى غنيت بين يديه:
سقياً لربعك من ربع بذي سلمٍ وللزمان به إذ ذاك من زمن
إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةٌ وإذ أجرّ إليكم سادراً رسني
فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يبق في المجلس عنده إلا جعفر أبن يحيى: أنا
أحب أن تشرف جعفراً بأن تغنيه صوتا فغنيته لحنا صنعته في شعر الدارمي:
كأنّ صورتها في الوصف إذ وصفت دينار عينٍ من المضروبة العتق
فأمر لي الرشيد بألف ألف درهم.
وحكى عن إسحاق بن ابراهيم قال: لما صنعت صوتي الذي هو:
قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذي أرد ت وإن كنت لاعبا
وأعترفنا بما أدّعي ت وإن كنت كاذبا
فأفعل الآن ما أرد ت فقد جئت تائبا
اتصل خبره بإبراهيم بن المهدي فكتب إليّ يسألني عنه، فكتبت إليه الشعر وإيقاعه
وبسيطه ومجراه وإصبعه وتجزئته وأقسامه ومخارج نغمه ومواضع مقاطعه ومقادير أدواره
وأوزانه فغناه ثم لقيني فغنانيه، ففضلني فيه بحسن صوته.

وقال أبن أبي طيبة: كنت أسمع إبراهيم بن المهدي يتنحنح فأطرب.
وعن محمد بن خير عن عبد الله بن العباس الربيعي قال:
كنا عند إبراهيم بن المهدي ذات يوم وقد دعا كل محسن من المغنين يومئذ وهو جالس
يلاعب أحدهم بالشطرنج فترنم إبراهيم بصوت فريدة في شعر أبي العتاهية:

قال لي أحمدُ ولم يدر ما بي أتحبّ الغداة عتبة حقا
فتنفّست ثم قلت نعم حبّاً جرى في العروق عرقاً فعرقاً

وهو متكئ، فلما فرغ ترنم به مخارق فأحسن فيه وأطربنا وزاد على إبراهيم، فغناه
إبراهيم وزاد في صوته على غناء مخارق. فلما فرغ رده مخارقٌ وغناه بصوته كله وتحفظ
فيه وكدنا نطير سروراً. فاستوى إبراهيم جالساً وكان متكئا وغناه بصوته كله ووفاه نغمه
وشذوره ونظرت إلى كتفيه تهتزان وبدنه أجمع يتحرك إلى أن فرغ منه ومخارقٌ شاخص نحوه
يرعد وقد أنتقع لونه وأصابعه تختلج فخيل إلي أن الإيوان يسير بنا، فلما فرغ منه تقدم إليه
مخارق فقبل يده وقال: جعلني الله فداك أين أنا منك ! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقية يومه في
شيءٍ من غنائه، والله لكأنما كان يتحدث.
وروى عن منصور بن المهدي قال:
كنت عند أخي إبراهيم في يوم كانت عليه فيه نوبة لمحمد الأمين، فتشاغل بالشرب في بيته
ولم يمض، وأرسل إليه الأمين عدة رسل فتأخر. قال منصور: فلما كان من غدٍ قال لي:
ينبغي أن نعمل على الرواح إلى أمير المؤمنين فنترضاه، فما أشك في غضبه علينا، فمضينا
فسألنا عن خبره فأعلمنا أنه مشرف على حير الوحش وهو مخمور، وكان من عادته ألا
يشرب إذا لحقه الخمار. فدخلنا، وكان طريقنا على حجرة تصنع فيها الملاهي، فقال لي:
اذهب فاختر منها عودا ترضاه وأصلحه غاية الإصلاح حتى لا يحتاج إلى إصلاحه وتغييره
عند الضرب به؛ ففعلت وجعلته في كمي. ودخلنا على الأمين وظهره إلينا. فلما بصرنا به
من بعدٍ قال: أخرج عودك فأخرجته، فاندفع يغني:

وكأسٍ شربت على لذّةٍ وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أني أمرؤٌ أتيت الفتوة من بابها
وشاهدنا الورد والياسمي ن والمسمعات بقصّابها
وبربطنا دائمُ معملٌ فأيّ الثلاثة أزرى بها

فأستوى الأمين جالسا وطرب طرباً شديدا وقال: أحسنت والله يا عم وأحييت لي
طربا. ودعا برطل فشربه على الريق وابتدأ شربه. قال منصور: وغنى إبراهيم يومئذ على
أشد طبقة يتناهى إليها في العود، وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط. ولقد رأيت منه شيئاً
عجيبا لو حدثت به ما صدقت: كان إذا ابتدأ يغني صغت الوحوش إليه ومدت أعناقها،
ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدكان الذي كنا عليه، فإذا سكت نفرت
وبعدت عنا حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد عنا فيها، وجعل الأمين يعجب من
ذلك. وأنصرفنا من الجوائز بما لم ينصرف بمثله قط.
وعن الحسن بن إبراهيم بن رباح قال:
كنت أسأل مخارقاً: أي الناس أحسن غناء ؟ فكان يجيبني جوابا مجملا، حتى حققت
عليه يوما فقال: كان إبراهيم الموصلي أحسن غناءً من أبن جامع بعشر طبقات، وإبراهيم
بن المهدي أحسن غناءً مني بعشر طبقات. ثم قال لي: أحسن الناس غناءً أحسنهم
صوتا. وإبراهيم بن المهدي أحسن الإنس والجن والوحش والطير صوتاً، وحسبك هذا
!.
وعن إسحاق بن إبراهيم قال:
غنى إبراهيم بن المهدي ليلةً محمدا الأمين صوتا لم أرضه في شعر لأبي نواس، وهو:

يا كثير النّوح في الدّمن لا عليها بل على السّكن
سنّة العشّاق واحدةٌ فإذا أحببت فأستنن
ظنّ بي من قد كلفت به فهو يجفوني على الظّنن
رشأ لولا ملاحته خلت الدّنيا من الفتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار. فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين. أجزتني إلى هذه الغاية
بعشرين ألف ألف درهم ! فقال: وهل هي إلا خراج بعض الكور. هكذا رواه إسحاق،
وقد حكيت هذه الحكاية عن محمد بن الحارث، وفيها أن إبراهيم لما أراد الأنصراف قال:
أوقروا زورق عمي دنانير فأوقروه، فأنصرف بمال جليل. قال: وكان محمد بن موسى المنجم
يقول: حكمت أن إبراهيم بن المهدي أحسن الناس كلهم غناء ببرهان، وذلك أني كنت
أراه في مجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يغني المغنون ويغني، فإذا أبتدأ بالصوت لم يبق

من الغلمان أحد إلا ترك ما في يديه وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال
مصغيا إليه لاهيا عما كان فيه ما دام يغني، حتى إذا أمسك وتغنى غيره رجعوا إلى
التشاغل بما كانوا فيه ولم ينبعثوا إلى شيءٍ. فلا برهان أقوى من هذا في مثل هذا من
شهادة الفطن به وأتفاق الطبائع مع أختلافها وتشعب طرقها على الميل إليه والانقياد نحوه.
ولإبراهيم بن المهدي أصوات معروفة. منها ما غناه بشعر مروان بن أبي حفصة:

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفّكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالةً من ربكم جبريل بلّغها النبيّ فقالها
طرقتك زائرةٌ فحيّ خيالها زهراء تخلط بالدّلال جمالها

وأما علية بنت المهدي، فقد قيل: ما أجتمع في جاهليةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسن غناء
من إبرَاهيم بن المهدي وأخته علية. وروى عن أبي أحمد ابن الرشيد قال: كنت يوما
بحضرة المأمون وهو يشرب، ثم قام وقال لي: قم؛ فدخل دار الحرم ودخلت معه، فسمعت
غناءً أذهل عقلي ولم أقدر أن أتقدم ولا أتأخر؛ وفطن المأمون لما بي فضحك وقال: هذه
عمتك علية تطارح عمك إبراهيم.
قال أبو الفرج: وأم علية أم ولدٍ مغنية يقال لها مكنونة، كانت من جواري المروانية المغنية.
والمروانية هذه ليست من آل مروان بن الحكم، وإنما هي زوجة الحسن بن عبد الله بن
عبيد الله بن العباس. وكانت مكنونة من أحسن جواري المدينة وجهاً، وكانت رسحاء،
وكانت حسنة البطن والصدر. فاشتريت للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم؛ فغلبت
عليه حتى كانت الخيزران تقول: ما ملك أمةً أغلظ علي منها. ولما أشتريت للمهدي ستر
أمرها عن أبيه المنصور حتى مات، وولدت للمهدي علية هذه.
وكانت علية بنت المهدي من أجمل الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان
الحسنة. وكان في جبينها فضل سعة، فاتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها
جبينها؛ فهي أول من أحدث ذلك.
قال: وكانت علية حسنة الدين، وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة
الصلاة؛ فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب. ولم تله بشيءٍ غير

قول الشعر في الأحيان، إلا أن يدعوها الخليفة إلى شيءٍ فلا تقدر على خلافه. وكانت
رحمها الله تقول: ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضا، فبأي شيءٍ يحتج
عاصيه والمنتهك لحرماته!. وكانت تقول: لا غفر الله لي فاحشةً أرتكبتها قط، وما أقول في
شعري إلا عبثا.
وعن سعيد بن هريم قال: كانت علية بنت المهدي تحب أن تراسل بالأشعار من تختصه،
فأختصت خادماً يقال له طلٌ من خدم الرشيد، تراسله بالشعر. فلم تره أياما؛ فمشت على
ميزاب وحدثته ثم قالت في ذلك:

قد كان ما كلّفته زمنا ياطلّ من وجدٍ بكم يكفي
حتى أتيتك زائرا عجلا أمشي على حتف إلى حتفي

فحلف عليها الرشيد ألا تكلم طلا ولا تسميه بأسمه، فضمنت له ذلك. وأستمع عليها
يوماً وهي تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل: "فإن لم يصبها وابلٌ" فأرادت
أن تقول: فطلٌ فقالت: فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. فدخل الرشيد فقبل رأسها وقال: قد
وهبت لك طلاً ولا أمنعك بعدها من شيءٍ تريدينه. ولها في طل هذا عدة أشعار صنعت
فيها ألحانا، وكانت في بعضها نصحف أسمه وتكنى عنه بغيره. وكانت أيضا تقول الشعر في
خادم لها يقال له: رشأ وتكنى عنه بزينب. فمن شعرها فيه:

وجد الفؤاد بزينبا وجداً شديداً متعبا
أصبحت من كلف بها أدعى شقيّاً منصبا
ولقد كنيت عن أسمها عمداً لكي لا تغضبا
وجعلت زينب سترةً وكتمت أمراً معجبا
قالت وقد عزّ الوصا ل ولم أجد لي مذهبا
والله لا نلت المودّة أو تنال الكوكبا

فصحفت أسمه في قولها: زينبا؛ وهذا من الجناس الخطي.
قال: وكانت لأم جعفر جارية يقال لها طغيان، فوشت بعلية إلى رشأ وحكت عنها ما لم تقل. فقالت علية:

لطغيان خفٌّ مذ ثلاثين حجّةً جديدٌ فلا يبلي ولا يتخرّق
وكيف بلى خفٍّ هو الدهر كلّه على قدميها في السماء معلّق
فما خرقت خفّاً ولم تبل جورباً وأمّا سراويلاتها فتمزّق

وروى عن أبي هفان قال:
أهديت للرشيد جاريةٌ في غاية الجمال؛ فخلا معها يوما وأخرج كل قينة في داره وأصطبح.

وكان من حضر من جواريه الغناء والخدمة في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زيٍ من
كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر. وأتصل الخبر بأم جعفر فعظم عليها ذلك؛ فأرسلت إلى
علية تشكو إليها. فأرسلت إليها علية: لا يهولنك هذا، والله لأردنه إليك. قد عزمت أن
أضع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواري، فلا تبقي عندك جاريةً إلا بعثت بها
إلي وألبسيهن أنواع الثياب ليأخذن الصوت مع جواري؛ ففعلت أم جعفر ما أمرتها به. فلما
جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد إلا وعلية وأم جعفر قد خرجتا إليه من حجرتيهما
معهما زهاء ألفي جارية من جواريهما وسائر جواري القصر عليهن غرائب اللباس وكلهن في
لحن واحد هزج صنعته علية وهو:

منفصلٌ عنّي وما قلبي عنه منفصل
يا هاجري اليوم لمن نويت بعدي أن تصل

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى أستقبل أم جعفر وعلية وهو على غاية السرور،
وقال: لم أر كاليوم قط. يا مسرور، لا تبقين في بيت المال درهماً إلا نثرته. فكان ما نثر
يومئذ ستة آلاف ألف درهم، وما سمع بمثل ذلك اليوم.
وروى عن عريب أنها قالت: أحسن يوم رأيته في الدنيا وأطيبه يوم أجتمعت فيه مع
إبراهيم بن المهدي عند أخته علية وعندها أخوهما يعقوب بن المهدي، وكان أحذق الناس
بالزمر. فبدأت علية فغنت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمر عليها:

تحبّب فإنّ داعية الحبّ وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصّر فإن حدّثت أنّ أخا هوىً نجا سالماً فارج النجاة من الحبّ
إذا لم يكن في الحبّ سخطٌ ولا رضاً فأين حلاوات الرسائل والكتب

وغنى إبراهيم في صنعته وزمر عليه يعقوب:

لم ينسنيك سرورٌ لا ولا حزن وكيف لا، كيف ينسي وجهك الحسن
ولا خلا منك قلبي لا ولا جسدي كلّي بكلّك مشغولٌ ومرتهن
يا فردة الحسن مالي منك مذ كلفت نفسي بحبّك إلاّ الهمّ والحزن
نورٌ تولّد من شمسٍ ومن قمرٍ حتى تكامل فيك الروح والبدن

قالت عريب: فما سمعت مثلً ما سمعت منها قط وأعلم أني لا أسمع مثله أبدا.

وروى عن خشف الواضحية قالت: تماريت أنا وعريب في غناء علية بحضرة المتوكل أو
غيره من الخلفاء. فقلت أنا: هي ثلاثة وسبعون صوتا، وقالت عريب: هي أثنان وسبعون
صوتا. فقال المتوكل: غنيا غناءها؛ فلم أزل أغني غناءها حتى مضى أثنان وسبعون
صوتا، ولم أدر الثالث والسبعين. قالت: فقطع بي وأستعلت عريب وأنكسرت. قالت
خشف: فلما كان الليل رأيت علية فيما يرى النائم، فقالت: يا خشف خالفتك عريب في
غنائي. قلت: نعم يا سيدتي. قالت: الصواب معك، أفتدرين ما الصوت الذي أنسيتيه ؟
قلت: لا والله، ولوددت أني فديت ما جرى بجميع ما أملك. قالت: هو:

بني الحبّ على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في وصف الهوى عاشقٌ يعرف تأليف الحجج
وقليل الحبّ صرفاً خالصاً لك خيرٌ من كثيرٍ قد مزج

وكأنها قد أندفعت تغنى به، فما سمعت أحسن مما غنته، وقد زادتني فيه أشياء في نومي
لم أكن أعرفها، فأنتبهت وأنا لا أعقل فرحاً به. فباكرت الخليفة وذكرت له القصة. فقالت
عريب: هذا شيء صنعته أنت لما جرى أمس، وأما الصوت فصحيح. فحلفت للخليفة بما
رضي به أن القصة كما حكيت. فقال: رؤياك والله أعجب، رحم الله علية فما تركت
ظرفها حية ولا ميتة. وأجازني جائزة سنية.
وروى أبو الفرج أيضا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال:
شهدت أبي جعفراً وأنا صغير وهو يحدث جدي يحيى بن خالد في بعض ما كان يخبره به
من خلوته مع هارون الرشيد، قال: يا ابت، أخذ بيدي أمير المؤمنين وأقبل في حجره
يخترقها حتى أنتهى إلى حجرةٍ مغلقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ
بيده، ثم صرنا إلى رواق ففتحه، وفي صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس، ونقر
الباب بيده نقرات فسمعنا حساً، ثم أعاد النقر ثانيةً فسمعنا صوت عود، ثم أعاد النقر
ثالثةً فغنت جارية ما ظننت والله أن الله جل وعز خلق مثلها في حسن الغناء وجودة
الضرب. فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنت أصواتا: غنى صوتي؛ فغنت صوته، وهو:

ومخنّثٍ شهد الزّفاف وقبله غنّي الجواري حاسراً ومنقّبا
لبس الدلال وقام ينقر دفّه نقراً أقرّ به العيون وأطربا
إنّ النساء رأينه فعشقنه فشكون شدّة ما بهنّ فأكذبا
قال: فطربت والله طرباً هممت معه أن أنطح برأسي الحائط.
ثم قال: غنى:
طال تكذيبي وتصديقي
فغنت:
طال تكذيبي وتصديقي لم أجد عهداً لمخلوق
إنّ ناساً في الهوى غدروا حسّنوا نقض المواثيق
لا تراني بعدهم أبداً أشتكي عشقاً لمعشوق
قال: فرقص الرشيد ورقصت معه؛ ثم قال: أمض بنا، فإني أخشى أن يبدو منا ما هو
أكثر من هذا، فمضينا. فلما صرنا إلى الدهليز قال وهو قابضٌ على يدي: هل عرفت هذه
المرأة ؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: فإني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا
أخبرك بها، هذه علية بنت المهدي. ووالله لئن لفظت به بين يدي أحد وبلغني لأقتلنك.
قال: فسمعت جدي يقول لأبي: فقد والله لفظت به؛ ووالله ليقتلنك، فأصنع ما أنت صانع.
وأخبار علية وأغانيها كثيرة، وقد ذكرنا منها ما يكتفي به.
قال أبو الفرج: وكان مولد علية سنة ستين ومائة، وتوفيت سنة عشرة ومائتين، وقيل: سنة
تسع ومائتين، ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى ابن موسى بن محمد بن
علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمها إليه
وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى، فشرقت من ذلك وسعلت ثم حمت بعقب هذا أياماً
يسيرةً وماتت. رحمها الله.
ومنهم أبو عيسى بن الرشيد. هو أبو عيسى أحمد، وقيل: بل أسمه صالح بن هارون
الرشيد. وأمه أم ولد بربرية. كان من أحسن الناس وجها ومجالسة وعشرةً وأمجنهم
وأحدهم نادرةً وأشدهم عبثاً. وكان أبو عيسى جميل الوجه جدا؛ فكان إذا عزم على
الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء. وكانت عريب المأمونية
تقول: ما سمعت غناءً أحسن من غناء أبي عيسى بن الرشيد، ولا رأيت وجهاً أحسن
من وجهه.

وروى أن الرشيد قال يوما لأبي عيسى وهو صبيٌ: ليت جمالك لعبد الله ! يعني المأمون
فقال له: يا أمير المؤمنين، على أن حظه منك لي. فعجب الرشيد من جوابه على صباه
وضمه إليه وقبله.
قال أبو الفرج: وكان أبو عيسى جيد الصنعة، وله أغانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به. منها:

رقدت عنك سلوتي والهوى ليس يرقد
وأطار السهاد نو مي فنومي مشّرد
أنت بالحسن منك يا حسن الوجه يشهد
وفؤادي بحسن وجهك يشقى ويكمد

وله غير هذا من الأصوات. قال: وكان كثير البسط والمجون والعبث. وكان المأمون أشد
الناس حبا له، وكان يعده للأمر بعده ويذكر ذلك كثيرا. حتى لقد حكي عنه أنه قال يوما:
إنه ليسهل علي أمر الموت وفقد الملك، ولا يسهل شيء منهما على أحد؛ وذلك لمحبتي أن
يلي أبو عيسى الأمر بعدي لشدة حبي إياه. وكانت وفاة أبي عيسى في سنة سبع ومائتين.
روى عن عبد الله بن طاهر قال: حدثني من شهد المأمون ليلةً وهم يتراءون هلال شهر
رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مستلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون. فقال أبو
عيسى قولا أنكر عليه؛ كأنه يسخط لورود الشهر، فما صام بعده.
ونقل عنه أنه قال:

دهاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهراً بعده آخر الدهر
فلو كان يعديني الإمام بقدرةٍ على الشهر لأستعديت جهدي على الشهر

فناله بعقب هذا القول صرعٌ، فكان يصرع في اليوم مرات حتى مات. ولما مات وجد
المأمون عليه وجدا شديدا.
روى عن محمد بن عباد المهلبي قال:
لما مات أبو عيسى بن الرشيد دخلت على المأمون فخلعت عمامتي ونبذتها ورائي
والخلفاء لا تعزى في العمائم فقال لي: يا محمد، حال القدر، دون الوطر. فقلت: يا أمير
المؤمنين، كل مصيبة أخطأتك شوى، فجعل الله الحزن لك لا عليك !. قال: فركب المأمون
إلى دار أبي عيسى فحضر جهازه وصلى عليه ونزل في قبره. وأمتنع من الطعام أياما حتى

خيف أن يضر ذلك به. قال: وما رأيت مصابا حزينا قط أجمل أثراً في مصيبته ولا أحرق
وجداً منه، صامتٌ ودموعه تهمى على خديه من غير كلح ولا أستنثار.
وروى عن أحمد بن أبي داود قال: دخلت على المأمون وقد توفى أخوه أبو عيسى وهو
يبكي ويمسح عينيه بمنديل، فقعدت إلى جنب عمرو بن مسعدة وتمثلت قول الشاعر:

نقصٌ من الدّنيا وأسبابها فحسبك منّي ما تجنّ الجوانح
كأن لم يمت حيٌّ سواك ولم تقم على أحدٍ إلا عليك النوائح

ثم ألتفت إلي وقال: هيه يا أحمد ! فتمثلت بقول عبدة بن الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحّما
تحيّة من أوليته منك نعمةً إذا زار عن شحطٍ بلادك سلّما
فما كان قيسٌ هلكه هلكُ واحدٍ ولكنّه بنيان قومٍ تهدّما

فبكى ساعة، ثم ألتفت إلى عمرو بن مسعدة فقال: هيه يا عمرو ! فقال: نعم يا أمير
المؤمنين.

بكّوا حذيفة لم تبكّوا مثله حتى تعود قبائلٌ لم تخلق

قال: فإذا عريب وجوارٍ معها يسمعن ما يدور بيننا؛ فقالت: اجعلوا لنا معكم في القول
نصيبا. فقال المأمون: قولي، فرب صوابٍ منك كثير. فقالت:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر
كأنّ بني العبّاس يوم وفاته نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدر

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نوحي، فناحت ورد عليها الجواري. فبكى المأمون
حتى قلت: قد فاضت نفسه وبكينا معه أحر بكاء، ثم أمسكت. فقال المأمون: أصنعي
فيه لحناً على مذهب النّوح وغنى به؛ ففعلت وغنته إياه على العود. فوالذي لا يحلف
بأعظم منه لقد بكينا عليه غناءً أكثر مما بكينا عليه نوحا.
ومنهم عبد الله بن موسى الهادي. قال أبو الفرج: كان له في الغناء صنعة حسنة، وله
أصوات مذكورة، منها قوله:

تقاضاك دهرك ما أسلفا وكدّر عيشك بعد الصّفا
فلا تجزعنّ فإن الزمان رهينٌ بتشتيت ما ألفّا
ولما رآك قليل الهموم كثير الهوى ناعماً مترفا
ألحّ عليك بروعاته وأقبل يرميك مستهدفا

قال: وكان عبد الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء. وكان له غلام أسود

يقال له قلم، فعلمه الضرب فحذق فيه؛ فأشترته منه أم جعفر بثلاثمائة ألف درهم.
وروى عن سليمان بن داود كاتب أم جعفر قال:
كنت جالسا مع عبد الله بن موسى الهادي، فمر به خادم لصالح بن الرشيد؛ فقال له: ما
أسمك؟ قال: أسمي لا تسل. فأعجبه حسنه وحسن منطقه، فقال لي: قم بنا حتى نشرب
اليوم ونذكر هذا البدر، فقمت معه. فأنشدني في ذلك اليوم:

وشادنٍ مرّ بنا يجرح باللّحظ المقل
مظلوم خصرٍ ظالمٌ منه إذا يمشي الكفل
اعتدلت قامته والطرف منه ما عدل
بدرٌ تراه أبداً طالع سعد ما أفل
سألته عن أسمه فقال: إسمي لا تسل
وطلعت في وجنتي ه وردتان من خجل
فقلت ما أخطأ الذي سمّاك بل قال المثل
لا تسألن عن شادنٍ فاق جمالاً وكمل

وقال فيه:

عزّ الذي تهوى وذلّ صبّ الفؤاد مختبل
جدّ به الهجر وذا أل هجر إذا جدّ قتل
من شادن ممنطق فاق جمالاً وكمل
تناصف الحسن به فلا تسل عن لا تسل

وعن أحمد بن المكي قال: دعاني عبد الله بن موسى يوما فقال لي: أتقوم غلاماً ضاربا
مغنيا قيمة عدل لا حيف فيها على البائع ولا على المشتري ؟
فقلت نعم. فأخرج إلي ابنه
القاسم، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر، فأخذ عودا يضرب به؛
فأكببت على يديه أقبلهما فقال لي عبد الله: أتقبل يد غلام مملوك ! فقلت: بأبي وأمي هو
من مملوكٍ ! وقبلت رجله أيضا. فقال: أما إذ عرفته فأحب أن تضاربه، ففعلت. فلما
رأى الغلام زيادتي في الضرب عليه أغتم وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر إليه: يا أبت، أنا
متلذذ وهذا متكسب. فضحكت وقلت: هو كذلك يا سيدي.
وعجبت من حدة جوابه
معتذراً على صغر سنه.
قال عبد الله بن حبيب:
كان عبد الله بن موسى الهادي معربدا، وكان قد أعضل المأمون مما يعربد عليه إذا شرب
معه؛ فأمر به أن يحبس في منزله فلا يخرج منه، وأقعد على بابه حرسا؛ ثم تذمم من ذلك

فأظهر له الرضا وصرف الحرس عن بابه. ثم نادمه فعربد عليه أيضا وكلمه بكلام أحفظه.
وكان عبد الله مغرما بالصيد؛ فأمر المأمون خادما من خواص خدمه يقال له حسن فسمه
في دراجٍ؛ فلما أكله أحس بالسم، فركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني، ومات
بعد أيام. وأكل معه خادمان، فمات أحدهما لوقته، وضنى الآخر ثم مات بعد مدة.
ومنهم عبد الله بن محمد الأمين. قال أبو الفرج الأصفهاني:
كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفا غزلا يقول شعراً لينا ويصنعه صنعةً صالحة. وكان
بينه وبين أبي نهشل بن حميد مودة؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنية لبعض نساء بني هاشم
وأعطى بها مالا عظيما. وعرفت مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليه في السوم فتركها؛
فأشتراها أخ لأبي نهشل، فتبعتها نفس عبد الله، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزول
عنها؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه. فكتب عبد الله إلى أبي نهشل:

يابن حميدٍ يا أبا نهشل مفتاح باب الحدث المقفل
يا أكرم الناس وداداً وأر عاهم لحقٍّ ضائع مهمل
أحسنت في ودّي وأجملت بل جزت فعال المحسن المجمل
بيتك في ذي يمنٍ شامخٌ تقصر عنه قنتّا يذبل
خلفت فينا حاتماً ذا النّدى وجدت جود العارض المسبل
أيّ أخ أنت لذي وحدةٍ تركته بالعزّ في جحفل
نجوم حّى منك مسعودةٌ فيما أرجّى ليس بالأقّل
فصدّق الظنّ بما قلته وسهّل الأمر به يسهل
لا تحرمنّي ولديك المنى بالله صيد الرّشأ الأكحل
رميت منه بسهام الهوى وما درى ما الرّمي في مقتلي
أدنيتني بالوعد في صيده إدناء عطشانٍ من المنهل
ثم تناسيت وأسلمتني إلى مطالٍ موحش المنزل
تركتني في جلّة عائما لا أعرف المدبر من مقبل
صرّح بأمرٍ واضح بينٍ لا خير في ذي لبسٍ مشكل

قال: فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها. ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله:

ألا يا دير حنظلة المفدّى لقد أورثتني سقماً وكدّا
أزفّ من الفرات إليك زقّاً وأجعل حوله الورد المندّى

ومنهم أبو عيسى بن المتوكل. قال عبد الله بن المعتز:
جمع لأبي عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارها أكثر من ثلثمائة صوت، منها الجيد الصنعة
ومنها المتوسط. وقال النميري: سمعت أبا عيسى بن المتوكل يقول: إذا أتممت صنعة

ثلثمائة وستين صوتا عدد أيام السنة تركت الصنعة. فلما أتمها ترك الصنعة. فمنها قوله في
شعر علي بن الجهم:

هي النفس ما حمّلتها تتحمّل وللدهر أيّامٌ تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلةٌ وأفضل أخلاق الرجال التجمّل

قال أبو الفرج الأصفهاني: وهو لعمري من جيد الغناء وفاخر الصنعة، ولو لم يصنع غيره
لكفي.

ومنهم عبد الله بن المعتز. هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله العباسي. قد وصفه
أبو الفرج الأصفهاني فقال: وأمره مع قرب عهده بعصرنا مشهورٌ في فضائله وأدبه شهرةً
يشترك في أكثرها الخاص والعام، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة
المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين، ولا تقصر عن مدى السابقين
وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول
الجاهلية. وأطنب في وصفه وتقريظه، وهو فوق ما قال. ثم قال:

وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقي والكلام على النغم وعللها؛ وله في ذلك وفي
غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله أبن عبد الله بن
طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة أدبه. وذكر منها شيئا ليس هذا
موضع إيراده. ثم قال: ومن صنعة عبد الله بن المعتز في شعره:

هل ترجعنّ ليالٍ قد مضين لنا والدار جامعةٌ أزمان أزمانا

قال أبو الفرج: ومن صنعته الظريفة الشكل مع جودتها:

وابلائي من محضرٍ ومغيب وحبيبٍ منى بعيدٍ قريب
لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل يّها برقيب

قال: ومن صنعته التي تظارف فيها وملح:

زاحم كمّي كمّه فألتويا وافق قلبي قلبه فأستويا
وطالما ذاقا الهوى فأكتويا يا قرّة العين ويا همّي ويا

وحكى عن جعفر بن قدامة قال: كان لعبد الله بن المعتز غلام يحبه، فغضب الغلام عليه،
فجهد أن يترضاه، فلم يكن له فيه حيلة. ودخلت عليه فأنشدني فيه:

بأبي أنت قد تما ديت في الهجر والغضب
وأصطباري على صدو دك يوماً من العجب
ليس لي إن فقدت وج هك ي العيش من أرب
رحم الله من أعا ن على الصّلح وأحتسب

قال: فمضيت إلى الغلام، فلم أزل أداريه وأرفق به حتى ترضيته له وجئته به؛ فمر لنا
يومئذ أطيب يوم وأحسنه.
من غنى من الأشراف والعلماء
كان ممن غنى من الأشراف والعلماء على ما نقل إلينا من أخبارهم:
عبد العزيز بن المطلب. روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي رحمه
الله بسند رفعه إلى محمد بن مسلمة قال حدثني أبي قال: أتيت عبد العزيز بن المطلب
أسأله عن بيعة الجن للنبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها، فوجدته
مستلقياً وهو يغني:

فما روضةٌ بالحزن طيّبة الثّرى يمجّ النّدى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزّة موهناً وقد أوقدت بالمندل الرّطب نارها
من الخفرات البيض لم تلق شقوةً وبالحسب المكنون صافٍ نجارها
فإن برزت كانت لعينيك قرّةً وإن غبت عنها لم يغمّك عارها

فقلت له: تغنى أصلحك الله وأنت في جلالتك وشرفك ! أما والله لأحدون بها ركبان
نجد. قال: فوالله ما أكترث وعاد يتغنى:

فما ظبيةٌ أدماء خفّاقة الحشى تجوب بظلفيها بطون الخمائل
بأحسن منها إذ تقول تدلّلاً وأدمعها يذرين حشو المكاحل
تمتّع بذا اليوم القصير فإنه رهينٌ بأيّام الشهور الأطاول

قال: فندمت على قولي له، فقلت: أصلحك الله، أتحدثني في هذا بشيء ! فقال: نعم،
حدثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم وأشعب يغنيه:

معقربةٌ كالبدر سنّة وجهها مطهّرة الأثواب والعرض وافر
لها نسبٌ زاكٍ وعرضٌ مهذّبٌ وعن كل مكروهٍ من الأمر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ريبةً ولم يستملها عن تقي الله شاعر

فقال له سالم رضي الله عنه: زدني. فقال:

ألمّت بنا والليل داجٍ كأنه جناح غرابٍ عنه قد نفض القطرا
فقلت أعطّارٌ ثوى في رحالنا وما أحتملت ليلى سوى ريحها عطرا

فقال سالم: أما والله لولا أن تداوله الرواة لأجزلت جائزتك، فلك من هذا الأمر مكانٌ.
ومنهم ابراهيم بن سعد. هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن

عوف الزهري. كان من العلماء الثقات المحدثين. سمع أباه وأبن شهاب الزهري وهشام بن
عروة وصالح بن كيسان ومحمد بن إسحاق بن يسار. روى عنه يزيد بن عبد الله بن الهاد
وشعبة بن الحجاج والليث بن سعد، وأبناه يعقوب وسعد أبنا إبراهيم وعبد الرحمن بن
مهدي ويزيد بن هارون ويونس المؤدب وأبو داود الطيالسي وسليمان بن داود الهاشمي
وعبد العزيز الآدمي وعلي بن الجعد ومحمد بن جعفر الوركاني وأحمد بن حنبل وغيرهم.
كان يبيح السماع ويضرب بالعود ويغني عليه. وله في ذلك قصة رواها أبو الفضل محمد بن
طاهر المقدسي بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عفير قال: قدم إبراهيم بن سعد الزهري العراق سنة أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيد وأظهر بره.
وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله؛ فأتاه بعض أهل الحديث ليسمع منه أحاديث الزهري،
فسمعه يتغنى، فقال: لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك، فأما الآن فلا سمعت منك
حديثا ابدا. قال: إذاً لا أفقد إلا شخصك. علي وعلي ألا أحدث ببغداد ما أقمت
حديثاً واحداً حتى أغني قبله. وشاعت هذه الحكاية ببغداد، فبلغت الرشيد، فدعا به
فسأله عن حديث المخزومية التي قطعها النبي صلى الله عليه وسلم في سرقة الحلي؛ فدعا
بعود. فقال الشيد: أعود المجمر ؟ قال: لا ولكن عود الطرب، فتبسم. ففهمها إبراهيم بن
سعد فقال: لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذي آذاني بالأمس وألجأني إلى أن
حلفت. قال نعم. فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنى:

يا أمّ طلحة إنّ البين قد أفدا ملّ الثّواء لأن كان الرحيل غدا

فقال له الرشيد: من كان من فقهائكم ينكر السماع ؟ قال: من ربط الله على قلبه. قال:
فهل بلغك عن مالك في هذا شيء ؟ فقال: لا والله، إلا أن أبي أخبرني أنهم أجتمعوا في
مدعاة كانت في بني يربوع وهم يومئذ جلة، ومالكٌ أقلهم في فقه وقدر، ومعهم دفوف
ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون. ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم:

سليمى أزمعت بينا وأين لقاؤها أينا
وقد قالت لأترابٍ لها زهرٍ تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيشُ تعالينا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم. ومات إبراهيم في هذه السنة وهو أبن خمس
وسبعين سنة. قال: وكان ابراهيم بن سعد يبالغ فيه إلى هذا الحد. وقد أجمعت الأئمة
على ثقته وعدالته والرواية عنه. وأتفق البخاري ومسلم على إخراج حديثه في الصحيح.
ولم تسقط عدالته بفعله عند أهل العلم، بل قلد قضاء بغداد على جلالتها، وقلد أبوه
القضاء بالمدينة على شرفها.
وروى أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال:
شهدت إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقد سأله عمن بالمدينة ينكر الغناء، فقال: من
قنعه الله خزيه: مالك بن أنس؛ ثم حلف أنه سمع مالكا يغني:

سليمى أزمعت بينا فأين لقاؤها أينا

في عرس لرجل من أهل المدينة يكنى أبا حنظلة.
وروى أيضا بسنده إلى الحسين بن دحمان الأشقر قال:
كنت بالمدينة، فخلا لي الطريق في نصف النهار، فجعلت أتغنى:

ما بال أهلك يا رباب خزراً كأنهم غضاب

قال: فإذا خوخةٌ قد فتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعه لحيةٌ حمراء، فقال: يا فاسق ! أسأت
التأدية، ومنعت القائلة، وأذعت الفاحشة؛ ثم أندفع يغنيه؛ فظننت أن طويسا قد نشر
يغنيه، فقلت: أصلحك الله ! من أين لك هذا الغناء ؟ قال: نشأت وأنا غلام أتبع المغنين
وآخذ عنهم؛ فقالت لي أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع
الغناء وأطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين وأتبعت الفقهاء، فبلغ الله
بي ما ترى. فقلت: فأعد جعلت فداءك. فقال: لا ولا كرامة ! أتريد أن تقول أخذته عن
مالك بن أنس ! وإذا هو مالك ولم أعلم.
ومنهم محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. كان عالما
بالفقه والغناء جميعا. وكان يحيى بن أكثم وصفه للمأمون بالفقه، ووصفه أحمد بن يوسف
بالغناء. فقال المأمون: ما أعجب ما أجتمع فيه العلم بالعلم والغناء !.
من غنى من الأعيان والأكابر والقواد
ممن نسبت له صنعةٌ في الغناء
منهم أبو دلف العجلي. هو أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بني عجل بن لجيم

بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. كان محله من الشجاعة وبعد الهمة وعلو المحل عند
الخلفاء وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محلا كبيرا ليس لكثير من
أمثاله.
قال أبو الفرج الأصبهاني: وله صنعة حسنة. فمن جيد صنعته قوله والشعر له أيضا :

بنفسي يا جنان وأنت منّي مكان الرّوح من جسد الجبان
ولو أني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمان
لإقدامي إذا ما الخيل حامت وهاب كماتها حرّ الطّعان

قال: وكان أحمد بن أبي داود ينكر أمر الغناء إنكاراً شديداً؛ فأعلمه المعتصم أن أبا دلف
صديقه يغني. فقال: ما أراه مع عقله يفعل ذلك ! فستر المعتصم أحمد بن أبي داود في
موضع أبا دلف وأمره أن يغني ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج أحمد بن أبي داود عليه؛ فخرج
والكراهة ظاهرة في وجهه. فلما رآه أحمد قال: سوءةً لهذا من فعل ! أبعد هذه السن
وهذا المحل تصنع بنفسك ما أرى فخجل أبو دلف وتشور وقال: إنهم ليكرهوني على
ذلك. فقال: هبهم أكرهوك على الغناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة !.
قال: وكان أبو دلف ينادم الواثق. فوصف للمعتصم فأحب أن يسمعه، وسأل الواثق عنه
فقال له: يا أمير المؤمنين، أنا على نية الفصد غداً وهو عندي. وفصد الواثق فأتاه أبو دلف
وأتته رسل الخليفة بالهدايا، فأعلمهم الواثق حصول أبي دلف عنده. فلم يلبث أن أقبل
الخدم يقولون: قد جاء الخليفة. فقام الواثق وكل من كان عنده حتى تلقوه؛ وجاء حتى
جلس، وأمر بندماء الواثق فردوا إلى مجالسهم. وأقبل الواثق على أبي دلف فقال: يا قاسم،
إن أمير المؤمنين. فقال: صوتاً بعينه أو ما أخترت ؟ قال: بل من صنعتك في شعر جرير.
فغنى:

بان الخليط برامتين فودّعوا أو كلّما أعتزموا لبينٍ تجزع
كيف العزاء ولم أجد مذ غبتم قلباً يقرّ ولا شراباً ينقع

فقال المعتصم: أحسن أحسن ثلاثا وشرب رطلاً. ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة
أرطال. ثم دعا بحمال فركبه، وأمر أبا دلف أن ينصرف معه؛ فخرج معه فثبت في ندمائه،
وأمر له بعشرين ألف دينار.

قال: وكان أبو دلف جواداً ممدحا. وفيه يقول علي بن جبلة من قصيدة يقول فيها:

ذاد ورد الغيّ عن صدره وأرعوى واللّهو من وطره
ندمى أنّ الشباب مضى لم أبلّغه مدى أشره
حسرت عنّي بشاشته وذوي المحمود من ثمره
ودمٍ أهدرت من رشأ لم يرد عقلاً على هدره

جاء منها:

دع جدا قحطان أو مضرٍ في يمانيه وفي مضره
وأمتدح من وائلٍ رجلاً عصر الآفاق من عصره

ومنها:

المنايا في مقانبه والعطايا في ذرا حجره
ملكٌ تندى أنامله كأنبلاج النّوء عن مطره
مستهلٌّ عن مواهبه كأبتسام الرّوض عن زهره

ومنها:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين باديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلفٍ ولّت الدنيا على أثره
كلّ من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعيرٌ منه مكرمةً يكتسيها يوم مفتخره

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على علي بن جبلة حتى سل لسانه من قفاه.

وقوله فيه:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حالٍ إلى حال
وما مددت مدى طرفٍ إلى أحدٍ إلاّ قضيت بأرزاقٍ وآجال
تزورّ سخطاً فتضحى البيض ضاحكةً وتستهلّ فتبكي أعين المال

وكان سبب مدح علي بن جبلة أبا دلف بقوله:

إنما الدنيا أبو دلفٍ

ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن علي بن جبلة قال:

زرت أبا دلف بالجبل، فكان
يظهر من بري وإكرامي والتحفي بي أمراً عظيما مفرطا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث
إلي معقلا وقال: يقول لك الأمير: قد أنقطعت عني، وأظنك قد أستقللت بري، فلا يغضبنك
ذلك فإني سأزيد فيه حتى ترضي. فقلت: والله ما قطعني إلا الإفراط في البر، وكتبت إليه:

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمةٍ وهل يرتجى نيل الزيادة بالكفر
ولكنني لمّا أتيتك زائراً فأفرطت في برّي عجزت عن الشكر
فم الآن لا آتيك إلاّ مسلّماً أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فإن زدتني برّاً تزايدت جفوةً ولم تلقني طول الحياة إلى الحشر

فلما قرأها معقل أستحسنها وقال: أحسنت والله ! أما إن الأمير يعجبه هذا من
المعاني. فلما أوصلها إلى أبي دلف قال: قاتله الله ! ما أشعره وأرق معانيه ! وأجابني
لوقته وكان حسن البديهة حاضر الجواب :

ألا ربّ طيفٍ طارقٍ قد بسطته وآنسته قبل الضّيافة بالبشر
أتاني يرجّيني فما حال دونه ودون القرى والعرف من نائلي سترى
وجدت له فضلاً عليّ بقصده إليّ وبرّاً زاد فيه علي برّي
فزوّدته مالا يدوم بقاؤه وزوّدني مدحاً يدوم على الدهر

قال: وبعث بالأبيات وصيفا وبعث إلي معه بألف دينار. فقلت حينئذ:

إنما الدنيا أبو دلف
الأبيات.

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: كنا عند أبي العباس المبرد يوما
وعنده فتى من ولد أبي البختري وهب بن وهب، أمرد حسن الوجه، وفتىً من ولد أبي
دلف البجلي شبيه به في الجمال. فقال المبرد لأبن أبي البختري: أعرف لجدك قصة ظريفة
من الكرم حسنة لم يسق إليها. قال: وما هي ؟ قال: دعى رجل من أهل الأدب إلى بعض
المواضع فسقوه نبيذا غير الذي يشربون منه؛ فقال فيهم:

نبيذان في مجلسٍ واحدٍ لإيثار مثرٍ على مقتر
فلو كان فعلك ذا في الطعام لزمت قياسك في المسكر
ولو كنت تفعل فعل الكرام صنعت صنيع أبي البختري
تتّبع إخوانه في البلاد فأغنى المقلّ عن المكثر

فبلغت الأبيات أبا البختري فبعث إليه ثلثمائة دينار. قال أبن عمار: فقلت وقد فعل جد
هذا الفتى في هذا المعنى ما هو أحسن من هذا. قال: وما فعل ؟ قلت: بلغه أن رجلاً
أفتقر من ثروة، فقالت له امرأته، أفترض في الجند، فقال:

إليك عنّي فقد كلّفتني شططاً حمل السلاح وقول الدّارعين قف
تمشى المنايا إلى قومٍ فأكرهها فكيف أمشي إليها عاري الكتف
حسبت أنّ نفاد المال غيّرني أو أنّ روحي في جنبي أبي دلف

فأحضره أبو دلف وقال: كم أملت أمرأتك أن يكون رزقك ؟ قال: مائة دينار، قال: كم
أملت أن تعيش ؟ قال: عشرين سنة. قال: فذلك لك على ما أملت وأملت أمرأتك في

مالنا دون مال السلطان، وأمر بإعطائه إياه. قال: فرأيت وجه أبن أبي دلف يتهلل وأنكسر
أبن أب البختري. وهذه الأبيات رويت لأبن أبي فنن.
ومنهم أخوه معقل بن عيسى. كان فارسا شاعرا جوادا مغنيا فهماً بالنغم والوتر، ذكره
الجاحظ مع ذكر أخيه أبي دلف. وهو القائل لمخارق وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم
رجع إلى العراق، وله في ذلك غناء :

لعمري لئن قرّت بقربك أعينٌ لقد سخنت بالبعد عنك عيون
فسر أو أقم، وقفٌ عليك مودّتي مكانك من قلبي عليك مصون
فما أوحش الدنيا إذا كنت نازحاً وما أحسن الدنيا بحيث تكون

ومنهم عبد الله بن طاهر بن الحسين وأبنه عبيد الله. فأما عبد الله فكان محله من علو
المنزلة وعظم القدر والتمكن عند الخلفاء ما هو مشهور مذكور في أخبارهم. وتقلد
الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلي ذلك، ثم نقل إلى خراسان. وله عطايا وهبات
وصلات لا ينكرها أحد. ومحله من الشجاعة والإقدام معروف. وكان يعتني بالغناء
ويصنعه، إلا أنه كان يترفع عن ذكره والأعتراف به ونسبته إليه. قال أبو الفرج: والأصوات التي غنى فيها عبد الله بن طاهر كثيرة. وكان أبنه عبيد الله
إذا ذكر شيئا منها من صنعته قال: الغناء للدار الكبيرة، وإذا ذكر شيئا من صنعة نفسه
قال: الغناء للدار الصغيرة. فمن الأصوات التي صنع فيها عبد الله بن طاهر قوله:

هلاّ سقيتم بني حزم أسيركم نفسي فداؤك من ذي غلّةٍ صادى
الطاعن الطّعنة النجلاء يتبعها مضرّجٌ بعد ما جادت بإزباد

قال: فقد جاء به عبد الله صحيح العمل مزدوج النغم بين لين وشدة على رسم الحذاق
القدماء. قال عبيد الله وذكر صوتا من أصواته : لما صنع أبي هذا الصوت لم يحب أن
يسمع عنه شيء من الغناء ولا ينسب إليه؛ لأنه كان يترفع عن ذلك، وما جس بيده وتراً
قط ولا تعاطاه، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدربة وحسن الثقافة ما لا يعرفه
كثير. قال: وبلغ من علم ذلك إلى أن صنع في أبيات أصواتا كثيرة، فألقاها على جواريه،
فأخذتها عنه وغنين بها وسمعها الناس منهن وممن أخذ عنهن. فلما أن صنع هذا

الصوت.
هلاّ سقيتم بني سهمٍ أسيركم نفسي فداؤك من ذي غلّةٍ صادى
نسبه إلى مالك بن أبي السمح. وكانت لآل الفضل بن الربيع جارية يقال لها راحة، وكانت
ترغب إلى عبد الله لما ندبه المأمون إلى مصر، وكانت تغنيه؛ وأخذت هذا الصوت عن
جواريه، وأخذه المغنون عنها، وروى لمالك بن أبي السمح مدة. ثم قدم عبد الله العراق،
فحضر مجلس المأمون وغنى الصوت بحضرته ونسب إلى مالك؛ فضحك عبد الله ضحكا
كثيرا؛ فسئل عن القصة فصدق فيها وأعترف بصنعة الصوت. وكشف المأمون عن القصة؛
فلم يزل كل من سئل عنه يخبر عمن أخذه، فينتهي بالقصة إلى راحة ويقف فلا يعدوها.
فأحضرت راحة وسئلت فأخبرت بقصته؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على
إسحاق وطبقته أنه لمالك. ويقال: إنه لم يعجب من شيء عجبه من حذق عبد الله
بمذاهب الأوائل وحكاياتهم.
وأما عبيد الله، ويكنى أبا أحمد. قال أبو الفرج الأصبهاني: له محلٌ من الأدب والتصرف
في فنونه ورواية الشعر وقوله والعلم باللغة وأيام الناس وعلوم الأوائل من الفلاسفة في
الموسيقى والهندسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف ويكثر ذكره. وله صنعةٌ في الغناء
حسنة متقنة عجيبة تدل على ما ذكرناه ها هن من توصله إلى ما عجز عنه الأوائل من
جمع النغم كلها في صوت واحد تتبعه هو وأتى به على ما فصله فيها وطلبه منها.
وكان المعتضد بالله ربما أراد أن يصنع في بعض الأشعار غناء ويحضره أكابر المغنين فيعدل
عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صنعة، ويترفع عن إظهار نفسه بذلك فيومئ إلى أنه من
صنعة جاريته ساجى. وسنذكر ساجى إن شاء الله تعالى في أخبار القيان، وكانت تخريج
عبيد الله وتأديبه.
قال: ولما أختلت حال عبيد الله كان المعتضد بالله يتفقده بالصلات. ومن أصوات عبيد
الله التي جمع فيها النغم العشر قوله في شعر إبراهيم بن علي بن هرمة:

وإنك إذ أطمعتني منك بالرّضا وأيأستني من بعد ذلك بالغضب
كممكنةٍ من درّها كفّ حالب ودافقةٍ من بعد ذلك ما حلب
وأخبار عبيد الله كثيرة سنذكر منها في هذا الباب في أخبار ساجى طرفا، ونورد منها
إن شاء الله تعالى في فن التاريخ ما يناسب. وأستغفر الله العظيم.
أخبار المغنين
الذين نقلوا الغناء من الفارسية إلى العربية
ومن أخذ عنهم ومن أشتهر بالغناء
والغناء قديم في الفرس والروم، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد، وكانوا يسمونه
الركبانية. وأول من نقل الغناء العجمي إلى العربي من أهل مكة سعيد بن مسجح ومن أهل
المدينة سائب خاثر. وأول من صنع الهزج طويس. ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر من
أخذ عنهم إن شاء الله تعالى.
أخبار سعيد بن مسجح
هو أبو عثمان سعيد بن مسجح، مولى بني جمح، وقيل: مولى بني مخزوم، وقيل: مولى بني
نوفل بن الحارث بن عبد المطلب. مكي أسود وقيل: أصفر حسن اللون. وقيل: كان
مولدا، يكنى أبا عيسى. وقيل: كان هو وأبن سريج لرجل واحد. مغن متقدم من فحول
المغنين وأكابرهم. وهو أول من وضع الغناء منهم، وأول من غنى الغناء العربي بمكة؛
وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام في أيام عبد الله بن الزبير، فسمع غناءهم
بالفارسية فقلبه في شعر عربي، ثم رحل إلى الشام فأخذ ألحان الروم والبربطية
والأسطوخوسية، وأنقلب إلى فارس فأخذ غناءً كثيرا وتعلم الضرب، ثم قدم إلى الحجاز
وقد أخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما أستقبحه من النبرات والنغم؛ وكان أول من فعل
ذلك، وتبعه الناس بعد؛ وعلم أبن سريج، وعلم أبن سريج الغريض. قالوا: وكان في صباه
فطنا ذكياً، وكان مولاه معجبا به، فكان يقول: ليكونن لهذا الغلام شأن، وما يمنعني من
عتقه إلا حسن فراستي فيه، ولئن عشت لأتعرفن ذلك، وإن مت قبله فهو حر. فسمعه
مولاه يوماً يتغنى بشعر أبن الرقاع يقول:
ألمم على طللٍ عفا متقادم بين الدّؤيب وبين غيب النّاعم

لولا الحياء وأنّ رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أمّ القاسم
فدعاه مولاه فقال: أعد يا بني؛ فأعاده فإذا هو أحسن مما أبتدأ به، وقال: إن هذا لبعض
ما كنت أقول. ثم قال له: أنى لك هذا ؟ قال: سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية
فقلبتها في هذا الشعر. قال: فأنت حرٌ لوجه الله. فلزم مولاه وكثر أدبه وأتسع في غنائه
وشهر بمكة وأعجبوا به. فدفع إليه مولاه عبيد بن سريج وقال: يا بني علمه وأجتهد فيه.
وكان أبن سريج أحسن الناس صوتا، فتعلم منه ثم برز عليه.
وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء
من الفرس لما أمر معاوية ببناء دوره بمكة التي يقال لها الرقط، وكان قد حمل إليها بنائين من
الفرس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم فيسمع غناءهم
على بنائهم؛ فما أستحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي، ثم صاغر على نحو
ذلك. وكان من قديم غنائه الذي صنعه على تلك الألحان شعر الأحوص، وهو:
أسلام إنك قد ملكت فأسجحي قد يملك الحرّ الكريم فيسجح
منّى علي عانٍ أطلت عناءه في الغلّ عندك والعناة تسرّح
إني لأنصحكم وأعلم أنّه سيّان عندك من بغشّ وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبّها قالت أجدُّ منك ذا أم تمزح
وهذا من أقدم الغناء العربي المنقول عن الفارسي. قال: وعاش سعيد بن مسجح حتى
لقيه معبد وأخذ عنه في ايام الوليد بن عبد الملك.
ومن أخبار سعيد ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه قال: كتب عامل لعبد الملك
بن مروان بمكة إليه أن رجلا أسود يقال له سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش وأنفقوا
عليه أموالهم. فكتب إليه: أن أقبض ماله وسيره إلي. فتوجه أبن مسجح إلى الشام؛
فصحبه رجل له جوارٍ مغنيات في الطريق. فقال له: أين تريد ؟ فأخبره الخبر وقال: أريد
الشام؛ فصحبه حتى بلغا دمشق، فدخلا مسجدها فسألا: من أخص الناس بأمير المؤمنين
؟ فقالوا: هؤلاء النفر من قريش وبنو عمه. فوقف أبن مسجح عليهم فسلم، ثم قال: يا
فتيان، هل فيكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان

عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها برق الأفق، فتثاقلوا به إلا فتىً منهم تذمم فقال له:
أنا أضيفك، وقال لأصحابه: أنطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفي. فقالوا: لا، بل تجيء معنا
أنت وضيفك. فذهبوا جميعا إلى بيت القينة. فلما أتوا بالغداء قال لهم سعيد: إني رجل
أسود، ولعل فيكم من يقذرني، فأنا أجلس وآكل ناحيةً وقام؛ فأستحيوا منه وبعثوا له بما
أكل. فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا. ثم أخرجوا جاريتين، فجلستا
على سرير قد وضع لهما فغنتا إلى العشاء ثم دخلتا؛ وخرجت جارية حسنة الوجه
والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه وشماله ولجست هي على السرير. قال
ابن مسجح: فتمثلت هذا البيت:

فقلت أشمسٌ أم مصابيح بيعةٍ بدت لك خلف السّجف أم أنت حالم

فغضبت الجارية وقالت: أيضرب مثل هذا الأسود بي الأمثال ! فنظروا إلي نظراً منكرا،
ولم يزالوا يسكنونها. ثم غنت صوتا. قال ابن مسجح: فقلت: أحسنت والله ! فغضب
مولاها وقال: أمثل هذا الأسود يقدم على جاريتي ! فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده: قم
فأنصرف إلى منزلي، فقد ثقلت على القوم. فذهبت أقوم. فتذمم القوم وقالوا: بل أقم
وأحسن أدبك: فأقمت. فغنت، فقلت: أخطأت والله وأسأت ! ثم أندفعت فغنيت
الصوت؛ فوثبت الجارية فقالت لمولاها: هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح. فقلت: إي
والله، أنا هو، والله لا أقيم عندكم ووثبت؛ فثوب القرشيون: فقال هذا: تكون عندي،
وقال هذا: تكون عندي، وقال هذا: بل عندي، فقلت: والله لا أقيم إلا عند سيدكم !
يعني الرجل الذي أنزله منهم وسألوه عما أقدمه. فأخبرهم. فقال له صاحبه: إني أسمر
الليلة عند أمير المؤمنين، فهل تحسن أن تحدو ؟ فقال: لا والله، ولكني أصنع حداءً. فقال
له: إن منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين، فإذا وافقت منه طيب نفس أرسلت إليك. ومضى
إلى عبد الملك. فلما رآه طيب النفس أرسل إلى أبن مسجح؛ فأخرج رأسه من وراء
شرف القصر ثم حدا:

إنك يا معاد يأبن الفضّل إن زلزل الأقدام لم تزلزل
عن دين موسى والكتاب المنزل تقيم أصداغ القرون الميلّ
للحق حتى ينتحوا للأعدل
فقال عبد الملك للقرشي: من هذا ؟ فقال: رجل حجازي قدم علي. قال: أحضره،
فأحضره. ثم قال له: هل تغني غناء الركبان ؟ فغنى. فقال له: هل تغني الغناء المتقن ؟
قال نعم. قال: هيه، فغنى؛ فأهتز عبد الملك طرباً، ثم قال: أقسم بالله إن لك في القوم أسما
كبيرا، من أنت ؟ ويلك! قال: أنا المظفوم المقبوض ماله المسير عن وطنه سعيد بن
مسجح، قبض مالي عامل الحجاز ونفاني. فتبسم عبد الملك ثم قال: قد وضح عذر فتيان
قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم؛ وأمنه ووصله وكتب إلى عامله بالحجاز أن أردد إليه
ماله، ولا تتعرض إليه بسوء. والله أعلم.
أخبار سائب خاثر
هو أبو جعفل سائب بن يسار، مولى لبني ليث. وأصله من فيء كسرى، وأشتراه عبد الله
بن جعفر فأعتقه. وقيل: بل كان على ولائه لبني ليث، ولكنه أنقطع إلى عبد الله بن جعفر
ولزمه وعرف به. وهو أول من عمل العود بالمدينة وغنى به.
قال: وكان عبد الله بن عامر
بن كريز سبي إماءً صناجات فأتى بهن المدينة. فكن يلعبن في يوم الجمعة ويسمع الناس
منهن، فأخذ عنهن. وقدم رجل فارسي يعرف بنشيط، فغنى، فعجب عبد الله بن جعفر
منه. فقال له سائب خاثر: أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسي بالعربية. ثم غدا علي
عبد الله بن جعفر وقد عمل في:
لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر
وخلالها من بعد ساكنها حججٌ مضين ثمانٍ أو عشر
والزعفران على ترائبها شرقٌ به اللّبات والنحر
قال أبن الكلبي: وهو أول صوت غنى به ف الإسلام من الغناء العربي المتقن الصنعة.
قال: ثم أشترى عبد الله بن جعفر نشيطا بعد ذلك؛ فأخذ عنه سائب خاثر الغناء العربي،
وأخذ عنه أبن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم. وقيل: إنه لم يكن يضرب بالعود
وإنما كان يقرع بالقضيب ويغني مرتجلا. قال أبن الكلبي: وكان سائب تاجرا موسرا يبيع

الطعام بالمدينة، وكان تحته أربع نسوة. وكان أنقطاعه إلى عبد الله بن جعفر، وهو مع ذلك
يخالط سروات الناس وأشرافهم لظرفه وحلاوته وحسن صوته. وكان قد آلى على نفسه
ألا يغني أ؛دا سوى عبد الله بن جعفر إلا أن يكون خليفةً أو ولي عهد أو أبن خليفة؛
فكان على ذلك إلى أن قتل، على ما نذكره. وأخذ عنه معبد غناء كثيرا. قال: وسمع
معاوية غناء سائب خاثر مرارا، فالمرة الأولى لما وفد عبد الله بن جعفر إلى معاوية وهو
معه، فسأل عنه معاوية، فأخبره عبد الله خبره وأستأذنه في دخوله عليه، فأذن له. فلما
دخل قام على الباب ثم رفع صوته فغنى:

لمن الديار رسومها قفر الأبيات

فالتفت معاوية إلى عبد الله وقال: أشهد لقد حسنه. وقضى معاوية حوائجه وأحسن إليه
ووصله. وقيل: أشرف معاوية ليلةً على منزل يزيد، فسمع صوتا أعجبه، وأستخفه السماع
فأستمع حتى مل؛ ثم دعا بكرسي فجلس عليه وأشتهى الأستزادة، فاستمع بقية ليلته.
فلما أصبح غدا عليه يزيد؛ فقال: يا بني، من كان جليسك البارحة ؟ قال: أي جليس يا
أمير المؤمنين ؟ وأستعجم عليه. فقال: عرفني به فإنه لم يخف علي شيء من أمرك. قال:
هو سائب خاثر. قال معاوية: فأكثر له يا بني من برك وصلتك، فما رأيت بمجالسته بأسا.
قال أبن الكلبي: وقدم معاوية المدينة في بعض ما كان يقدم، فأمر حاجبه بالإذن للناس؛
فخرج ثم رجع فقال: ما بالباب أحد. فقال معاوية: وأين الناس ؟ قال: عند عبد الله بن
جعفر. فركب معاوية بغلته ثم توجه إليهم. فلما جلس قال بعض القرشيين لسائب خاثر:
مطرفي هذا لك إن أندفعت تغنى وكان المطرف من خز؛ فقام بين السماطين وغنى فقال:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

فسمع منه معاوية طرب وأصغى إليه حتى سكت وهو مستحسن لذلك، ثم أنصرف،
وأخذ سائب خاثر المطرف.
وكان مقتل سائب خاثر بالمدينة يوم الحرة. قال: وكان يخشى على نفسه من أهل الشام.

فخرج إليهم وجعل يقول: أنا مغنٍ، ومن حالي ومن قصتي كيت وكيت، وقد خدمت أمير
المؤمنين يزيد وأباه قبله. فقالوا له: إن لنا، ففعل. فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم
ضربه بالسيف فقتله. وبلغ يزيد خبره ومر به أسمه في أسماء من قتل فلم يعرفه وقال: من
سائب خاثر ؟ فعرف به، فقال: ويله ما له وما لنا ! ألم نحسن إليه ونصله ونخلطه بأنفسنا
! فما الذي حمله على عداوتنا ! لا جرم أن بغيه علينا صرعه.
وقيل: إنه لما بلغه قتله
قال: إنا لله ! أو بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته ! ما أرى أنه بقي بالمدينة أحد، وقال.
فبحكم الله يأهل الشام ! تجدهم وجدوه في حائط أو حديقة مستترا فقتلوه. وقد قيل: إنه
تقدم يوم الحرة وقاتل حتى قتل. والله أعلم.
أخبار طويس
هو عيسى بن عبد الله. وكنيته أبو عبد المنعم، وغيرها المخنثون فقالوا: أبو عبد
النعيم. وطويس لقبٌ غلب عليه، وقيل: أسمه طاوس، مولى بني مخزوم. وكان أيضا يلقب
بالذائب؛ لأنه غنى:

قد براني الحبّ حتى كدت من وجدت أذوب

وهذا أول غناء غناه وهزجٍ هزجه. وقد ضرب المثل به في الشؤم فقالوا: أشأم من طويس
لأنه ولد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم مات أبو بكر رضي الله عنه،
وختن يوم مات عمر رضي الله عنه، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات علي بن أبي
طالب رضي الله عنه. وكان مخنثا أحول طويلا؛ وقيل: إنه ولد ذاهب العين اليمني. قالوا:
وكانت أمه تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم. وطويس أول من صنع الهزم والرمل في الإسلام،
وكان الناس يضربون به المثل فيقولون: أهزج من طويس. وكان لا يضرب بالعود وإنما ينقر
بالدف. وكان ظريفا عالما بأمر المدينة وأنساب أهلها.
حكى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى المدائني قال: قدم أبن سريح المدينة، فجلس يوما في
جماعة وهم يقولون له: أنت والله أحسن الناس غناء، إذ مر بهم طويس فسمعهم وما
يقولون، فأستل دفه من حضنه ونقره وغنى؛ فلما سمعه أبن سريج قال: هذا والله أحسن

الناس غناءً لا أنا. وقال المدائني، قال مسلمة أبن محارب:
حدثني رجل من أصحابنا قال:
خرجنا في سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى واد،
فدعونا بالغداء، فمد الرجل يده
إلى الطعام فلم يقدر عيه، وكان قبل ذلك يأكل معنا؛ فخرجنا
نسأل عن حاله فنلقي رجلا
طويلا أحول مضطرب الخلق في زي الأعراب؛ فقال لنا: مالكم ؟
فأنكرنا سؤاله لنا؛
فأخبرناه خبر الرجل فقال: ما أسم صاحبكم ؟ فقلنا: أسيد؛
فقال: هذا واد قد أخذت
سباعه فارتحلوا، فلو قد جاوزتم الوادي أستمر صاحبكم وأسد
وأكل. قلنا في أنفسنا:
هو من الجن، ودخلتنا فزعة. ففهم ذلك وقال: ليفرخ روعكم
فأنا طويس. فقال له رجل
منا: مرحباً بك أبا عبد النعيم، ما هذا الزي ؟! فقال: دعاني بعض
أودائي من الأعراب
فخرجت إليهم وأحببت أن أتخطى الأحياء فلا ينكروني. فسأله
رجل منا أن يغنينا؛
فأندفع ونقر بدفٍ كان معه مربع، فلقد خيل لي أن الوادي ينطق
معه حسناً. وتعجبنا من
علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا.
قال المدائني: وكان طويس ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس
والخزرج في حروبهم، وكان يريد
بذلك الإغراء؛ فقل مجلسٌ أجتمع فيه هذان الحيان فغنى فيه
طويس إلا وقع فيه شيء.
فنهى عن ذلك، فقال: والله لا تركت الغناء بشعر الأنصار حتى
يوسدوني التراب؛ وذلك
لكثرة تولع القوم به، وكان يبدي السرائر ويخرج الضغائن؛
وغناؤه يستحسن ولا يصبر عن
حديثه.
وحكى الأصبهاني عفا الله عنه قال: كان بالمدينة مخنث يقال له
النغاشي. فقيل لمروان بن
الحكم: إنه لا يقرأ من كتاب الله تعالى شيئا. فبعث إليه
فاستقرأه أم الكتاب؛ فقال: والله ما
معي بناتها، أو ما أقرأ البنات فكيف أقرأ أمهن ! فقال: أتهزأ لا
أم لك ! فأمر به فقتل
ببطحان، وقال: من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير. فأتي
طويس وهو في بني الحارث بن
الخزرج فأخبر بمقالة مروان؛ فقال: أما فضلني الأمير عليهم
بفضل حتى جعل في وفيهم شيئا
واحداً !. ثم خرج حتى نزل السويداء على ليلتين من المدينة في
طريق الشام فنزلها، فلم

يزل بها بقية عمره. وعمر حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك. ثم ساق الأصفهاني
هذه القصة في موضع آخر بسند آخر قال: خرج يحيى بن الحكم وهو أمير على المدينة،
فبصر بشخص في السبخة مما يلي مسجد الأحزاب؛ فلما نظر إلى يحيى جلس؛ فاستراب
به، فوجه إليه أعوانه، فأتي به كأنه أمرأة في ثياب مصبغة مصقولة وهو ممتشط مختضب.
فقال له أعوانه: هذا أبن نغاشٍ المخنث. فقال: ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئا
! اقرأ أم القرآن؛ فقال: لو عرفت أمهن عرفت البنات. فأمر به فضربت عنقه. وساق نحو
ما تقدم، إلا أنه قال: جعل في كل مخنث ثلثمائة درهم.
وحكى أيضا بسند رفعه إلى صالح بن كيسان وغيره: أن أبان بن عثمان لما أمره عبد
الملك على الحجاز أقبل، حتى إذا دنا من المدينة تلقاه أهلها وخرج إليه أشرافها، فخرج
معهم طويس. فلما رآه سلم عليه، ثم قال له: أيها الأمير، إني كنت قد أعطيت الله تعالى
عهداً إن رأيتك أميراً لأخضبن يدي إلى المرفقين ثم أزدو بالدف بين يديك. ثم أبدي عن دفه
وتغني بشعر ذي جدنٍ الحميري:
ما بال أهلك يا رباب خزراً كأنهم غضاب
فطرب أبان حتى كاد يطير، ثم جعل يقول: حسبك يا طاوس ! ولم يقل له طويس لنبله في
عينه ثم قال له: أجلس، فجلس. فقال له أبان: قد زعموا أنك كافر. فقال له: جعلت
فداءك ! والله إني لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصلي الخمس وأصوم رمضان وأحج البيت. قال: أفأنت أكبر أم عمرو بن عثمان ؟
وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمه فقال طويس: جعلت فداءك ! أنا والله مع جلائل نساء
قومي أمسك بذيولهن يوم زفت أمك المباركة إلى أبيك الطيب. فاستحيا أبان ورمى بطرفه
إلى الأرض.
أخبار عبد الله بن سريج
هو أبو يحيى عبد الله بن سريج، مولى بني نوفل بن عبد مناف. وقال أبن الكلبي: إنه مولى
لبني الحارث بن عبد المطلب. وقيل: إنه مولى لبني ليث، ومنزله بمكة. وقال الحسن بن

عتبة اللهبي: إنه مولى لبني عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج
الأصبهاني أنه كان آدم أحمر ظاهر الدم سناطا، في عينيه قبلٌ، وبلغ خمسا وثمانين سنة،
وكان منقطعا إلى عبد الله بن جعفر.
ونقل أيضا عن أبن الكلبي أنه كان مخنثا أحول أعمش، يلقب وجه البا. وكان لا يغني إلا
متنقبا، مسبل القناع على وجهه. قال: وكان أحسن الناس غناء، وكان يغني مرتجلا ويوقع
بقضيب، وقيل: كان يضرب بالعود. وغنى في زمن عثمان بن عفان، ومات في خلافة هشام
بن عبد الملك. وقيل: كان أسمه عبيد بن سريج من أهل مكة. وقال أبن جريج: كان
عبيد بن سريج مولى آل خالد بن أسيد، وقيل: كان أبوه تركيا. وقيل: كان عوده على
صنعة عيدان الفرس، وهو أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة؛ وذلك أنه رآه مع
العجم الذين قدم بهم أبن الزبير لبناء الكعبة، فأعجب أهل مكة غناؤهم. فقال أبن سريج:
أنا أضرب به على غنائي، فضرب به فكان أحذق الناس. وأخذ الغناء عن سعيد بن
مسجح، وقد تقدم ذكر ذلك. وأول ما أشتهر بالغناء في ختان أبن مولاه عبد الله بن عبد
الرحمن بن أبي حسين. قال أبن سريج لأم الغلام: خفضي عليك بعض المغرم والكلفة، فوالله
لألهين نساءك حتى لا يدرين ما جئت به. وكان معبد إذا أعجبه غناء نفسه قال: أنا اليوم
سريجي.
ومن أخباره أيضا أن عطاء بن أبي رباح لقيه بذي طوىً وعليه ثياب مصبغة وفي يده
جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجنبها كلما تخلفت؛ فقال له عطاء: يا فتان، ألا
تكف عما أنت فيه ! كفى الله الناس مئونتك. فقال له أبن سريج: وما على الناس من
تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي ! فقال: تغنيهم أغانيك الخبيثة. فقال له أبن سريج: بحق من
تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحق رسول الله صلى الله عليه
وسلم عليك إلا سمعت مني بيتا من الشعر، فإن سمعت منكراً أمرتني بالإمساك عما أنا
عليه، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البنية إن أمرتني بعد أستماعك مني بالإمساك عما أنا

عليه لأفعلن. فأطمع ذلك عطاءً في أبن سريج وقال له: قل. فأندفع يغني بشعر جرير:

إنّ الذين غدوا بلبّك غادروا وشلاً بعينك لا يزال معينا
غيّضن من عبراتهنّ وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

قال: فلما سمعه عطاء أضطرب أضطرابا شديدا وداخلته أريحيةٌ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه يسأل عن حلال أو حرام أو خبر لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب، ولم يعاود أبن سريج بعدها ولا تعرض له.

وحكى عنه أيضا أن عمر بن أبي ربيعة حج في عام من الأعوام ومعه أبن سريج، فلما رموا الجمرات تقدما الحاج إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرفٍ على طريق المدينة وطريق الشام والعراق، وهو كثيب شامخ مفرد عن الكثبان، فصارا إليه فأكلا وشربا.

فلما أنتشيا أخذ أبن سريج الدف فنقره وجعل يتغنى وهم ينظرون إلى الحاج. فلما أمسيا رفع أبن سريج صوته وتغنى بشعر لعمر بن أبي ربيعة، فسمعه الركبان، فجعلوا يصيحون به: يا صاحب الصوت، أما تتقي الله ! قد حبست الناس عن مناكسهم، فيسكت قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته فيقف آخرون؛ إلى أن وقف عليه في الليل رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكثيب، ثم نادى: يا صاحب الصوت، أيسهل عليك أن تردد شيئا مما سمعته منك ؟ قال: نعم ونعمة عينٍ، فأيها تريد ؟ فأقترح صوتا فغناه. ثم قال له أبن سريج: ازدد إن شئت؛ فأقترح صوتاً آخر فغناه، فقال له: والثالث ولا أستزيدك، فغناه الثالث. وقال له أبن سريج: أبقيت لك حاجة ؟ قال نعم، تنزل لأخاطبك؛ فنزل إليه فإذا هو يزيد ابن عبد الملك، فأعطاه حلته وخاتمه وقال: خذهما ولا تخدع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار؛ فعاد أبن سريج بهما فأعطاهما لعمر بن أبي ربيعة وقال:

هما بك أشبه منهما بي، فأخذهما وعوضه عنهما ثلثمائة دينار؛ وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناس وجعلوا يتعجبون ويسألون عمر عنهما، فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك

كساه ذلك. وقيل: إن عمر بن عبد العزيز مر به فسمع أبن سريج وهو يغني، فقال: لله در
هذا الصوت لو كان بالقرآن !.
قال إبراهيم بن المهدي: كان أبن سريج رجلا عاقلا أديبا، وكان يعاشر الناس بما يشتهون
فلا يغنيهم بما مدح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غضاضة منهم.
ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصبهاني بإسناده، قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى
عامل مكة أن أشخص إلي أبن سريج فأشخصه إليه. فلما قدم مكث أياما لا يدعوه ولا
يلتفت إليه، ثم ذكره فأستحضره، فدخل عليه وسلم فأذن له بالجلوس وأستدناه حتى كان
قريبا منه؛ فقال: ويحك يا عبيد ! لقد بلغني عنك ما حملني على الوفادة بك من كثرة أدبك
وجودة أختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك. قال: جعلت فداءك يا أمير المؤمنين !
تسمع بالمعيدي لا أن تراه، قال الوليد: إني لأرجو ألا تكون أنت ذاك، ثم قال: هات ما
عندك؛ فأندفع يغني بشعر الأحوص:

وإنّي إذا حلّت ببيشٍ مقيمة وحلّ بوجٍّ جالساً أو تتهّما
بمانيةٌ شطّت وأصبح نفعها رجاءً وظنّاً بالمغيب مرحّما
أحبّ دنوّ الدّار منها وقد أبى بها صدع شعب الدار إلاّ تثلّما
بكاها وما يدري سوى الظنّ ما بكى أحيّاً يبكّي أم تراباً وأعظما
فدعها وأخلف للخليفة مدحةً تزل عنك بؤسي أو تفيدك مغنما
فإن يكفّيه مفاتيح رحمةٍ وغيث حياً يحيا به الناس مرهما
إمامٌ أتاه الملك عفواً ولم يثب على ملكه مالا حراماً ولا دما
تخيّره ربّ العباد لخلقه وليّاً وكان الله بالناس أعلما
ينال الغنى والعزّ من نال ودّه ويرهب موتاً عاجلا من تشأما

فقال الوليد: أحسنت والله وأحسن الأحوص. ثم قال: يا عبيد هيه ! فغناه بشعر عدي
بن الرقاع العاملي يمدح الوليد:

طار الكرى وألمّ الهمّ فأكتنعا وحيل بيني وبين النوم فأمتنعا
كان الشباب قناعاً أستكنّ به وأستظّل زماناً ثمّت أنقشعا
وأستبدل الرأس شيباً بعد داجيةٍ فينانةٍ ما ترى في صدغها نزعا
فإن تكن ميعةٌ من باطل ذهبت وأعقب الله بعد الصّبوة الورعا
فقد أبيت أراعي الخود رابيةً على الوسائد مسروراً بها ولعا

بزّاقة الثغر يشفي القلب لذّتها إذا مقبلّها في ريقها كرعا
كالأقحوان بضاحي الروض صبّحه غيثٌ أرشّ بتنضاحٍ وما نقعا
صلى الذي الصلوات الطيّبات له والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجمعا
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمّته على يديه وكانوا قبله شيعا
عدنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له ملك أعان عليك الله فارتفعا
لا يمنع الله ما أعطى الذي هم له عباد ولا يعطون ما منعا

فقال الوليد: صدقت يا عبيد، أنى لك هذا ؟ قال: هو من عند الله. قال الوليد: لو غير هذا قلت لأحسنت أدبك. قال أبن سريج: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قال الوليد: يزيد في الخلق ما يشاء. قال أبن سريج: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر. قال الوليد: لعلمك والله أكثر وأعجب إلي من غنائك ! غنني؛ فغناه بشعر عدي بن الرقاع يمدح الوليد فقال:

عرف الدّيار توهما فأعتادها من بعد ما شمل البلي أبلادها
إلا رواسي كلهنّ قد أصطلى جمراً وأشعل أهلها إيقادها
كانت رواحل للقدور فعرّيت منهنّ وأستلب الزمان رمادها
وتنكرت كلّ التنكّر بعدنا والأرض تعرف بعلها وجمادها
ولربّ واضحة العوارض حرّة كالرّيم قد ضربت به أوتادها
تصطاد بهجتها المعلّل بالصبا عرضاً فتقصده ولن يصطادها
كالظّبية البكر الفريدة ترتعي من أرضها قفّاتها وعهادها
خضبت لها عقد البراق جبينها من عركها علجانها وعرادها
كالزّين في وجه العروس تبدّلت بعد الحياء فلاعبت أرآدها
تزجى أغنّ كأن إبرة روقه قلمٌ أصاب من الدّواة مدادها
ركبت به من عالج متحيّرا قفراً تريّث وحشه أولادها
فترى محانيه التي تسق الثرى والهبر يونق نبتها روّادها
بانت سعاد وأخلفت ميعادها وتباعدت عنا لتمنع زادها
إني إذا ما لم تصلني خلّتي وتباعدت عنّي أغتفرت بعادها
إمّا ترى شيبي تقشّع لمّتي حتى علا وضحُ يلوح سوادها
فلقد ثنيت يد الفتاة وسادةً لي جاعلا يسرى يديّ وسادها
وأصاحب الجيش العرمرم فارساً في الخيل أشهد كرّها وطرادها
وقصيدةٍ قد بتّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقّف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها
فسترت عيب معيشتي بتكرّمٍ وأتيت في سعة النعيم سدادها

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن عليم واحدةٍ لكي أزدادها
صلّى الإله على أمرئ ودّعته وأتمّ نعمته عليه وزادها
وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خناصرة الأحصّ فجادها
نزل الوليد بها فكان لأهلها غيثاً أغاث أنيسها وبلادها
أولا ترى أن البريّة كلّها ألقت خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاّكها من أمّةٍ إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدة مصيبةً عمّت أقاصي غورها ونجادها
ظفراً ونصراً ما تناول مثله أحدٌ من الخلفاء كان أرادها
فإذا نشرت له الثناء وجدته جمع المكارم طرفها وتلادها
غلب المساميح الوليد سماحةً وكفى قريش المعضلات وسادها
تأتيه أسلاب الاعزّة عنوةً قسراً ويجمع للحروب عتادها
وإذا رأى نار العدوّ تضرّمت سامي جماعة أهلها فأقتادها
بعرمرم تبدو الرّوابي ذي وعىً كالحرّة أحتمل الضحى أطوادها
أطفأت ناراً للحروب وأوقدت نارٌ قدحت براحتيك زنادها
فبدت بصيرتها لمن يبغي الهدى وأصاب حرّ شديدها حسّادها
وإذا غدا يوماً بنفحة نائل عرضت له الغد مثلها فأعادها
وإذا عدت خيلٌ تبادر غايةً فالسابق الجالي يقود جيادها
فأشار الوليد إلى بعض الخدم فغطوه بالخلع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير وبدر الدراهم،
ثم قال الوليد: يا مولى بني نوفل بن الحارث لقد أوتيت أمراً جليلا فقال أبن سريج: وأنت يا
أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكا عظيما وشرفاً عاليا وعزا بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك
ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما ولاك وحفظك فيما أسترعاك، فإنك أهل لما
أعطاك، ولا ينزعه منك إذ رآك له موضعا. قال: يا نوفلي، وخطيبٌ أيضا ! قال أبن
سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلمت، وبعزك بينت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن
محمد الأنصاري وعدي بن الرقاع العاملي، فلما قدما عليه أمر بإنزالهما حيث أبن سريج
فأنزلا منزلا بجوار منزله. فقالا: والله لقرب أمير المؤمنين كان أحب إلينا من قربك يا مولى
بني نوفل، وإن في قربك لما يلذنا ويشغلنا عن كثير مما نريد. فقال لهما أبن سريج: أو قلة
شكر ! فقال له عدي: كأنك يا بن اللخناء تمن علينا، علي وعلي إن جمعنا وإياك سقف

بيت أو صحن دار عند أمير المؤمنين، فقال الأحوص: أولا تحتمل لأبي يحيى الزلة والهفوة،
وكفارة يمينٍ خيرٌ من لجاج في غير منفعة. فتحول عدي وبقي الأحوص. وبلغ الوليد ما
جرى بينهم، فدعا أبن سريج فأدخله بيتاً وأرخى دونه ستراً ثم أمره إذا فرغ الأحوص
وعديٌ من كلمتيهما أن يغني، فلما دخلا وأنشداه مدائح لهما فيه، رفع أبن سريج صوته من
حيث لا يرونه وضرب بعود. فقال عدي: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أتكلم ؟ قال: قل يا
عاملي، قال: مثل هذا عند أمير المؤمنين ويبعث إلى أبن سريج يتخطى رقاب قريشٍ والعرب
من تهامة إلى الشامٍ ترفعه أرضٌ وتخفضه أخرى ليسمع غناءهّ قال: ويحك يا عدي ! أولا
تعرف هذا الصوت ؟ قال: لا والله ما سمعته قط ولا سمعت مثله، ولولا أنه في مجلس أمير
المؤمنين لقلت طائفةٌ من الجن يتغنون، فقال: أخرج عليهم، فخرج فإذا أبن سريج. فقال
عدي: حق لهذا أن يحمل ! حق لهذا أن يحمل ! ثلاثا، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لأبن
سريج وأرتحل القوم.
وروى أبو الفرج أيضا عن سهل بن بركة وكان يحمل عود أبن سريج قال:
كان على مكة نافع بن علقمة الكناني فشدد في الغناء والمغنين والنبيذ ونادى في المخنثين.
فخرج فتيةٌ من قريش إلى بطن محسر وبعثوا برسول لهم، فجاءهم براويةٍ من شراب الطائف،
فلما شربوا وطربوا قالوا: لو كان معنا أبن سريج تم سرورنا، فقلت: هو علي لكم، فقال لي
بعضهم: دونك هذه البغلة فاركبها وأمض إليه، فأتيته فأخبرته بمكان القوم وطلبهم إياه؛
فقال لي: ويحك ! وكيف لي بذلك مع شدة السلطان في الغناء وندائه فيه. فقلت له:
أتردهم ؟ قال: لا والله ! فكيف لي بالعود؛ فقلت: أنا أخبؤه لك فشأنك. فركب وسترت
العود فأردفني. فلما كنا ببعض الطريق إذا بنافع بن علقمة قد أقبل؛ فقال لي: يا أبن بركة،
هذا الأمير. فقلت له: لا بأس عليك ! أرسل عنان البغلة وأمض ولا تخف، ففعل. فلما
حاذيناه عرفني ولم يعرف أبن سريج، فقال لي. يا أبن بركة، من هذا أمامك ؟ قلت: من
ينبغي أن يكون ! هذا أبن سريج؛ فتبسم ثم تمثل:

فإن تنج منها يا أبان مسلّماً فقد أفلت الحّجاج خيل شبيب
ثم مضى ومضينا. فلما كنا قريبا من القوم نزل إلى شجرة يستريح. فقلت له: غنني
مرتجلاً؛ فرفع صوته فخيل إلي أن الشجرة تنطق معه، فغنى وقال:
كيف الثّواء ببطن مكة بعدما همّ الذين تحبّ بالإنجاد
أم كيف قلبك إذ ثويت مخمّراً سقماً خلافهم وكربك بادي
هل أنت إن ظعن الأحبّة غادى أم قبل ذلك مدلجٌ بسواد
قال: فقلت: أحسنت والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ! ولو أن كنانة كلها سمعتك
لأستحسنتك، فكيف بنافع بن علقمة ! المغرور من غره نافع.
ثم قلت: زدني وإن كان
القوم متعلقة قلوبهم بك؛ فغنى وتناول عودا من الشجرة فوقع به على الشجرة؛ فكان صوت
الشجرة أحسن من خفق بطون الضأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدملى، وغنى:
لا تجمعي هجراً عليّ وغربةً فالهجر في تلف المحبّ سريع
من ذا فديتك يستطيع لحبه دفعاً إذا أشتملت عليه ضلوع
فقلت: بنفسي أنت والله، من لا يكلّ ولا يملّ ! والله ما جهل من فهمك، اركب بنا فدتك
نفسي. قال: أمهلني كما أمهلتك أقض بعض شأني. فقلت: وهل عما تريد مدفعٌ !. فقام
فصلى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده
ورسوله. ثم مضينا والقوم مستشرفون. فلما دنونا منهم إذا الغريض يغنيهم:
من خيل حيٍّ لا تزال مغيرةً سمعت على شرف صحيل حصان
فبكى أبن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت. فقلت: ما يبكيك يا أبا يحيى ؟
جعلت فداك لا يسوءك الله ولا يريك سوءاً ! قال: أبكاني هذا المهنث بحسن غنائه
وشجا صوته، والله ما ينبغي لأحد أن يغني وهذا الصبي حيٌ؛ ثم نزل وأستراح وركب.
فلما سرنا هنيهةً أندفع الغريض يغني لهم بلحنه:
يا خليليّ قد مللت ثوائي بالمصلّى وقد سئمت البقيعا
بلّغاني ديار هندٍ وسعدى وأرجعاني فقد هويت الرجوعا
قال: ولصوته دويٌ في تلك الجبال. فقال أبن سريج: يا أبن بركة، أسمعت مثل هذا الغناء
قط؟! قال: ونظروا إلينا فأقبلوا نشاوى يسحبون أعطافهم وجعلوا يقبلون وجه أبن
سريج. فنزل فأقام عندهم ثلاثاً، والغريض لا ينطق بحرف، وأخذوا في شرابهم وقالوا: يا

حبيب النفس وشقيقها، أعطها بعض شأنها. فضرب بيده إلى جيبه فأخرج منه مضراباً
ثم أخذه بيده ووضع العود في حجره فما رأيت يداً أحسن من يده ولا خشبةً تخيلت لي
أنها جوهرةٌ إلا هي ثم ضرب فلقد ضج القوم جميعا؛ ثم غنى فكلٌ قال: لبيك لبيك !
فكان مما غنى به واللحن له هزجٌ:

لبّيك يا سيّدتي لبّيك ألفاً عددا
لبّيك من ظالمةٍ أحببتها مجتهدا
قومي إلى ملعبنا نحك الجواري الخرّدا
وضع يدٍ فوق يدٍ نرفعها يداً يدا

فكلٌ قال: نفعل ذاك؛ فلقد رأيتنا نستبق أينا تقع يده على يده. ثم غنى:

ما هاج شوقك بالصّرائم ربعٌ أحال لآل عاصم
ربعٌ تقادم عهده هاج المحبّ على التقادم
فيه النواعم والشبا ب النّاعمون مع النواعم
من كل واضحة الجبي ن عميمةٍ ريّا المعاصم

ثم غنى بقوله:

شجاني مغاني الحيّ وأنشقّت العصا وصاح غربا البين أنت مريض
ففاضت دموعي عند ذاك صبابةً وفيهنّ خودٌ كالمهاة غضيض
وولّيت محزون الفؤاد مروّعاً كئيباً ودمعي في الرداء يفيض

قال: فلقد رأيت جماعةً من الطير وقعن بقربنا وما نحس من قبل ذلك منها شيئا. فقالت
الجماعة: يا تمام السرور وكمال المجالس، لقد سعد من أخذ بحظه منك وخاب من حرمك،
يا حياة القلوب ونسيم النفوس جعلنا الله فداءك، غننا. فغنى:

يا هند إنك لو علم ت بعاذلين تتابعا

قال: فبدرت من بينهم فقبلت عينيه، فتهافت القوم عليه يقبلونه، ولقد رأيتني وأنا أرفعهم
عنه شفقةً عليه.
وكانت وفاة أبن سريج بالعلة التي أصابته من الجذام بمكة في خلافة سليمان ابن عبد الملك
أو في خلافة الوليد، ودفن في موضع يقال له دسم. رحمة الله عليه وعفا عنه وغفر له.
والحمد لله رب العالمين.
حكى أنه لما أحتضر نظر إلى أبنته تبكي فبكى وقال: إنه من أكبر همي أنت وأخشى أن
تضيعي بعدي. فقالت: لا تخف فما غنيت شيئا إلا وأنا أغنيه.
فقال: هاتي، فأندفعت
فغنت وهو مصغ إليها. فقال: قد أصبت ما في نفسي وهونت علي أمرك. ثم دعا سعيد

بن مسعود الهذلي فزوجه إياها؛ فأخذ أكثر غناء أبيها وأنتحله.
أخبار معبد
هو معبد بن وهب، وقيل: أبن قطني مولى أبن قطن؛ وقيل: إن قطنا مولى العاص بن
واقصة المخزومي، وقيل: مولى معاوية بن أبي سفيان. غنى معبد في أيام بني أمية في
أوائلها، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق.
قال أبو الفرج الأصفهاني:
إنه لما مات خرجت سلامة جارية الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير
والناس ينظرون إليها وهي تندبه وتقول شعر الأحوص:
قد لعمري بتّ ليلي كأخي الداء الوجيع
ونجيّ الهمّ منّي بات أدنى من نجيعي
كلما أبصرت ربعاً خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيّدٍ كا ن لنا غير مضيع
لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع
وكان معبد قد علمها هذا الصوت فندبته به. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: كان
معبد من أحسن الناس غناءً، وأجودهم صنعة، وأحسنهم حلقاً؛ وهو إمام أهل المدينة في
الغناء، وأخذ عن سائب خاثرٍ ونشيط الفارسي مولى عبد الله بن جعفر، وعن جميلة
مولاة بهز بطن من بني سليم. وفي معبدٍ يقول الشاعر:
أجاد طويسٌ والسّريجيّ بعده وما قصبات السّبق إلا لمعبد
وحكى أبو الفرج أيضا:
أن الوليد بن يزيد أشتاق إلى معبد، فوجه إليه البريد إلى المدينة فأحضره. فلما بلغ الوليد
قدومه أمر ببركة ملئت ماء ورد وخلط بمسك وزعفران، ثم جلس الوليد على حافة البركة
وفرش لمعبدٍ مقابله وضرب بينهما سترٌ ليس معهما ثالث. وجيء بمعبد فقيل له: سلم
على أمير المؤمنين وأجلس في هذا الموضع؛ فسلم فرد عليه من خلف السجف، ثم قال له:
أتدري لم وجهت إليك ؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتك فأحببت أن أسمع
منك. فقال له معبد: أأغني ما حضر أو ما يقترحه أمير المؤمنين ؟ قال: بل غن:
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء
فغناه. فرفع الجواري السجف، ثم خرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج

منها، فأستقبله الجواري بثياب غير الثياب التي كانت عليه، ثم شرب وسقى معبداً ثم قال
له: غنني يا معبد:
يا ربع مالك لا تجيب متيّماً قد عاج نحوك زائراً ومسلّما
جادتك كلّ سحابةٍ هطّالةٍ حتى ترى عن زهرةٍ متبسّما
لو كنت تدري من دعاك أجبته وبكيت من حرقٍ عليه إذاً دما
قال: فغناه. وأقبل الجواري فرفعن الستر، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها
ثم خرج، فلبس ثياباً غير تلك الثياب، ثم شرب وسقى معبداً وقال له: غنني يا معبد:
عجبت لمّا رأتني أندب الربع المحيلا
واقفاً في الدار أبكي لا أرى إلاّ الطلولا
كيف تبكي لأناسٍ لا ميلّون الذّميلا
كلما قلت أطمأنت دارهم جدّوا الرحيلا
قال: فلما غناه ألقى نفسه في البركة ثم خرج فردوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبدا
وقال له: يا معبد، من أراد أن يزداد حظوةً عند الملوك فليكتم أسرارهم. فقال: ذلك مما لا
يحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائي به. فقال الوليد: يا غلام أحمل إلى معبد عشرة آلاف دينار
تحصل له في بلده وألفي دينار لنفقة طريقه؛ فحملت إليه كلها، وحمل على البريد من وقته إلى
المدينة. وقد قيل: إنه أعطاه في ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار.
وقال أبو الفرج بسند رفعه:
إن معبدا كان قد علم جاريةً من جواري الحجاز الغناء تدعى طيبة وعنى بتخريجها؛
فأشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فأشتراها رجل من
أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهبٍ وغلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت
عنده برهةً من الزمان؛ فأخذ جواريه أكثر غنائها عنها. فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا
يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره، ويظهر التعصب له والميل إليه والتقديم لغنائه على
سائر الأغاني من أهل عصره، إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره. فخرج من مكة
حتى أتى البصرة؛ فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها في ذلك الوقت واليوم إلى
الأهواز. فجاء معبدٌ في طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل،

فركب فيها وكلاهما لا يعرف الآخر؛ وأنحدرت السفينة. فلما صاروا بفم نهر الأبلة، أمر
الرجل جواريه بالغناء فغنين، إلى أن غنت إحداهن صوتا من غناء معبد فلم تجد أداءه؛
فصاح بها معبد: يا جارية، إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال مولاها وقد غضب: وأنت
ما يدريك الغناء ما هو ! ألا تمسك وتلزم شأنك ! فأمسك. ثم غنت أصواتا من غناء
غيره وهو ساكتٌ لا يتكلم حتى غنت من غنائه فأخلت ببعضه؛ فقال لها معبد: يا جارية،
قد أخللت بهذا الصوت إخلالا كثيرا. فغضب الرجل وقال له: ويلك ! ما أنت والغناء !
ألا تكف عن هذا الفضول ! فأمسك معبدٌ. وغنى الجواري ملياً؛ ثم غنت إحداهن
صوتاً من غنائه فلم تصنع فيه شيئاً. فقال لها معبد: يا هذه، أما تقومين على أداء صوتٍ
واحد ! فغضب الرجل وقال له: ما أراك تدع هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ ! فأقسم بالله
إن عاودت لأخرجنك من السفينة. فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجواري سكتةً، فاندفع
يغني الصوت الأول حتى فرغ منه. فصاح الجواري: أحسنت والله يا رجل، فأعده. قال: لا
والله ولا كرامة. ثم أندفع يغني الثاني؛ فقلن لسيدهن: ويحك ! هذا والله أحسن الناس
غناءً، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه منه، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله
أبدا. قال: قد سمعتن سوء رده عليكن وأنا خائف مثله منه، وقد أستقبلناه بالإساءة،
فأصبر، حتى نداريه. قال: ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض. فوثب الرجل فقبل رأسه،
وقال: يا سيدي أخطانا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له: وهبك لم تعرف موضعي، قد
كان ينبغي لك أن تتثبت ولا تسرع إلى سوء العشرة وجفاء القول. فلم يزل يرفق به حتى
نزل إليه، وكان معبدٌ قد أجلس في مؤخر السفينة. فقال له الرجل: ممن أخذت هذا الغناء
؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك ؟ قال: أخذنه من جارية كانت لي،
كانت قد أخذت الغناء عن أبي عباد معبد وكانت تحل مني مكان الروح من الجسد، ثم
أستأثر الله بها وبقي هؤلاء الجواري وهن من تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصب لمعبد وأفضله

على المغنين جميعا، وأفضل صنعته على كل صنعة. فقال له معبد: وإنك لأنت هو !
أفتعرفني ؟ قال لا. قال: فصك معبد بيده صلعته ثم قال: فأنا والله معبدٌ وإليك قدمت
من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصرت في
جواريك هؤلاء ولأجعلن لك في كل واحدة خلفاً من الماضية. فأكب الرجل والجواري على
يده ورجليه يقبلونها ويقولون: كتمتنا نفسك حتى جفوناك في المخاطبة وأسأنا عشرتك
وأنت سيدنا ومن نتمنى أن نلقاه. ثم غير الرجل أثواب معبد وخلع عليه عدة خلع وأعطاه
في ذلك الوقت ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا مثلها، وأنحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى
رضي حذق جواريه، ثم ودعه وأنصرف إلى الحجاز.

أخبار الغريض

وما يتصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبد الملك، وكنيته أبو زيد، وقيل: أبو مروان، والغريض لقبٌ لقب به؛ لأنه كان طري
الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر، فلقب بذلك. والغريض: الطري من كل شيء.
وقال ابن الكلبي: شبه بالإغريض وهو الجمار ثم ثقل ذلك على الألسنة فحذفت الألف
فقيل: الغريض. وهو من مولدي البربر. وولاؤه للثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة وأخواتها
الرضيا وقريبة وأم عثمان بنات علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر. قالوا: وكان
يضرب بالعود وينقر بالدف ويوقع بالقضيب. وكان قبل الغناء خياطا. وأخذ الغناء في أول
أمره عن عبيد بن سريج، لأنه كان قد خدمه؛ فلما رأى ابن سريج طبعه وظرفه وحلاوة
منطقه، خشى أن يأخذ غناءه فيغلبه عليه ويفوقه بحسن وجهه، وحسده، فأعتل عليه
وشكاه إلى مولياته، وكن دفعنه إليه ليعلمه الغناء، وجعل يتجنى عليه ثم طرده. فعرف
مولياته غرض ابن سريج فيه وأنه حسده؛ فقلن له: هل لك أن تسمع نوحنا على قتلانا
فتأخذه وتغني عليه ؟ قال نعم. فأسمعنه المراثي فأحتذاها وخرج غناءه عليها. وكان
ينوح مع ذلك فيدخل المأتم وتضرب دونه الحجب ثم ينوح فيفتن كل من سمعه. فلما كثر

غناؤه عدل الناس إليه لما كان فيه من الشجا؛ فكان أبن سريج لا يغني صوتا إلا عارضه
فيه فيغني فيه لحنا آخر. فلما رأى أبن سريج موقع الغريض اشتد عليه وحسده، فغنى
الأرمال والأهزاج، فأشتهاها الناس. فقال له الغريض: يا أبا يحيى قصرت الغناء وحذفته.
قال: نعم يا مخنث حين جعلت تنوح على أبيك وأمك. قال: ولم يفضل أبن سريج عليه إلا
بالسبق، وأما غير ذلك فلا.
وقال بعضهم: كان الغريض أشجى غناءً، وأبن سريج أحكم صنعةً. وحكى أبو الفرج
الأصفهاني بسند رفعه إلى أيوب بن عباية عن مولى لآل الغريض قال: حدثني بعض مولياتي
وقد ذكرن الغريض فترحمن عليه وقلن: جاءنا يوما فحدثنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه
بعد ذلك حقيقةً. قالت: وكان أبن سريج بجوارنا فدفعناه إليه ولقن الغناء، وكان من
أحسن الناس صوتاً، ففتن أهل مكة بحسن وجهه مع حسن صوته. فلما رأى ذلك أبن
سريج نحاه عنه. فكان بعض مولياته تعلمه النياحة فبرز فيها. فجاءني يوما فقال: نهتني
الجن أن أنوح وأسمعتني صوتا عجيبا، فقد أبتنيت عليه لحناً فأسمعيه مني، فأندفع فغنى
بصوتٍ عجيبٍ في شعرٍ لمرار الأسدي:

حلفت لها بالله ما بين ذي الغضا وهضب القنان من عوانٍ ومن بكر
أحبّ إلينا منك دلاّ وما نرى به عند ليلى من ثواب ولا أجر

قالت: فكذبناه وقلنا: شيءٌ فكر فيه وأخرجه على هذا الجنس. فكان في كل يوم يأتينا
فيقول: سمعت البارحة صوتاً من الجن بترجيع وتقطيع، فقد بنيت عليه صوت كذا وكذا
بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن ننكر عليه. فإنا لكذلك ليلةً وقد أجتمع جماعةٌ من
نساء أهل مكة في جمع لنا سمرنا فيه ليلتنا والغريض يغنينا بشعر عمر بن أبي ربيعة حيث
يقول:

أمن آل زينب جدّ البكور نعم فلأيّ هواها تصير

إذ سمعنا في بعض الليل عزيفاً عجيبا وأصواتا ذعرتنا وأفزعتنا. فقال لنا الغريض: إن في
هذه الأصوات صوتاً إذا نمت سمعته وأصبح أبني عليه غنائي؛ فأصغينا إليه فإذا نغمته
نغمة الغريض بعينها، فصدقناه تلك الليلة.

وكانت وفاة الغريض باليمن في خلافة سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز، وكان
قد هرب من نافع بن علقمة لما ولي مكة من مكة إلى اليمن وأستوطنها ومات بها.
وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكايات مستحسنة قد رأينا أن نثبت في هذا الموضع ما
سنقف عليه إن شاء الله تعالى.
فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهاني في كتابه المترجم بالأغاني في أخبار الحارث بن
خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة
بنت طلحة بن عبيد الله، وأنه كان يهواها ويشبب بها في شعره، ثم قال في أثناء ذلك: لما
قدمت عائشة بنت طلحة مكة أرسل إليها الحارث وهو أمير مكة يومئذ، وكان وليها من
قبل عبد الملك بن مروان، فأرسل إليها: إني أريد السلام عليك؛ فإذا خف ذلك عليك
أذنت، وكان الرسول الغريض. فأرسلت إليه: إنا حرمٌ، فإذا أحللنا أذناك. فلما أحلت
خرجت سراً على بغلتها، ولحقها الغريض بعسفان أو قريب منه ومعه كتاب الحارث إليها،
وفيه:

ما ضرّكم لو قلتم سدداً إنّ المطايا عاجلٌ غدها
ولها علينا نعمةٌ سلفت لسنا على الأيام نجحدها
لو أتممت أسباب نعمتها تمّت بذلك عندنا يدها

فلما قرأت الكتاب قالت: ما يدع الحارث باطله !. ثم قالت للغريض: هل أحدثت شيئا
؟ قال: نعم فأسمعي، ثم أندفع يغني في هذا الشعر. فقالت عائشة: والله ما قلنا إلا سدداً
ولا أردنا إلا أن نشتري لسانه؛ وأتسحسنت الشعر، وأمرت للغريض بخمسة آلاف درهم
وأثواب، وقالت: زدني. فغنى في قول الحارث أيضا حيث يقول:

زعموا بأنّ البين بعد غدٍ فالقلب ممّا أحدثوا يجف
والعين منذ أجدّ بينهم مثل الجمان دموعها تكف
نشكو وتشكو ما أشتّ بنا كلٌّ بوشك البين معترف
ومقالها ودموعها سجمٌ أقلل حنينك حين تنصرف

فقالت عائشة: يا غريض، بحقي عليك أهو أمرك أن تغنيني في هذا الشعر ؟ قال: لا
وحياتك يا سيدتي؛ فأمرت له بخمسة آلاف درهم، ثم قالت: غنني في غير شعره؛ فغناها
بشعر عمر بن أبي ربيعة وكان عمر قد سأله ذلك فقال:

أجمعت خلّتي مع الهجر بينا جلّل الله ذلك الوجه زينا

أجمعت بينها ولم نك منها لذّة العيش والشباب قضينا
فتولّت حمولها وأستقلّت لم تنل طائلاً ولم تقض دينا
ولقد قلت يوم مكّة لمّا أرسلت تقرأ السلام علينا
أنعم الله بالرسول الذي أر سل والمرسل الرسالة عينا
قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريض فأنعم الله بك عيناً وأنعم بأبن أبي ربيعة عينا،
لقد تلطفت حتى أديت إينا رسالته، وإن وفاءك له لمما يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك. وكان
عمر سأل الغريض أن يغنيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لما غضبت بنو تيم من
ذلك، فلم يحب التصريح بها وكره إغفار ذكرها. فقال له عمر بن أبي ربيعة: إن أبلغتها هذه
الأبيات في غناءٍ فلك خمسة آلاف درهم، فوفي له، وأمرت له عائشة بخمسة آلاف درهم.
ثم أنصرف الغريض من عندها، فلقي عاتكة بنت يزيد بن معاوية أمرأة عبد الملك بن
مروان وقد كانت حجت في تلك السنة؛ فقال لها جواريها: هذا الغريض. فقالت لهن: علي
به؛ فجئن به إليها. قال الغريض: فلما دخلت سلمت فردت علي وسألتني عن الخبر،
فقصصته عليها. فقالت: غنني بما غنيتها به، ففعلت؛ فلم أرها تهش لذلك؛ فغنيتها
معرضا ومذكرا بنفسي في شعر مرة بن محكان السعدي يخاطب أمرأته وقد نزل به
أضياف:
أقول والضيف مخشيٌّ ذمامته على الكريم وحقّ الضيف قد وجبا
يا ربّة البيت قومي غير صاغرةٍ ضمّي إليك رحال القوم والقربا
في ليلةٍ من جمادى ذات أنديةٍ لا يبصر الكلب في ظلمائها الطّنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلفّ على خيشومه الذّنبا
فقالت وهي مبتسمة: نعم وقد وجب حقك يا غريض، فغنني؛ فغنيتها:
يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا ووقرت في العظم
وسلبتنا ما لست مخلفه يا دهر ما أنصفت في الحكم
لو كان لي قرنٌ أناضله ما طاش عند حفيظةٍ سهمي
لو كان يعطى النّصف قلت له أحرزت قسمك فاله عن قسمي
فقالت: نعطيك النصف فلا يضيع سهمك عندنا ونجزل لك قسمك، وأمرت له بخمسة

آلاف درهم وثياب عدنيةٍ وغير ذلك من الألطاف. قال الغريض: فأتيت الحارث بن خالد
فأخبرته الخبر وقصصت عليه القصة؛ فأمر لي بمثل ما أمرتا لي جميعا؛ وأتيت ابن أبي
ربيعة فأعلمته بما جرى، فأمر لي بمثل ذلك. فما أنصرف أحدٌ من ذلك الموسم بمثل ما
أنصرفت به: نظرة من عائشة، ونظرة من عاتكة وهما أجمل نساء عالمهما وبما أمرتا لي به،
والمنزلة عند الحارث وهو أمير مكة وأبن أبي ربيعة وما أجازاني به جميعا من المال.
ولنصل هذا الفصل بشيء من أخبار عائشة بنت طلحة؛ لأن الشيء بالشيء يذكر.
هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن
تيم. وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكانت عائشة لا تستر وجهها
من أحد. فعاتبها مصعب في ذلك فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال
أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأسترهن ووالله ما في وصمةٌ يقدر
أن يذكرني بها أحد.
قال أبو الفرج الأصبهاني: وكانت شرسة الخلق، وكذلك نساء بني تيم، هن أشرس خلق
الله خلقا وأحظاهن عند أزواجهن. قال: وآلت عائشة من زوجها مصعب بن الزبير،
فقالت: أنت علي كظهر أمي، وقعدت في غرفةٍ وهيأت ما يصلحها. فجهد مصعبٌ أن
تكلمه فأبت. فعبث إليها أبن قيس الرقيات فسألها كلامه. فقالت: كيف بيميني ؟ فقال:
ها هنا الشعبي فقيه أهل العراق فأستفتيه. فدخل الشعبي عليها فأخبرته؛ فقال: ليس هذا
بشيء؛ فأمرت له بأربعة آلاف درهم.
وحكى أبو الفرج أن مصعب بن الزبير لما عزم على زواج عائشة بنت طلحة، جاء هو
وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وسعيد بن العاص إلى عزة الميلاء وكانت
عزة هذه يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم
بأمور النساء فقالوا لها: إنا خطبنا فأنظري لنا. فقالت لمصعب: يا أبن أبي عبد الله، ومن
خطبت ؟ قال: عائشة بنت طلحة. قالت: فأنت يا أبن أبي أحيحة ؟ قال: عائشة بنت

عثمان بن عفان. قالت: فأنت يا أبن الصديق ؟ قال: أم الهيثم بنت زكريا بن طلحة.
فقالت: يا جارية، هاتي منقلي تعني خفيا، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها، فبدأت
بعائشة بنت طلحة، فقالت: فديتك، كنا في مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمال النساء
وخلقهن فذكروك فلم أدر كيف أصفك، فديتك، فألقي ثيابك؛ ففعلت فأقبلت وأدبرت
فأريج كل شيء منها. فقالت لها عزة: خذي ثوبك. فقالت عائشة: قد قضيت حاجتك
وبقيت حاجتي. فقالت عزة: وما هي ؟ فديتك ! قالت: تغنيني صوتا. فأندفعت تغني
لحنها في شعرٍ لجميل بن عبد الله بن معمر العذري:

خليليّ عوجا بالمحلّة من جمل وأترابها بين الأصيفر فالحبل
نقفٌ بمغانٍ قد عفا رسمها البلي تعاقبها الأيام بالرّيح والوبل
فلو درج النّمل الصغار بجلدها لأندب أعلى جلدها مدرج النّمل
وأحسن خلق الله جيداً ومقلةً تشبّه في النسوان بالشادن الطّفل

فقبلت عائشة ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضة، فدفعته
إلى مولاتها. وأتت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهن. ثم أتت القوم في السقيفة. فقالوا:
ما صنعت؟ فقالت: يا أبن أبي عبد الله، أما عائشة فلا والله ما رأيت مثلها مقبلةً ولا
مدبرة، محطوطة المتنين، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب، نقية الثغر وصفحة الوجه، فرعاء
الشعر، ممتلئة الصدر، خميصة البطن ذات عكنٍ، ضخمة السرة، مسرولة الساق، يريح ما
بين أعلاها إلى قدميها؛ وفيها عيبان، أما أحدهما فيواريه الخمار، وأما الآخر فيواريه
الخف: عظم الأذن والقدم. وكانت عائشة بنت طلحة كذلك. ثم قالت عزة: وأما أنت يا
أبن أبي أحيحة فإني والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لأمرأةٍ قط ! ليس فيها
عيب والله لكأنما أفرغت إفراغاً ولكن في الوجه ردةٌ، وإن أستشرتني أشرت عليك. قال:
هات. قالت: عليك بوجه تستأنس به. وأما أنت يا أبن الصديق: فوالله ما رأيت مثل أم
الهيثم، كأنها خوط بانة تنثني، أو كأنها جانٌ يتثنى على رمل، لو شئت أن تعقد طرفيها

لفعلت، ولكنها شختة الصدر وأنت عريض الصدر، فإذا كان كذلك كان قبيحاً، لا والله
حتى يملأ كل شيء مثله. قال: فوصلها الرجال والنساء وتزوجوهن.
وحكى أبو الفرج أيضا: أن مصعب بن الزبير إنما تزوجها بعد عبد الله بن عبد الرحمن بن
أبي بكر. وقال: وكانت عائشة بنت طلحة تشبه بخالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله
عنها، فزوجتها عائشة من أبن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو أول من
تزوجها. ولم تلد عائشة بنت طلحة من أحد من أزواجها غيره، ولدت له عمران وبه كانت
تكنى، وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكل من هؤلاء عقبٌ. وأنا من عقب
طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر من ولده ليث ابن طلحة. وليس هذا
موضع سرد نسبي فأسرده.
قال أبو الفرج: وصارمت عائشة بنت طلحة زوجها عبد الله بن عبد الرحمن وخرجت
من داره مغضبة تريد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. فرآها أبو هريرة فسبح الله تعالى
وقال: كأنها من الحور العين. فمكثت عند عائشة قريبا من أربعة أشهر. وكان عبد الله
قد آلى منها؛ فأرسلت عائشة إليه: إني أخاف عليك الإيلاء؛ فضمها إليه وكان مولياً منها.
فقيل له: طلقها؛ فقال:

يقولون طلّقها لأصبح ثاوياً مقيماً عليّ الهمّ، أحلام نائم
وإنّ فراقي أهل بيت أحبّهم لهم زلفةٌ عندي لإحدى العظائم

وتوفي عبد الله بعد ذلك وهي عنده، فما فتحت فاها عليه؛ وكانت عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها تعد هذا عليها في ذنوبها التي تعددها. ثم تزوجها بعده مصعب بن الزبير،
فمهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك.
وكانت عائشة تمتنع على مصعب في غالب الأوقات. فحكى أنه دخل عليها يوما وهي
نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها. فقالت:
نومتي كانت أحب إلي من هذا اللؤلؤ. ولم تزل حالها معه على مثل ذلك حتى شكا ذلك
إلى كاتبه أبن أبي فروة. فقال له: أنا أكفيك هذا إن أذنت لي. قال: نعم ! افعل ما شئت.

فأتاها ليلاً ومعه أسودان فأستأذن عليها. فقالت: أفي مثل هذه الساعة ؟ قال نعم؛ فأذنت
له فدخل. فقال للأسودين: أحفرا ها هنا بئرا. فقالت له جاريتها: وما تصنع بالبئر ؟ قال:
شؤم مولاتك، أمرني هذا الظالم أن أدفنها حية، وهو أسفك خلق الله لدمٍ حرام. قالت
عائشة: فأنظرني أذهب إليه؛ قال: هيهات لا سبيل إلى ذلك، وقال للأسودين: أحفرا. فلما
رأت الجد منه بكت وقالت: يا أبن أبي فروة، إنك لقاتلي ما منه بد ؟ قال: نعم، وإني
لأعلم أن الله عز وجل سيخزيه بعدك، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب. قالت: وفي
أي شيء غضبه ؟ قال: من أمتناعك عليه وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره،
فقد جن. فقالت: أنشدك الله إلا عاودته. قال: أخاف أن يقتلني؛ فبكت وبكى جواريها.
فقال لها: قد رققت لك وحلف لها إنه يغرر بنفسه، وقال لها: فما أقول ؟ قالت: تضمن له
عني أني لا أعود أبداً. قال: فمالي عندك ؟ قالت: قيامٌ بحقك ما عشت. قال: فأعطيني
المواثيق فأعطته. فقال للأسودين: مكانكما. أتى مصعباً فأخبره. فقال: أستوثق منها
بالأيمان؛ فأستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب.
قال: وكان مصعب من أشد الناس إعجاباً بها. ولم يكن لها شبيه في زمانها حسنا وديانةً
وجمالا وهيئةً وشارةً وعفة، وإنها دعت يوماً نسوةً من قريش، فلما جئنها أجلستهن في
مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجامر، وخلعت على كل أمرأة منهن خلعة
من الوشي والحز ونحو ذلك، ودعت عزة الميلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفته؛ ثم قالت
لعزة: هات يا عزة فغنينا. فغنتهن في شعر أمرئ القيس فقالت:

وثغر أغرّ شنيب اللّثات لذيذ المقبّل والمبتسم
وما ذقته غير ظنٍّ به وبالظنّ يقضي عليك الحكم

وكان مصعب قريباً منهن ومعه إخوانٌ له، فقام فأنتقل حتى دنا منهن والستور مسبلةٌ،
فصاح بها: يا هذه، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت، فبارك الله فيك يا عزة. ثم
أرسل إلى عائشة: أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا

هذا الصوت ثم تعود إليك، ففعلت وخرجت عزة إليهم فغنتهم هذا الصوت مراراً، وكاد
مصعب أن يذهب عقله فرحا. ثم قال لها: يا عزة، إنك لتحسنين القول والوصف، وأمرها
بالعود إلى مجلسها.
قال: ولم تزل عند مصعب حتى قتل عنها. فخطبها بشر بن مروان، وقدم عمر أبن عبيد
الله بن معمر التيمي من الشام فنزل الكوفة، فبلغه أن بشراً خطبها، فأرسل إليها جارية لها
وقال: قولي لأبنة عمي: ابن عمك يقرئك السلام ويقول لك: أنا خير لك من هذا المبسور
المطحول، وأنا أبن عمك أحق بك، وإن تزوجت بك ملأت بيتك خيراً. فتزوجته فبني
عليها بالحيرة، فمهدت له سبعة أفرشة عرضها أربع أذرع؛ فأصبح ليلة بني بها عن تسعة.
فلقيته مولاة لها فقالت: أبا حفص، فديتك ! قد كملت في كل شيء حتى في هذا. وقيل
إنه لما تزوجها حمل إليها ألف ألف درهم، خمسمائة ألف مهر، وخمسمائة ألف هدية، وقال
لمولاتها: لك علي ألف دينار إن دخلت بها الليلة، وأمر بالمال فحمل فألقي في الدار وغطى
بالثياب؛ وخرجت عائشة فقالت لمولاتها: ما هذا ؟ أفرشٌ أم ثيابٌ ؟ قالت: انظري إليه؛
فنظرت فإذا هو مال، فتبسمت. فقالت الجارية: أجزاء من حمل هذا المال أن يبيت عزبا
! قالت: لا والله، ولكن لا يجوز دخوله إلا بعد أن أتزين له وأستعد. قالت: وماذا ؟
فوالله لوجهك أحسن من كل زينة وما تمدين يديك إلى طيب أو ثوب أو مال أو فراش إلا
وهو عندك، وقد عزمت عليك أن تأذني له. فقالت: أفعلي.
فذهبت إليه فقالت له: بت
بنا الليلة. فجاءهم عند العشاء الآخرة فأدني إليه طعام فأكل الطعام كله حتى أعرى
الخوان وغسل يده وسأل عن المتوضأ فأخبر به، فقام فتوضأ وقام يصلي حتى ضاق
صدري ونمت، ثم قال: أعليكم آذن ؟ قلت: نعم فأدخل، فأدخلته وأسبلت الستر
عليهما. فلما أصبحنا وقفت على رأسه فقال: أتقولين شيئا ؟ قلت: نعم والله ما رأيت
مثلك ! فضحك وضرب بيده على منكب عائشة وقال لها: كيف رأيت أبن عمك ؟
فضحكت وغطت وجهها وقالت:

قد رأيناك فلم تحل لنا وبلوناك فلم نرض الخبر
ومكثت عائشة عند عمر بن عبيد الله ثماني سنين حتى مات سنة أثنتين وثمانين. ولما
مات ندبته قائمةً، ولم تندب أحداً قبله من أزواجها إلا جالسة.
فقيل لها في ذلك فقالت: إنه
كان أكرمهم علي وأمسهم بي رحماً، فأردت ألا أتزوج بعده.
وكانت المرأة إذا ندبت زوجها
قائمةً لا تتزوج بعده أبدا. ولم تتزوج عائشة بنت طلحة بعد زوجها عمر بن عبيد الله.
ومن أخبار عائشة بنت طلحة أيضا ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى يزيد أبن
عياض، قال:
استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج، فأذن لها وقال: أرفعي حوائجك
وأستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت وتجهزت بهيئة جهدت فيها. فلما كانت
بين مكة والمدينة إذا موكبٌ قد جاء فضغطها وفرق جماعتها؛ فقالت: أرى هذه عائشة
بنت طلحة، فسألت عنها، فقالوا: هذه جاريتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك،
فقالوا: عائشة عائشة، فضغطهم فسألت عنها، فقالوا: هذه ما شطتها. ثم جاءت مواكب
على هذا لحاشيتها، ثم اقبلت في ثلثمائة راحلة عليها القباب والهوادج؛ فقالت عاتكة: ما
عند الله خير وأبقى. قال: ووفدت عائشة بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال
لها: ما أوفدك ؟ قالت: حبست السماء مطرها ومنع السلطان الحق. قال: فأنا أصل
رحمك وأعرف حقك. ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فأسمروا
عندي الليلة فحضروا؛ فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت
معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غار إلا أسمته. فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما
النجوم فمن أين لك ؟ قالت: أخذته عن خالتي عائشة رضي الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف
درهم وردها إلى المدينة.
قال: ولما تأيمت عائشة كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة، وتخرج إلى مال لها بالطائف
عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات، فتتناضل بين يديها الرماة. فمر بها

النميري الشاعر، فسألت عنه فأنتسب لها؛ فقالت: أئتوني به، فجيء به. فقالت له: أنشدني
مما قلت في زينب؛ فأمتنع وقال: بنت عمي وقد صارت عظاما بالية. قالت: أقسمت
عليك لما فعلت؛ فأنشدها قوله:

نزلن بفخٍّ ثم رحن عشيّةً يلبيّن للرحمن معتمرات
يخمّرن أطراف الأكفّ من التّقى ويخرجن جنح اللّيل معتجرات
ولما رأت ركب النّميريّ راعها وكنّ من أن يلقينه حذرات
تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينبٌ في نسوةٍ خفرات

وزينب هذه هي زينب بنت يوسف الثقفي أخت الحجاج، وكان النميري يهواها ويشبب
بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحها ليس هذا موضع إيرادها قال: فقالت له عائشة لما
أنشدها هذا الشعر: والله ما قلت إلا جميلا، ولا وصفت إلا كرما وطيباً ودينا وتقىً،
أعطوه ألف درهم. فلما كانت الجمعة الأخرى تعرض لها، فقالت: علي به؛ فجاء فقالت
له: أنشدني من شعرك في زينب؛ قال: فأنشدك من قول الحارث فيك. فوثب مواليها إليه،
فقالت: دعوه فإنه أراد أن يستقيد لأبنة عمه، هات؛ فأنشدها:

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بلبّك مطلع الشرق
وتنوء تثقلها عجيزتها نهض الضعيف ينوء بالوسق
ما صبّحت زوجاً بطلعتها إلا غدا بكواكب الطّلق
بيضاء من تيم كلفت بها هذا الجنون وليس بالعشق

فقالت: والله ما ذكر إلا جميلا، ذكر أني إذا صبحت زوجا بوجهي غدا بكواكب الطلق،
وأني غدوت مع أمير تزوجني إلى الشرق، أعطوه ألف درهم وأكسوه حلتين ولا تعد لإنياننا
يا نميري؛ والله أعلم ولنرجع إلى أخبار المغنين.

أخبار محمد بن عائشة

يكنى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنسب إلى أمه؛ وكان يزعم أن أسم أبيه جعفر.
وعائشة أمه مولاةٌ لكثير بن الصلت الكندي حليف قريش، وقيل: هي مولاة لآل المطلب بن
أبي وداعة السهمي. وقال أبن عائشة وقد سأله الوليد بن يزيد فقال: يا محمد ألبغيةٍ أنت
؟ : كانت أمي يا أمير المؤمنين ماشطةً وكنت غلاما، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت:
أرفعوا هذا لأبن عائشة، فغلبت على نسبي. قالوا: وكان أبن عائشة يفتن كل من سمعه،

وكان فتيان من المدينة قد فسدوا في زمانه بمحادثته ومجالسته. وأخذ عن معبد ومالك بن
أبي السمح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما وأعترافه بفضلهما. وكان تياهاً سيئ
الخلق، إن قال له إنسان: تغن قال: ألمثلي يقال هذا ! فإن غنى وقال له إنسان: أحسنت،
سكت؛ فكان قليلا ما ينتفع به.
وكان أبن عائشة منقطعاً إلى الحسن بن الحسن، وكان الحسن مكرما له. فسأله الحسن أن
يخرج معه إلى البغيبغة، فأمتنع أبن عائشة، فأقسم عليه وأظهر الجد. فلما عاين ما ظهر
عليه قال: أخرج طائعا لا كارها؛ فأمر له ببغلة فركبها ومضيا إلى البغيبغة، فنزلا الشعب
ثم أكلوا. وقال له: غنني، فأندفع فغناه صوتا فأستحسنه. فقال ابن عائشة: والله لا غنيتك
في يومي هذا شيئا. فأقسم الحسن ألا يفارق البغيبغة ثلاثة أيام. فأغتم أبن عائشة ليمينه
وندم. فلما كان في اليوم الثاني قال له: إن فقد برت يمينك؛ فنظر إلى ناقةٍ تقدم جماعة إبلٍ
فأندفع يغني:

تمرّ كجندلة المنجني ق يرمي بها السّور يوم القتال

وهي أبيات لأمية بن أبي عائذ الهذلي يصف حمارا وحشياً؛ والبيت يمر بالياء. وقيل:
سال العقيق مرةً فدخل عرصة سعيد بن العاص الماء حتى ملأها، فخرج الناس إليها،
وخرج أبن عائشة فجلس على قرن البئر. فبينما هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه
غلامان أسودان، فقال لهما: امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القرن الذي عليه أبن عائشة،
ففعلا ذلك. ثم ناداه الحسن: كيف أصبحت يا بن عائشة قال: بخير. قال: أنظر من تحتك،
فنظر فإذا العبدان. قال: أتعرفهما ؟ قال نعم. قال: فهما حران لئن لم تغنني مائة صوت
لآمرنهما بطرحك في البئر، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما. فأندفع أبن عائشة
وغنى بشعر الهذلي:

ألا لله درّك من فتى قومٍ إذا رهبوا
وقالوا من فتىً للحر ب يرقبنا ويرتقب
فكنت فتاهم فيها إذا تدعى لها تثب
ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصب
كما يعتاد ذات البوّ بعد سلوّها الطّرب
على عبد بن زهرة بتّ طول الليل أنتحب

وروى أبو الفرج الأصفهاني ببسند رفيه إلى حماد الراوية:
أن الوليد بن يزيد أستقدمه من العراق إلى الشام على دواب البريد. وكان مما حكاه عنه
قال: قدمت عليه فأذن لي، فدخلت فإذا هو على سريرٍ ممهد وعليه ثوبان أصفران وعنده
معبدٌ ومالك بن أبي السمح وأبو كامل مولاه، فأستنشدني: أمن المنون وريبها تتوجّع
فأنشدته حتى أتيت على آخرها. ثم قال: يا مالك، غنني:
ألا هل هاجك الأظعا ن إذ جاوزن مطّلحا
فغناه. ثم قال: غنني:
جلا أميّة عنّي كلّ مظلمةٍ سهل الحجاب وأوفى بالذي وعدا
فغناه. ثم قال: غنني:
أتنسى إذ تودّعنا سليمى بفرع بشامةٍ، سقي البشام !
فغناه؛ ثم أتاه الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، الرجل الذي طلبت بالباب، فأذن له فدخل
شابٌ لم أر أحسن وجهاً منه. فقال له: غنني:
وهي إذ ذاك عليها مئزرٌ ولها بيت جوارٍ من لعب
فغناه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال: غنني:
طاف الخيال فمرحبا ألفاً برؤية زينبا
فغضب معبدٌ وقال: يا أمير المؤمنين، إنا مقبلون عليك بأقدارنا وأسناننا وإنك تركتنا
بمزجر الكلب وأقبلت على هذا الصبي. فقال: يا أبا عباد، ما جهلت قدرك ولا سنك،
ولكن هذا الغلام طرحني في مثل الطناجير من حرارة غنائه.
قال حماد: فسألت عن الغلام
فقيل لي: هو أبن عائشة.
وحكى عن شيخ من تنوخ قال: كنت صاحب ستر الوليد بن يزيد، فرأيت أبن عائشة
عنده وقد غناه:
إني رأيت صبيحة النّفر حوراً نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب في مطالعها بعد العشاء أطفن بالبدر
وخرجت أبغي الأجر محتسبا فرجعت موفوراً من الوزر
فطرب الوليد حتى كفر وألحد، وقال: يا غلام، أسقنا بالسماء السابعة، ثم قال: أحسنت
والله يا أميري، أعد بحق عبد الشمس فأعاد، ثم قال: أحسنت يا أميري والله، أعد بحق
أمية فأعاد، ثم قال: أعد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسه، فقال: أعد بحياتي فأعاده؛
فقام فأكب عليه، فلم يبق عضوٌ من أعضائه إلا قبله؛ ثم نزع ثيابه فألقاها عليه وبقي مجردا
إلى أن أتوه بمثلها، ووهب له ألف دينار وحمله على بغلة وقال: أركبها بأبي أنت وأنصرف،

فقد تركتني على مثل المقلى من حرارة غنائك. فركبها على بساطه وأنصرف.
وحكى أيضا أن أبن عائشة أنصرف من عند الوليد وقد غناه:
أبعدك معقلاً أرجو وحصناً قد أعيتني المعاقل والحصون
فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارة القصار كسوةً. فبينا أبن عائشة يسير إذ نظر إليه
رجلٌ من أهل وادي القرى، وكان يشتهي الغناء ويشرب النبيذ، فقال لغلامه: من هذا
الراكب ؟ قال: أبن عائشة المغني، فدنا منه فقال: جعلت فداءك ! أنت أبن عائشة أم
المؤمنين ؟ قال: لا أنا مولىً لقريش وعائشة أمي، وحسبك هذا. قال: وما هذا الذي أراه
بين يديك من المال والكسوة ؟ قال: غنيت أمير المؤمنين صوتا فأطربه فكفر وترك الصلاة
وأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة. قال: جعلت فداءك ! فهل تمن علي أن تسمعني ما
أسمعته إياه ؟ فقال: ويلك ! أمثلي يكلم بهذا في الطريق ! قال: فما أصنع ؟ قال: ألحقني
بالباب. وحرك أبن عائشة بغلته لينقطع عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفرسي رهانٍ.
ودخل أبن عائشة فمكث طويلا طمعاً ان يضجر فينصرف، فلم يفعل حتى أعياه. فقال
لغلامه: أدخله، فلما دخل، قال له: ويلك ! من أين صبك الله علي ! قال: أنا رجل من
أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء. فقال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ قال: وما
ذاك ؟ قال: مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك. فقال له: جعلت فداءك !
والله إن لي بنيةً ما في أذنها علم الله حلقةٌ من الورق فضلا عن الذهب، وإن لي زوجةً
ما عليها شهد الله قميصٌ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة
والفقر اللذين عرفتكهما وأضعفت لي هذا لكان الصوت أعجب إلي. فتعجب أبن عائشة
وغناه الصوت، فجعل يحرك رأسه ويطرب له طرباً شديدا حتى ظن أن عنقه ستنقصف؛
ثم خرج من عنده ولم يرزأه شيئا. وبلغ الخبر الوليد بن يزيد، فسأل أبن عائشة عنه، فجعل
يغيب عن الحديث؛ فلم يزل به حتى صدقه الحديث، طلب الرجل، فطلب حتى أحضر إليه
ووصله صلةً سنيةً وجعله من ندمائه ووكله بالسقي؛ فلم يزل معه حتى قتل رحمه الله.

وعن علي بن الجهم الشاعر قال: حدثني رجل أن أبن عائشة كان واقفا بالموسم مهجرا.
فمر به بعض أصحابه فقال: ما يقيمك ها هنا ؟ قال: إني أعرف رجلا لو تكلم لحبس
الناس ها هنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجئ. فقال له الرجل: ومن ذاك ؟ قال: أنا؛ ثم أندفع
يغني:

جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوىً مشمولةً فمتى اللّقاء
بنفسي من تذكّره سقامٌ أعانيه ومطلبه عناء

قال: فحبس الناس وأضطربت المحامل ومدت الإبل أعناقها، فكادت الفتنة أن تقع. فأتي
به هشام بن عبد الملك، فقال له: يا عدو الله أردت أن تفتن الناس قال: فأمسك عنه
وكان تياهاً؛ فقال له هشام: ارفق بتيهك. فقال: يحق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب
أن يكون تياها ! فضحك هشامٌ وخلى سبيله.
وأختلف في وفاة أبن عائشة وسببها. فقيل: كانت وفاته في أيام هشام بن عبد الملك،
وقيل: في أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه، لأنه قد تقدم أنه نادم الوليد وغناه. والذي يقول: إنه
توفي في أيام هشام يزعم أنه نادم الوليد في أيام ولايته العهد. وكانت وفاته بذي خشبٍ، وهو
على أميال من المدينة. قيل: كان سبب وفاته أن الغمر بن يزيد خرج إلى الشام؛ فلما نزل
قصر ذي خشبٍ جلس على سطحه، فغنى أبن عائشة صوتاً طرب له الغمر، فقال: أعده
فأبى، وكان لا يردد صوتا لسوء خلقه. فأمر به فطرح من أعلى السطح فمات. وقيل: بل
قام من الليل يبول وهو سكران فسقط من السطح فمات.
وقيل: بل كان قد رجع من عند
الوليد بن يزيد، فلما قرب من المدينة نزل بذي خشب، وكان والي المدينة إبراهيم بن هشام
المخزومي وكان في قصره هناك، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم. فلما أخذوا في الشرب
أخرج المخزومي جواريه، فنظر إلى أبن عائشة وهو يغمز جاريةً منهن؛ فقال لخادمه: إذا
خرج أبن عائشة يريد حاجته فأرم به من القصر، وكانوا يشربون في سطح القصر. فلما قام
رماه الخادم فمات. وقيل: بل أقبل من الشام فنزل بقصر ذي خشب فشرب فيه ثم صعد
إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشين في ناحية الوادي، فقال لأصحابه: هل لكم فيهن ؟

فقالوا: وكيف لنا بهن ! فلبس ملاءةً مدلوكةً ثم قام على شرفة من شرفات القصر وتغنى
بشعر أبن أذينة:
وقد قالت لأترابٍ لها زهرٍ تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا
فأقبلن عليه، فطرب وأستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل: بل مات
بالمدينة. وأول هذه الأبيات:
سليمى أزمعت بينا وأين لقاؤها أينا
وقد قالت لأترابٍ لها زهرٍ تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا
فأقبلن إليها مس رعات يتهادينا
إلى مثل مهارة الرم ل تكسو المجلس الزّينا
إلى خودٍ منّعمة حففن بها وفدّينا
تمنّين مناهنّ فكنّا ما تمنّينا
أخبار أبن محرز
هو مسلم، وقيل: عبد الله بن محرز. ويكنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قصي.
وكان أبوه من سدنة الكعبة، وأصله من الفرس. وكان يسكن المدينة مرةً ومكة مرةً. فكان
إذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عزة الميلاء ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها
ثلاثة أشهر. ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غناءهم، ثم صار إلى الشام
فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم. وأسقط من ذلك ما لا يستحسن من غناء الفريقين
ونغمهم وأخذ محاسنها، فمزج بعضها ببعض وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار
العرب، فأتي بما لم يسمع مثله. وكان يقال له صناج العرب.
وقيل: إنه أول من أخذ الغناء عن أبن مسجح. وهو أول من غنى بالرمل وما غنى قبله.
وكان أبن محرز قليل الملابسة للناس، فأخمل ذلك ذكره. وأخذ أكثر غنائه جاريةٌ كانت
لصديق له من أهل مكة كانت تألفه فأخذه الناس عنها. ومات بعلة الجذام، وكان ذلك
سبب أمتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطة الناس.
وحكى أنه رحل إلى العراق، فلما بلغ القادسية لقيه حنينٌ فقال له: كم منتك نفسك من
العراق ؟ قال: ألف دينار؛ قال: هذه خمسمائة دينار فخذها وأنصرف وأحلف ألا تعود،
ففعل. فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابه: فقال: والله لو دخل العراق ما كان لي معه

خبزٌ آكله ولأطرحت ثم سقطت إلى آخر الدهر. ولم أقف من أخبار أبن محرز على أكثر
من هذا فأورده. والسلام.
أخبار مالك بن أبي السمح
هو أبو الوليد مالك بن أبي السمح. وأسم أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائي، وأمه قرشيةٌ
من بني مخزوم؛ وقيل: بل أم أبيه منهم؛ وقيل فيه: مالك بن أبي السمح بن سليمان. وكان
أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ويتيماً في حجره أوصى به أبوه إليه.
وكان مالكٌ أحول طويلا. وأخذ الغناء عن جميلة ومعبد وعمر، وأدرك الدولة العباسية.
وكان منقطعاً إلى بني سليمان بن علي، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور.
وروى الأصفهاني بسنده إلى الورداني، قال:
كان مالك بن أبي السمح المغني من طيء، فأصابتهم حطمة في بلادهم بالجبلين، فقدمت به
أمه وبإخوة له وأخواتٍ أيتامٍ لا شيء لهم. وكان يسأل الناس على باب حمزة بن الزبير.
وكان معبدٌ منقطعا إلى حمزة يكون عنده في كل يوم. فسمع مالكٌ غناءه فأعجبه وأشتهاه.
وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناء معبد إلى الليل ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد
شيئا ولا يريم موضعه، فينصرف إلى أمه ولم يكسب شيئا فتضربه، وهو مع ذلك يترنم
بألحان معبد فيؤديها نغماً بغير لفظ. وجعل حمزة كلما غدا أو راح رآه ملازما لبابه؛ فقال
لغلامه يوما: أدخل هذا الغلام إلي فأدخله الغلام إليه؛ فقال له حمزة: من أنت ؟ قال: غلام
من طيء أصابتنا حطمة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعي أمٌ لي وإخوةٌ، وإني لزمت بابك
فسمعت من دارك صوتاً أعجبني ولزمت بابك من أجله. قال: فهل تعرف منه شيئا ؟
قال: أعرف لحنه كله ولا أعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقاً إنك لفهمٌ. ودعا بمعبد
فأمره أن يغني صوتا فغناه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله ؟ قال نعم. قال: هاته؛
فأندفع فغناه فأدى نغمه بغير شعر، يؤدي مداته ولياته وعطفاته ونبراته ومتعلقاته لا يخرم منه
حرفا. فقال لمعبد: خذ هذا الغلام إليك وخرجه فليكونن له شأنٌ.
قال معبد: ولم أفعل

ذلك ؟ قال: لتكون محاسنه منسوبة إليك وإلا عداك إلى غيرك فكانت محاسنه منسوبةً
إليه. فقال معبد: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتني به. قال حمزة لمالك: كيف وجدت
ملازمتك لبابنا ؟ قال: أرأيت إن قلت فيك غير الذي أنت له مستحق من الباطل أكنت
ترضى بذلك ؟ قال لا. قال: وكذلك لا يسرك أن تحمد بما لم تفعل؛ قال نعم. قال: فوالله ما
شبعت على بابك شبعةً قط، ولا أنقلبت إلى أهلي منه بخير. فأمر له ولأمه ولإخوته بمنزل
وأجرى عليهم رزقاً وكسوةً وأمر لهم بخادم يخدمهم وعبدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكا
معه في مجالسه، وأمر معبداً أن يطارحه فلم ينشب أن مهر. فخرج مالك يوما فسمع أمرأة
تنوح على زيادة الذي قتله هدبة بن خشرم والشعر لأخي زيادة :

أبعد الذي بالنّعف نعف كويكب رهينة رمسٍ ذي ترابٍ وجندل
أذكّر بالبقيا على من أصابني وذلك أنّي جاهدٌ غير مؤتلي
فلا يدعني قومي لزيد بن مالكٍ لئن لم أعجّل ضربةً أو أعجّل
وإلاّ أنل ثأري من اليوم أو غدٍ بني عمّنا فالدّهر ذو متطوّل
أنختم علينا كلكل الحرب مرةً بني عمّنا منيخوها عليكم بكلكل

فغنى في هذا الشعر لحنين، أحدهما نحا فيه نحو المرأة في نوحها ورققه وأصلحه، والآخر
نحا فيه نحو معبد في غنائه. ثم دخل على حمزة فقال له: أيها الأمير، إني قد صنعت غناءً
في شعر سمعت أهل المدينة ينشدونه وقد أعجبني، فإن أذن الأمير غنيته. قال: هات؛
فغنى اللحن الذي نحا فيه نحو معبدٍ؛ فطرب حمزة وقال: أحسنت يا غلام، هذا الغناء
غناء معبدٍ بطريقته. قال: لا تعجل أيها الأمير وأسمع مني شيئاً ليس من غناء معبد ولا
طريقته؛ فغناء اللحن الذي تشبه فيه بنوح المرأة. فطرب حمزة حتى ألقي عليه حلةً كانت
عليه قيمتها مائتا دينار. ودخل معبدٌ فرأى حلة حمزة على مالكٍ فأنكرها. وعلم حمزة
بذلك فأخبر معبداً بالسبب، وأمر مالكا فغناه الصوتين. فغضب معبد لما سمع الصوت
الأول وقال: قد كرهت أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غنائي فيدعيه لنفسه. فقال حمزة: لا
تعجل وأسمع غناءً صنعه ليس من شأنك ولا غنائك، وأمره أن يغني الصوت الآخر فغناه،

فأطرق معبدٌ. فقال له حمزة: والله لو أنفرد بهذا لضاهاك ثم تزايد على الأيام، وكلما كبر
وزاد شخت أنت وأنتقصت، فلأن يكون منسوباً إليك أجمل.
فقال له معبدٌ وهو منكسر:
صدق الأمير. فأمر حمزة لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه. فقام
مالكٌ على رجليه وقبل رأس معبد وقال له: يا أبا عباد، أساءك لما سمعت مني ؟ والله لا
أغني لنفسي شيئا أبداً ما دمت حياً وإن غلبتني نفسي فغنيت في شعر أستحسنته لا
نسبته إلا إليك، فطب نفسا وأرض عني. فقال له معبد: أتفعل هذا وتفي به ؟ قال: إي
والله وأزيد. فكان مالك إذا غنى صوتاً وسئل عنه قال: هذا لمعبد، ما غنيت لنفسي
شيئاً قط، وإنما آخذ غناء معبد فأنقله إلى الأشعار وأحسنه وأزيد فيه وأنقص منه.
وحضر مالكٌ بن أبي السمح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وأبن عائشة فغنوه، فأمر
لكل واحد منهم بألف دينار.
وحكى عن أبن الكلبي قال: قال الوليد بن يزيد لمعبد:
قد آذتني ولولتك هذه، وقال لأبن عائشة: قد آذاني استهلالك هذا، فاطلبا لي رجلا يكون
مذهبه متوسطا بين مذهبيكما. فقالا له: مالك بن أبي السمح؛ فكتب في إشخاصه إليه
وسائر من بالحجاز من المغنين. فلما قدم مالك على الوليد بن يزيد فيمن معه نزل على الغمر
بن يزيد، فأدخله على الوليد فغناه فلم يعجبه. فلما أنصرف قال له الغمر: إن أمير المؤمنين لم
يعجبه شيءٌ من غنائك، فقال له: جعلني الله فداك ! اطلب لي الإذن عليه مرة أخرى،
فإن أعجبه شيءٌ مما أغنيه وإلا انصرفت إلى بلادي. فلما جلس الوليد في مجلس اللهو ذكره
الغمر له؛ فأذن له فشرب مالكٌ ثلاث صراحيات صرفا، ودخل على الوليد وهو يخطر في
مشيئته، فلما بلغ باب المجلس وقف ولم يسلم وأخذ بحلقة الباب ثم رفع صوته فغنى:

لا عيش إلا بمالك بن أبي السّمح فلا تلحني ولا تلم
أبيض كالبدر أو كما يلمع ال بارق في حالك من الظّلم
فليس يعصيك إن رشدت ولا يهتك حقّ الإسلام والحرم
يصيب من لذّة الكرام ولا يجهل آي الترخيص في اللّمم
يا ربّ ليلٍ لنا كحاشية ال برد ويوم كذاك لم يدم
نعمت فيه ومالك بن أبي السّمح الكريم الأخلاق والشّيم

فطرب الوليد ورفع يديه حتى بان إبطاه وقام فأعتنقه، ثم أخذ في صوته ذلك فم يزالوا فيه
أياما، وأجزل له العطية حين أراد الأنصراف. قال: ولما أتى مالكٌ على قوله: أبيض كالبدر
قال الوليد:
أحول كالقرد أو كما يرقب السّارق في حالكٍ من الظّلم
قالوا: وكان مالك بن أبي السمح مع الوليد بن يزيد يوم قتل هو وابن عائشة. قال ابن
عائشة: وكان مالكٌ من أحمق الخلق، فلما قتل الوليد قال: اهرب بنا؛ قلت: وما يريدون
منا؟ قال: وما يؤمنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسه بينهما ليحسنوا أمرهم بذلك.
أخبار يونس الكات
هو يونس بن سليمان بن كرد بن شهريار من ولد هرمز، مولىً لعمرو بن الزبير، ومنشؤه
ومنزله بالمدينة، وكان أبوه فقيهاً فأسلمه في الديوان وكان من كتابه. وأخذ الغناء عن معبد
وابن سريج وأبن محرز والغريض، وكان أكثر روايته عن معبد. ولم يكن في أصحاب معبد
أحذق منه ولا اقوم بما أخذ عنه منه. وله غناءٌ حسن، وصنعة كثيرة، شعر جيدٌ. وهو
أول من دون الغناء. وله كتاب في الأغاني نسبها إلى من غنى فيها. وخرج إلى الشام في
تجارة، فبلغ الوليد بن يزيد مكانه فأحضره والوليد إذ ذاك ولى العهد. قال: فلما وصلت إليه
سلمت عليه، فأمرني بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجواري. قال يونس: فمكثنا يومنا
وليلتنا في أمر عجيب، وغنيته فأعجب بغنائي إلى أن غنيته:
إن يعش مصعبٌ فنحن بخير قد أتانا من عيشنا ما نرجّى
ثم تنبهت فقطعت الصوت وأخذت أعتذر من غنائي بشعرٍ في مصعب، فضحك ثم قال:
إن مصعباً قد مضى وأنقطع أثره ولا عداوة بيني وبينه وإنما أريد الغناء، فأمض الصوت؛
فعدت فيه فغنيته ولم يزل يستعيده حتى أصبح فشرب مصطبحاً وهو يستعيدني هذا
الصوت ولا يتجاوزه. فلما مضت ثلاثة ايام قلت: جعلني الله فداك إني رجل تاجر خرجت
مع تجارٍ وأخاف أن يرتحلوا فيضيع مالي، فقال: أنت تغدو غداً، وشربٍ باقي ليلته وأمر لي
بثلاثة آلاف دينار. فحملت إلي وغدوت إلى أصحابي. فلما أستخلف بعث إلي فأتيته فلم
أزل معه حتى قتل.

أخبار حنين

هو حنين بن بلوع الحيري. وأختلف في نسبه، فقيل: هو من العباديين من تميم، وقيل: إنه
من بني الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم بقوا من طسمٍ وجديسٍ، فنزلوا في بني الحارث
بن كعبٍ فعدوا فيهم. ويكنى أبا كعب. وكان شاعراً مغنياً من فحول المغنين، وكان
يسكن الحيرة ويكرى الجمال إلى الشام، وكان نصرانياً. وعن المدائني قال: كان حنينٌ غلاما
يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة
وأصحاب القيان والمتطربين ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه أستحلوه
وأقام عندهم، فكان يسمع الغناء ويصغي له، حتى شدا منه أصواتاً فأستمعه الناس، وكان
مطبوعاً حسن الصوت. وأشتهر غناؤه وشهر بالغناء ومهر فيه وبلغ فيه مبلغا كبيرا. ثم
رحل إلى عمر بن داود الوادي وإلى حكم الوادي وأخذ منهما وغنى لنفسه وأستولى على
الغناء في عصره، وهو الذي بذل لأبن محرزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما
قدمناه في أخبار أبن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغاً عظيما، حتى قيل له فيما حكى:
إنك تغني منذ خمسين سنة فما تركت لكريم مالا ولا دارا ولا عقارا إلا أتيت عليه. فقال:
بأبي أنتم ! إنما هي أنفاسي أقسمها بين الناس، أفتلومونني أن أغلي بها الثمن.
وحكى المدائني قال: حج هشام بن عبد الملك وعديله الأبرش الكلبي؛ فوقف له حنينٌ
بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامر له. فلما مر به هشام عرض له فقال: من هذا ؟ قيل: حنين؛
فأمر به هشام فحمل في محملٍ على جمل وعديله زامره وسيره أمامه، فغناه:

أمن سلمى بظهر الكو فة الآيات والطّلل
تلوح كما تلوح علي جفون الصّيقل الخلل

فأمر له هشام بمائتي دينار وللزامر بمائة دينار.
وحكى أن خالد بن عبد الله القسري حرم الغناء بالعراق في أيامه ثم أذن للناس يوما في
الدخول عليه عامةً؛ فدخل عليه حنين في جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه فقال: أصلح
الله الأمير ! كانت لي صناعةٌ أعود بها على عيالي فحرمها الأمير فأضر ذلك بي وبهم.

فقال: وما كانت صناعتك ؟ فكشف عن عوده وقال: هذا. فقال له خالد: غن؛ فعرك
أوتاره وغنى:
أيّها الشّامت المعيّر بالده ر أأنت المبرّأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأي ام بل أنت جاهلٌ مغرور
من رأيت المنون خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
قال: فبكى خالد وقال: قد أذنت لك وحدك خاصةً، ولا تجالس سفيهاً ولا معربداً.
فكان إذا دعى قال: أفيكم سفيه أو معربدٌ ؟ فإذا قالوا لا، دخل.
وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سمرة بن جندب: عاش حنين بن بلوع مائة سنة
وسبع سنين.
أخبار سياط
هو عبد الله بن وهب ويكنى أبا وهب، وسياطٌ لقب غلب عليه. وهو مكيٌ مولى
خزاعة. كان مقدماً في الغناء روايةً وصنعةً، مقدماً في الطرب. وهو أستاذ أبن جامع
وإبراهيم الموصلي وعنه أخذا، وأخذ هو عن يونس الكاتب. وكان سياط زوج أم أبن
جامع. قيل: وإنما لقب سياطٌ بهذا اللقب لأنه كان كثيرا ما يغنى:
كأنّ مزاحف الحيّات فيها قبيل الصبح آثار السّياط
حكى أن إبراهيم الموصلي غنى صوتا لسياط، فقال أبنه إسحاق: لمن هذا الغناء يا أبت
؟ قال: لمن لو عاش ما وجد أبوك خبزا يأكله، سياط.
وحكى أن سياطا مر بأبي ريحانةً في يوم بارد وهو جالسٌ في الشمس وعليه سمل ثوبٍ
رقيق رث؛ فوثب إليه أبو ريحانة المدني وقال: بأبي أنت يا أبا وهب ! غنني صوتك في
شعر أبن جندب:
فؤادي رهينٌ في هواك ومهجتي تذوب وأجفاني عليك همول
فغناه إياه، فشق قميصه ورجع إلى موضعه من الشمس وقد أزداد بردا وجهدا. فقال له
رجل: ما أغنى عنك هذا من شق قميصك ؟! فقال: يا أبن أخي، إن الشعر الحسن من
المغنى المحسن ذي الصوت المطرب أدفأ للمقرور من حمام محممً. فقال له رجل: أنت عندي
من الذين قال الله تعالى فيهم: "فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ" فقال: بل أنا ممن قال
الله تعالى فيهم: "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ".
وقد حكيت هذه الحكاية أيضا

من طريق آخر: أنه لما غناه هذا الصوت شق قميصه حتى خرج منه وبقي عارياً وغشى
عليه وأجتمع الناس حوله، وسياطٌ واقف يتعجب مما فعل، ثم أفاق فقام إليه. فقال له
سياطٌ: مالك يا مشئوم ! أي شيء تريد ؟ قال: غنني بالله عليك يا سيدي:

ودّع أمامة حان منك رحيل إنّ الوداع لمن تحبّ قليل
مثل القضيب تمايلت أعطافه فالرّيح تجذب متنه فيميل
إن كان شأنكم الدّلال فإنه حسنٌ دلالك يا أميم جميل

فغناه، فلطم وجهه حتى خرج الدم من أنفه ووقع صريعاً. ومضى سياطٌ وحمل الناس أبا
ريحانة إلى الشمس. فلما أفاق قيل له في ذلك فقال نحو ما تقدم. قال: ووجه إليه سياطٌ
بقميص وسراويل وجبةٍ وعمامة.
وكانت وفاة سياط في أيام موسى الهادي. ودخل عليه أبن جامع وقد نزل به الموت فقال
له: ألك حاجة ؟ قال: نعم لا تزد في غنائي شيئا ولا تنقص منه، فإنما هو ثمانية عشر
صوتاً دعه رأسا برأس. قيل: بل كانت وفاته فجأةً، وذلك أنه دعاه بعض إخوانه فأتاهم
وأقام عندهم وبات؛ فأصبحوا فوجدوه ميتاً في منزلهم؛ فجاءوا إلى أمه وقالوا: يا هذه إنا
دعونا أبنك لنكرمه ونسر به ونأنس بقربه فمات فجأة، وها نحن بين يديك، فأحكمي ما
شئت، وناشدناك الله أن لا تعرضينا لسلطان أو تدعي علينا ما لم نفعله. قالت: ما كنت
لأفعل، وقد صدقتم، وهكذا مات أبوه فجأةً، وتوجهت معهم فحملته إلى منزله ودفنته.

أخبار الأبجر

هو عبيد الله بن القاسم بن منبه، ويكنى أبا طالب. وقيل: أسمه محمد بن القاسم،
والأبجر لقب غلب عليه. وهو مولى لكنانة ثم لبني ليث بن بكر. وكان يلقب بالحسحاس.
وكان مدنياً منشؤه مكة أو مكياً منشؤه المدينة. قال عورك اللهبي:
لم يكن بمكة أحدٌ أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر؛ كانت حلته بمائة دينار
وفرسه بمائة دينار ومركبه بمائة دينار؛ وكان يقف بين المأزمين ويرفع عقيرته، فيقف الناس له
فيركب بعضهم بعضاً. وروى الأصفهاني بسنده إلى اسحاق ابن إبراهيم الموصلي قال:

جلس الأبجر في ليلة اليوم السابع من أيام الحج على قريب من التنعيم فإذا عسكر جرار قد
أقبل في آخر الليل وفيه دواب تجنب ومنها فرس أدهم عليه سرجٌ حليته ذهب، فأندفع
يغني:
عرفت ديار الحيّ خاليةً قفرا كأن بها لمّا توهّمتها سطرا
فلما سمعه من في القباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحُ:
ويحك أعد الصوت ! فقال: لا
والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار؛ وإذا الوليد بن يزيد صاحب
العسكر. فنودي: أين منزلك ؟ ومن أنت ؟ فقال: أنا الأبجر، ومنزلي على زقاق باب
الخرازين. فغدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتخت ثياب وشي وغير
ذلك، ثم أتى به الوليد، فأقام وراح مع أصحابه عشية التروية وهو أحسنهم هيئة، وخرج
معه أو بعده إلى الشام.
وحكى عن عمرو بن حفص بن أم كلاب، قال:
كان الأبجر مولانا وكان مكياً، وكان إذا قدم من مكة نزل علينا. فقال لنا يوما: أسمعونا
غناء أبن عائشتكم هذا؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما في بيت أبن هبار. فغنى أبن
عائشة؛ فقال الأبجر: كل مملوكٍ له حر إن غنيت معك إلا بنصف صوتي، ثم أدخل إصبعه
في شدقه وغنى فسمع صوته من في السوق، فحشر الناس علينا، فلم يفترقا حتى تشاتما.
أخبار أبي زيد الدلال
هو أبو زيد ناقدٌ مدنيٌ، مولى عائشة بنت سعيد بن العاص، وكان مخنثاً.
قال إسحاق:
لم يكن في المخنثين أحسن وجهاً ولا أنظف ثوباً ولا أظرف من الدلال. قالوا: ولم يكن بعد
طويس أظرف منه ولا أكثر ملحاً. وكان كثير النوادر نزر الحديث، فإذا تكلم أضحك
الثكالى، وكان ضاحك السن، ولم يكن يغني إلا غناءً مضعفاً يعني كثير العمل.
وقال أيوب بن عباية:
شهدت أهل المدينة إذا ذكروا الدلال وأحاديثه طولوا رقابهم وفخروا به، فعلمت أن ذلك
لفضيلةٍ كانت عنده. قالوا: وكان مبتلىً بالنساء والكون معهن، فكان يطلب فلا يقدر

عليه. وكان صحيح الغنخاء حسن الجرم. قالوا: وإنما لقب بالدلال لشكله وحسن ظرفه
ودله وحلاوة منطفه وحسن وجهه. وكان مشغوفاً بمخالطة النساء يكثر وصفهن للرجال.
وكان يشاغل كل من يجالسه عن الغناء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء. وكان إذا غنى
أجاد، كما حكاه أبن الماجشون عن أبيه قال: غناني الدلال يوما بشعر مجنون بني عامر،
فلقد خفت الفتنة علي نفسي. وأستحضره سليمان بن عبد الملك من المدينة سراً وغناه
وأقام عنده شهرا ثم صرفه إلى الحجاز مكرما.
قال الأصمعي:
حج هشام بن عبد الملك؛ فلما قدم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشام وقوادهم
بجنب دار الدلال، فكان الشامي يسمع غناء الدلال ويصغي إليه ويصعد فوق السطح ليقرب
من الصوت، ثم بعث إلى الدلال: إما أن تزورنا وإما أن نزورك. فبعث إليه الدلال بل
تزورنا. فبعث الشامي ما يصلح ومضى إليه بغلامين من غلمانه كأنهما درتان مكنونتان.
فغناه الدلال، فأستحسن الشامي غناءه فقال: زدني؛ قال: أو ما يكفيك ما سمعت ! قال:
لا والله ما يكفيني. قال: فإن لي حاجة. قال: وما هي ؟ قال: تبيعني أحد هذين الغلامين
أو كليهما، فقال: أختر أيهما شئت، فأختار أحدهما، فقال له الشامي: هو لك؛ فقبله منه
الدلال، ثم غناه وغنى:

دعتني دواعٍ من أريّا فهيّجت هوىً كان قدماً من فؤاد طروب
لعل زماناً قد مضى أن يعود لي فتغفر أروى عند ذاك ذنوبي
سبتني أريّا يوم نعف محسّرٍ بوجهٍ جميلٍ للقلوب سلوب

فقال له الشامي: أحسنت. ثم قال له أيها الرجل الجميل، إن لي إليك حاجةً، قال الدلال:
وما هي؟ قال: أريد وصيفةً ولدت في حجر صالح ونشأت في خير، جميلة الوجه مجدولةً
وضيئةً جعدةً في بياض مشربةً حمرةً حسنة الهامة سبطةً أسيلة الخد عذبة اللسان لها
شكلٌ ودلٌ تملأ العين والنفس. فقال له الدلال: قد أصبتها لك، فما لي عندك إن دللتك
عليها ؟ قال: غلامي هذا. قال: إذا رأيتها وقبلتها فالغلام لي ؟ قال نعم. قال: فأتي أمرأةً
كنى عن أسمها، فقال لها: جعلت فداءك ! نزل بقربي رجلٌ من قواد هشام، له ظرف

وسخاءٌ، وجاءني زائرا فأكرمته، ورأيت معه غلامين كأنهما الشمس الطالعة المنيرة
والكواكب الزاهرة ما وقعت عيني على مثلهما ولا يطول لساني بوصفهما، فوهب لي
أحدهما والآخر عنده، وإن لم يصر إلي فنفسي ذاهبةٌ. قالت: وتريد ماذا ؟ قال: طلب
مني وصيفةً على صفةٍ لا أعلمها إلا في أبنتك، فهل لك أن تريد إياها؟ قالت: وكيف لكَ
بأن يدفع الغلام إليك إذا رآها ؟ قال: إني قد شرطت عليه ذلك عند النظر لا عند البيع.
قالت: شأنك، لا يعلم هذا أحد. فمضى الدلال وأتى بالشامي. فلما صار إلى المرأة وضع
له كرسيٌ وجلس. فقالت له المرأة: أمن العرب أنت ؟ قال نعم. قالت: من أيهم ؟ قال:
من خزاعة. قالت: مرحبا بك وأهلا ! أي شيء طلبت ؟ فوصف لها الصفة. قالت:
قد اصبتها؛ وأسرت إلى جارية لها فدخلت فمكثت هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت:
أخرجي، فخرجت وصيفةٌ ما رأى الراءون مثلها. فقالت لها: أقبلي فأقبلت، ثم قالت:
أدبري فأدبرت تملأ العين والنفس، فما بقي منها شيء إلا وضع يده عليه. فقالت له: أتحب
أن نؤزرها لك ؟ قال نعم. قالت: أئتزري؛ فضمها الإزار وظهرت محاسنها الخفية؛ فضرب
بيده إلى عجيزتها وصدرها. ثم قالت: أتحب أن نجردها لك ؟ قال نعم. قالت: أي
حبيبتي وضحي؛ فألقت الإزار فإذا أحسن خلق الله كأنها سبيكةٌ. فقالت: يا أخا
العرب، كيف رأيت ؟ قال: منية المتمني. قال: بكم تقولين ؟ قالت: ليس يوم النظر يوم
البيع، ولكن تعود غداً حتى نبايعك فلا تنصرف إلا عن رضاً، فأنصرف من عندها. فقال
له الدلال: أرضيت ؟ قال: نعم، ما كنت أحسب أن مثل هذه في الدنيا، وإن الصفة لتقصر
دونها، ثم دفع إليه الغلام الثاني. فلما كان من الغد قال له الشامي: أمض بنا. فمضيا حتى
قرعا الباب، فأذن لهما فدخلا فسلما، فرحبت المرأة بهما ثم قالت للشامي: أعطنا ما
تبذل؛ فقال: ما لها عندي ثمنٌ إلا وهي أكثر منه، فقولي أنت يا أمة الله. قالت: بل قل أنت،
فإنا لم نوطئك أعقابنا ونحن نريد خلافك وأنت لها رضاً. قال: ثلاثة آلاف دينار. قالت:

والله لقبلةٌ منها خيرٌ من ثلاثة آلاف دينار. قال: أربعة آلاف دينار. قالت: غفر الله لك
أعطنا أيها الرجل. قال: والله ما معي غيرها ولو كان لزدتك إلا رقيقٌ ودواب. قالت: ما
أراك إلا صادقاً، أتدري من هذه ؟ قال: تخبريني. قالت: هذه ابنتي فلانة بنت فلانة وأنا
فلانة بنت فلان، قم راشداً. فقال للدلال: خدعتني. قال: أو ما ترضى أن ترى ما رأيت
من مثلها وتهب مائة غلام مثل غلامك ؟ قال: أما هذا فنعم. وخرجا من عندها.
والدلال أحد من خسى من المخنثين بالمدينة لما أمر سليمان بن عبد الملك عامله على
المدينة أبا بكر بن عمرو بن حزمٍ بخصيهم.
أخبار عطرد
هو أبو هارون عطرد، مولى الأنصار ثم مولى بني عمرو بن عوف، وقيل: إنه مولى مزينة.
مدنيٌ كان ينزل قباء. وكان جميل الوجه حسن الغناء طيب الصوت جيد الصنعة حسن
الزي والمروءة فقيهاً قارئا للقرآن. وقيل: إنه كان معدل الشهادة بالمدينة. وأدرك دولة بني
أمية وبقي إلى أول أيام الرشيد. وكان يغني مرتجلا.
وحكى أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه قال:
لما أستخلف الوليد بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة فأمره بإشخاص عطردٍ المعنى إليه،
ففعل. قال عطرد: فدخلت على الوليد وهو جالسٌ في قصره على شفير بركة مرصصةٍ
مملوءةٍ خمرا ليست بالكبيرة ولكنها يدور الرجل فيها سباحةً.
قال: فوالله ما تركني أسلم
حتى قال: أعطرد ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما زلت إليك مشتاقاً يا أبا هارون،
غنني:

حيّ الحمول بجانب العزل إذ لا يشاكل شكلها شكلي
الله أنجح ما طلبت به والبرّ خير حقيبة الرّحل
إني بحبلك واصلٌ حبلي وبريش نبلك رائشٌ نبلي
وشمائلي ما قد علمت وما نبحت كلابك طارقاً مثلي

قال: فغنيته إياه، فوالله ما أتممته حتى شق حلة وشي كانت عليه لا أدري كم قيمتها،
فتجرد منها كما ولدته أمه، وألقي نفسه في البركة فنهل منها حتى تبينت أنها قد نقصت
نقصاناً بينا، وأخرج منها وهو كالميت سكرا، فأضجع وغطى؛ فأخذت الحلة وقمت

وأنصرفت إلى منزلي متعجباً من فعله. فلما كان في غد، جاءني رسوله في مثل الوقت
فأحضرني. فلما دخلت عليه قال: يا عطرد ! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين ! قال: غنني:
أيذهب عمري هكذا لم أنل به مجالس تشفى قرح قلبي من الوجد
وقالوا تداو إنّ في الطبّ راحةً فعلّلت نفسي بالدواء فلم يجد
فغنيته إياه، فشق حلة وشي كانت تلمع عليه بالذهب احتقرت والله الأولى عندها، ثم
ألقي نفسه في البركة فنهل منها حتى تبينت نقصانها وأخرج كالميت سكرا، فألقي وغطى
ونام؛ وأخذت الحلة وأنصرفت. فلما كان اليوم الثالث، جاءني رسوله فدخلت إليه وهو في
بهو قد ألقيت ستوره، فكلمني من وراء الستور وقال: يا عطرد ! قلت: لبيك يا أمير
المؤمنين ! قال: كأني بك الآن قد أتيت إلى المدينة فقمت في مجالسها وقعدت وقلت: دعاني
أمير المؤمنين فدخلت عليه فأقترح علي فغنيته فأطربته فشق ثيابه وأخذت سلبه وفعل
وفعل ! ووالله يا أبن الزانية إن تحركت شفتاك بشيءٍ مما جرى لأضربن عنقك يا غلام
أعطه ألف دينار؛ خذها وانصرف إلى المدينة. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في
تقبيل يده ويزودني نظرة منه وأغنيه صوتاً ! فقال: لا حاجة بي ولا بك إلى ذلك،
فأنصرف. قال عطرد: فخرجت من عنده وما علم الله أني ذكرت شيئا مما جرى حتى
مضت من دولة بني هاشم مدةٌ. ودخل عطرد على المهدي وغناه. قيل: ودخل على
الرشيد وغناه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار عمر الوادي

هو عمر بن داود بن زاذان. وجده زاذان مولي عمرو بن عثمان بن عفان. وأخذ الغناء
عن حكم، وقيل: بل أخذ حكمٌ عنه. وهو من أهل وادي القرى. قدم الحرم وأخذ من
غناء أهله فحذق وصنع فأجاد. وكان طيب الصوت شجياً مطربا. وهو أول من غنى
من أهل وادي القرى، وأتصل بالوليد بن يزيد في أيام إمارته فتقدم عنده جدا، وكان يسميه
جامع لذاتي ومحبي طربي. وقتل الوليد وهو يغنيه، وكان آخر الناس به عهداً. قال: وكان

يجتمع مع معبد ومالك بن أبي السمح وغيرهما من المغنين عند الوليد بن يزيد، فلا يمنعه
حضورهم من تقديمه والإصغاء إليه والأختصاص به. وفي عمر هذا يقول الوليد بن يزيد:

إنما فكّرت في عمرٍ حين قال القول واختلجا
إنه للمستنير به قمرٌ قد طمّس السّرجا
ويغنّي الشعر ينظمه سيّد القوم الذي فلجا
أكمل الواديّ صنعته في كتاب فاندمجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله: سيد القوم نفسه.

أخبار حكم الوادي

هو أبو يحيى الحكم بن ميمون، وقيل: الحكم بن يحيى بن ميمون. مولى الوليد بن عبد
الملك، كان أبوه حلاقا يحلق رأس الوليد، فأشتراه فأعتقه. وكان حكمٌ طويلا أحول، يكري
الجمال ينقل عليها الزيت من الشام إلى المدينة. وقيل: كان أصله من الفرس. وكان واحد
عصره في الحذق، وكان يغني بالدف ويغني مرتجلا. وعمر عمرا طويلا، غنى الوليد بن عبد
الملك، وغنى الرشيد، ومات في الشطر من خلافته. وأخذ الغناء عن عمر الوادي، وقد
قيل: إن عمر أخذ عنه. قال حماد بن إسحاق قال لي أبي: أربعةٌ بلغت في أربعة أجناس
من الغناء مبلغاً قصر عنه غيرهم: معبدٌ في الثقيل، وابن سريج في الرمل، وحكم في الهزج،
وإبراهيم في الماخوري. قال أبو الفرج الأصفهاني: وزار حكمٌ الوادي الرشيد، فبره ووصله
بثلثمائة ألف درهم، وخيره فيمن يكتب له بها عليه؛ فقال: أكتب لي بها على إبراهيم بن
المهدي وكان إبراهيم إذ ذاك عاملا له بالشام فقدم عليه حكمٌ بكتاب الرشيد؛ فأعطاه
ما كتب له به، ووصله بمثل ذلك، إلا أنه نقصه ألف درهم من الثلثمائة ألف، وقال له: لا
أصلك بمثل ما وصلك أمير المؤمنين. قال إبراهيم بن المهدي: وأقام عندي ثلاثين يوماً
أخذت عنه فيها ثلثمائة صوت، كل صوت أحب إلي من الثلثمائة ألف التي وهبتها له.
وقيل: إنه لم يشتهر بالغناء حتى صار إلى بني العباس، فأنقطع إلى محمد بن أبي العباس،
وذلك في خلافة المنصور، فأعجب به وأختاره على المغنين وأعجبته أهزاجه. وكان يقال:
إنه أهزج الناس. ويقال: إنه غنى الأهزاج في آخر عمره؛ فلامه ابنه على ذلك وقال: أبعد

الكبر تغني غناء المخنثين ! فقال له: اسكت فإنك جاهل، غنيت الثقيل ستين سنة فلم أنل
إلا القوت، وغنيت الأهزاج منذ سنتين فكسبتك ما لم تر مثله قط. والله أعلم.
أخبار ابن جامع
هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبن صبيرة بن
سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي. قالوا: وكان أبن جامع من أحفظ خلق الله لكتاب الله
تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع
الشمس، فلا يصلي الناس الجمعة حتى يختم القرآن ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسن
السمت، كثير الصلاة. وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة ويلبس لباس الفقهاء ويركب
حماراً مريسياً في زي أهل الحجاز. وروي عنه أنه قال: لولا أن القمار وحب الكلاب قد
شغلاني لتركت المغنين لا يأكلون الخبز. قال أبن جامع: أخذت من الرشيد بيتين غنيته
إياهما عشرة آلاف دينار. قالوا: وكان إبراهيم بن المهدي يفضل أبن جامع فلا يقدم عليه
أحدا. قال: وكان أبن جامع منقطعاً إلى موسى الهادي في أيام أبيه، فضربه المهدي
وطرده. فلما مات المهدي بعث الفضل بن الربيع إلى مكة فأحضر أبن جامع في قبة ولم يعلم
به أحدا. فذكره موسى الهادي ذات ليلةٍ فقال لجلسائه: أما فيكم أحدٌ يرسل إلى أبن
جامع وقد عرفتم موقعه مني ؟ فقال الفضل بن الربيع: هو والله عندي يا أمير المؤمنين
وأحضره إليه. فوصل الفضل في تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته.
وحكى أنه دخل على الهادي فغناه فلم يعجبه؛ فقال له الفضل: تركت الخفيف وغنيت
الثقيل. قال: فأدخلني عليه أخرى فأدخله؛ فغناه الخفيف، فأعطاه ثلاثين ألف دينار. قال
أحمد بن يحيى المكي: كان أبن جامع أحسن ما يكون غناءً إذا حزن. وأحب الرشيد أن
يسمع ذلك، فقال للفضل بن الربيع: ابعث بخريطة فيها نعى أم أبن جامع وكان براً بأمه
ففعل. فقال الرشيد: يا أبن جامع، في هذه الخريطة نعى أمك؛ فأندفع أبن جامع يغني بتلك
الحرقة والحزن الذي في قلبه:

كم بالدروب وأرض السّند من قدم ومن جماجم صرعى ما بها قبروا
بقدنرهار ومن تكتب منيّته بقندهار يرجّم دونه الخبر
قال: فوالله ما ملكنا أنفسنا، ورأيت الغلمان يضربون برءوسهم الحيطان والأساطين، وأمر
له الرشيد بعشرة آلاف دينار.
وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن علي بن عيسى بن ماهان قال: سمعت يزيد
يحدث عن أم جعفر أنه بلغها أن الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من الندماء ولا
المسامرين، فأرسلت إليه: يا أمير المؤمنين، إني لم أرك منذ ثلاث وهذا اليوم الرابع. فأرسل
إليها: عندي أبن جامع. فأرسلت إليه: أنت تعلم أني لا أتهنأ بشرب ولا سماع ولا غيرهما
إلا أن تشركني فيه، ما كان عليك أن أشركك في هذا الذي أنت فيه ! فأرسل إليها: إني
صائرٌ إليك الساعة. ثم قام وأخذ بيد أبن جامع وقال للخادم: امض إليها وأعلمها أني قد
جئت. وأقبل الرشيد؛ فلما نظر إلى الخدم والوصائف قد أستقبلوه علم أنها قد قامت
تستقبله؛ فوجه إليها: إن معي أبن جامع، فعدلت إلى بعض المقاصير. وجاء الرشيد
وصير أبن جامع في بعض المواضع التي يسمع منه فيها، ثم أمر أبن جامع فأندفع يغني:
ما رعدت رعدةً ولا برقت لكنها أنشئت لنا خلقه
الماء يجري ولا نظام له لو يجد الماء مخرقاً خرقه
بتنا وباتت على نمارقها حتى بدا الصبح عينها أرقه
أن قيل إن الرحيل بعد غدٍ والدّار بعد الجميع مفترقه
فقالت أم جعفر للرشيد: ما أحسن ما أشتهيت والله يا أمير المؤمنين ! ثم قالت لمسلم
خادمها: ادفع إلى أبن جامع بكل بيت مائة ألف درهم. فقال الرشيد: غلبتينا يا أبنة أبي
الفضل وسبقتينا إلى بر ضيفنا وجليسنا. فلما خرج حمل الرشيد إليها مكان كل درهم
ديناراً.
أخبار عمرو بن أبي الكنات
قال أبو الفرج الأصفهاني: هو أبو عثمان، وقيل: أبو معاذ عمرو بن أبي الكنات، مولى بني
جمح. وهو مكيٌ مغن حسن الصوت، من طبقة أبن جامع وأصحابه. وفيه يقول الشاعر:
أحسن الناس فأعلموه غناءً رجلٌ من بني أبي الكنات

قال محمد بن عبد الله بن فروة: قلت لإسماعيل بن جامع يوماً: هل غلبك أحدٌ من المغنين
قط ؟ قال: نعم، كنت ليلة ببغداد إذ جاءني رسول أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمرني
بالركوب، فركبت حتى صرت إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زلزل العواد
وبرصوما؛ فسلمت وجلست يسيرا. فطلع خادمٌ فقال للفضل: هل جاء ؟ قال لا. قال:
فابعث إليه. ولم يزل المغنون يدخلون واحداً واحداً حتى كنا ستةً أو سبعةً. ثم طلع
الخادم فقال: هل جاء ؟ فقال لا؛ فقال: قم فابعث في طلبه؛ فقام فغاب غير طويل فإذا هو
قد جاء بعمرو بن أبي الكنات. فسلم وجلس إلى جنبي، فقال لي: من هؤلاء ؟ قلت:
مغنون، هذا زلزلٌ وهذا برصوما. فقال: لأغنينك غناءً يخرق هذا السقف وتجيبه
الحيطان. ثم طلع الخصى فدعا بكراسي، وخرج الجواري. فلما جلسن قال الخادم: شدوا
فشدوا عيدانهم؛ ثم قال: يغني أبن جامع، فغنيت سبعة أو ثمانية أصوات؛ قال: أسكت،
وليغن إبراهيم الموصلي؛ فغنى مثل ذلك أو دونه ثم سكت، وغنى القوم كلهم واحدا بعد
واحد حتى فرغوا. ثم قال لأبن أبي الكنات: غن؛ فقال لزلزل: شد طبقتك فشدح ثم قال
له: شد فشد، ثم أخذ العود من يده فجسه حتى وقف على الموضع الذي يريده، ثم قال:
على هذا. وأبتدأ الصوت الذي أوله ألالا؛ فوالله لقد خيل إلأي أن الحيطان تجاوبه؛ ثم
رجع النغمة فيه؛ فطلع الخصى فقال: أسكت لا تتم الصوت فسكت. ثم قال: يجلس عمرو
بن أبي الكنات وينصرف سائر المغنين؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسف بال، ولا والله ما زال كل
واحد منا يسأل صاحبه عن كل ما يرويه من الغناء الذي أوله ألالا طمعاً في أن يعرفه وأن
يوافق غناءه فما عرفه منا أحدٌ. وبات عمرو عند الرشيد ليلته وأنصرف من عنده بجوائز
وصلاتٍ وطرفٍ سنية.
وقال موسى بن أبي المهاجر: خرج أبن جامع وأبن أبي الكنات حين دفع الإمام من عرفة،
حتى إذا كانوا بين المأزمين جلس عمرو على طرف الجبل ثم أندفع يغني، فركب الناس

بعضهم بعضاً حتى صاحوا به وأستغاثوا: يا هذا، الله الله ! أسكت عنا يجز الناس؛
فضبط أبن جامع بيده على فيه حتى مضى الناس إلى مزدلفة.
قال علي بن الجهم: حدثني من أثق به قال: واقفت أبن أبي الكنات على جسر بغداد أيام
الرشيد فحدثته بحديث أتصل بي عن أبن عائشة أنه وقف في الموسم في أيام هشام، فمر به
بعض أصحابه فقال: ما تصنع ؟ فقال: إني لأعرف رجلا لو تكلم لحبس الناس فلم يذهب
منهم أحدٌ ولم يجيء. فقلت له: من هذا الرجل ؟ قال: أنا، ثم أندفع فغنى فحبس الناس،
فأضطربت المحامل ومدت الإبل أعناقها. فقال أبن أبي الكنات وكان معجبا بنفسه: أنا
أفعل كما فعل وقدرتي على القلوب أكثر من قدرته. ثم أندفع فغنى الصوت الذي غنى فيه
أبن عائشة، وهو:

جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوىً مشمولةً فمتى اللّقاء
بنفسي من تذكرّه سقامٌ أعالجه ومطلبه عناء

قال: فغناه، وكنا إذ ذاك على جسر بغداد، وكان على دجلة ثلاثة جسور، فأنقطعت
الطرق وأمتلأت الجسور بالناس فأزدحموا عليها وأضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع
لثقل من عليها من الناس. فأخذ فأتي به الرشيد؛ فقال له: يا عدو الله، أردت أن تفتن
الناس ! قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنه بلغني أن أبن عائشة فعل مثل هذا في أيام
هشام، فأحببت أن يكون في أيامك مثله. فأعجبه ذلك، وأمر له بمال وأمره أن يغني فغنى؛
فسمع شيئا لم يسمع مثله، فأحتبسه عنده شهرا يستزيده، وكل يوم يستأذن له في الأنصراف
فلا يأذن له حتى تمم شهرا، وأنصرف بأموال جسيمة.
وقال عثمان بن موسى: كنا على شراب يوما ومعنا عمرو بن أبي الكنات إذ قال لنا قبل
طلوع الشمس: من تحبون أن يجيئكم ؟ قلنا: منصور الحجبي. فقال: أمهلوا حتى يكون
الوقت الذي ينحدر فيه إلى سوق البقر، فمكثنا ساعةً ثم أندفع يغني:

أحسن الناس فأعلموه غناءً رجلٌ من بني أبي الكنّات
عفت الدّار فالهضاب اللّواتي بين ثور فملتقى عرفات

فلم نلبث أن رأينا منصوراً من بعد قد أقبل يركض دابته نحونا. فلما جلس إلينا قلت له:

من أين علمت بنا ؟ قال: سمعت صوت عمرو وأنا في سوق البقر، فخرجت أركض دابتي
حتى صرت إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثة أميال.
وقال يحيى بن يعلى بن سعيد: بينا أنا ليلةً في منزلي في الرمضة بأسفل مكة، إذ سمعت
صوت عمرو بن أبي الكنات كأنه معي، فأمرت الغلام فأسرج لي دابتي وخرجت أريده، فلم
أزل أتبع الصوت حتى وجدته جالساً على الكثيب العارض ببطن عرفة يغني:

خذي العفو منّي تستديمي مودّتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرة الدّفّ مرّةً فإنّك لا تدرين كيف المغيّب
فإني رأيت الحبّ في الصدر والأذى إذا أجتمعا لم يلبث الحب يذهب

أخبار أبي المهنأ مخارق
هو أبو المهنأ مخارق بن يحيى بن ناووس الجزار مولى الرشيد.
وقيل: بل ناووس لقب أبيه
يحيى؛ وإنما لقب بناووس لأنه بايع رجلا أنه يمضي إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قدرا بالليل
حتى تنضج، فطرح رهنه بذلك؛ فدس الرجل الذي راهنه رجلا فألقى نفسه في الناووس
بين الموتى. فلما فرغ ناووس من الطبخ مد الرجل يده من بين الموتى وقال له: أطعمني؛
فغرف بالمغرفة من المرق وصبها في يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له: اصبر حتى
نطعم الأحياء أولا ثم نتفرغ للموتى؛ فلقب ناووساً لذلك.
قال: وكان مخارقٌ لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدمات في الضرب.
نشأ مخارقٌ بالمدينة؛ وقيل: كان منشؤه بالكوفة. وكان أبوه جزاراً مملوكا، وكان مخارقٌ وهو
صبي ينادي على ما يبيعه أبوه من اللحم. فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفاً من
الغناء، ثم أرادت بيعه، فأشتراه إبراهيم الموصلي منها وأهداه للفضل بن يحيى، فأخذه
الرشيد منه ثم أعتقه. وقيل: أشتراه إبراهيم من مولاته بثلاثين ألف درهم وزادها ثلاثة
آلاف درهم. قال: ولما أشتراه قال له الفضل بن يحيى: ما خبر غلام بلغني أنك أشتريته ؟
فقال: هو ما بلغك. قال: فأرنيه، فأحضره، فغنى بين يديه؛ فقال له: ما أرى فيه الذي
رأيت. قال: تريد أن يكون في الغناء مثلي في ساعةٍ واحدةٍ !
فقال: بكم تبيعه ؟ قال:

أشتريته بثلاثين ألف درهم، وهو حر لوجه الله تعالى إن بعته إلا بثلاثة وثلاثين ألف دينار.
فغضب الفضل وقال: إنما أردت ألا تبيعه أو تجعله سببا لأن تأخذ مني ثلاثة وثلاثين ألف
دينار. فقال إبراهيم: أنا أصنع بك خصلة واحدة، أبيعك نصفه بنصف هذا المال وأكون
شريكك في نصفه وأعلمه، فإن أعجبك إذا علمته أتممت لي باقي المال وإلا بعته بعد، وكان
الربح بيني وبينك. فقال الفضل: إنما أردت أن تأخذ مني المال الذي قدمت ذكره، فلما لم
تقدر على ذلك أردت أن تأخذ نصفه، وغضب. فقال إبراهيم له: فأنا أهبه لك على أنه
يساوي ثلاثة وثلاثين ألف دينار؛ قال: قد قبلته؛ قال: وقد وهبته لك. وغدا إبراهيم على
الرشيد؛ فقال له: يا إبراهيم، ما غلامُ بلغني أنك وهبته للفضل ؟ قال: غلام يا أمير المؤمنين
لم تملك العرب ولا العجم مثله، ولا يكون مثله أبدا. قال: فوجه إلى الفضل يأمره بإحضاره.
فوجه به إليه، فغنى بين يديه؛ فقال له: كم يساوي ؟ قال إبراهيم: يساوي خراج مصر
وضياعها. قال: ويحك ! أتدري ما تقول ! مبلغ هذا المال كذا وكذا ! قال: وما مقدار
هذا المال في غلام لم يملك أحدٌ مثله قط ! قال: فالتفت الرشيد إلى مسرور الكبير وقال:
قد عرفت يميني أني لا أسأل أحداً من البرامكة شيئا فقال مسرور: فأنا أمضي إلى الفضل
فأستوهبه منه، فإذا كان عندي فهو عندك. فقال له: شأنك. فمضى مسرور إلى الفضل
وأستوهبه منه، فوهبه له. وقيل: بل إبراهيم هو الذي أهداه للرشيد؛ فأمره الرشيد
بتعليمه فعلمه حتى بلغ ما بلغه. قال: وكان مخارقٌ يقف بين يدي الرشيد مع الغلمان لا
يجلس ويغني وهو واقف. فغنى ابن جامع ذات يوم بين يدي الرشيد:

كأنّ نيراننا في جنب قلعتهم مصبّغات على أرسان قصّار
هوت هرقلة لمّا أن رأت عجباً جواثما ترتمي بالنّفط والنّار

فطرب الرشيد وأستعاده مراراً؛ وهو شعر مدح به الرشيد في فتح هرقلة. فأقبل الرشيد
على أبن جامع دون غيره. فغمز مخارقٌ إبراهيم بعينه وتقدمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له:
مالي أراك منكسراً ؟ فقال له: أما ترى إقبال أمير المؤمنين على أبن جامع بسبب هذا

الصوت ! فقال مخارقٌ: قد والله أخذته. فقال: ويحك ! إنه الرشيد، وأبن جامعٍ من تعلم،
ولا يمكن معارضته إلا بما يزيد على غنائه وإلا فهو الموت ! فقال: دعني وخلاك ذمٌ، وعرفه
أني أغني به، فإن أحسنت فإليك ينسب، وإن أسأت فإلي يعود. فقال إبراهيم للرشيد: يا
أمير المؤمنين، أراك متعجباً من هذا الصوت بغير ما يستحقه وأكثر مما يستوجبه ! فقال:
لقد أحسن فيه أبن جامع ما شاء. قال: أو لأبن جامع هو ؟ قال: نعم، كذا ذكر. قال:
فإن عبدك مخارقاً يغنيه. فنظر إلى مخارق؛ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: هاته؛ فغناه
وتحفظ فيه فأتى بالعجائب، وطرب الرشيد حتى كاد يطير؛ ثم أقبل على أبن جامع فقال:
ويلك ! ما هذا ؟ فابتدأ يحلف بالطلاق وكل محرجة أنه لم يسمع ذلك الصوت قط من غيره
وأنه صنعه وأنها حيلةٌ جرت عليه. فأقبل على إبراهيم وقال: أصدقني بحياتي؛ فصدقه
عن قصة مخارق. فقال لمخارق: اجلس إذاً مع أصحابك، فقد تجاوزت مرتبة من يقوم.
وأعتقه ووصله بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضيعةً ومنزلا.
وقد روى أبو الفرج الأصفهاني عن هارون بن مخارق، قال: كان أبي إذا غنى هذا
الصوت:

يا ربع سلمى لقد هيّجت لي طربا زدت الفؤاد على علاّته وصبا
ربعٌ تبدّل ممن كان يسكنه عفر الظباء وظلماناً به عصبا

يبكي ويقول: أنا مولى هذا الصوت. فقلت له: كيف يا أبت ؟ فقال: غيته مولاي الرشيد،
فبكى وشرب عليه رطلا ثم قال: أحسنت يا مخارق ! فسلني حاجتك؛ فقلت: تعتقني يا
أمير المؤمنين أعتقك الله من النار؛ فقال: أنت حرٌ لوجه الله تعالى، فأعد الصوت فأعدته؛
فبكى وشرب رطلا، ثم قال: أحسنت يا مخارق ! فسلني حاجتك؛ فقلت: ضيعةٌ تقيمني
غلتها؛ فقال: قد أمرت لك بها، أعد الصوت فأعدته؛ فبكى وقال: سل حاجتك؛ فقلت: يا
أمير المؤمنين، تأمر لي بمنزل وفرسٍ وخادمٍ؛ فقال: ذلك لك، أعد الصوت فأعدته؛ فبكى
وقال: سل حاجتك؛ فقبلت الأرض بين يديه وقلت: حاجتي أن يطيل الله بقاءك ويديم عزك
ويجعلني من كل سوءٍ فداءك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاي.

ويروى أيضاً عن الحسين بن الضحاك عن مخارق أن الرشيد قال يوما للمغنين وهو
مصطبح: من منكم يغني:
يا ربع سلمى لقد هيّجت لي طربا
فقمت وقلت: أنا يا أمير المؤمنين. فقال: هاته؛ فغنيته فطرب وشرب ثم قال: علي بهرثمة؛
فقلت في نفسي: ماذا يريد منه ! فجاء هرثمة فقال له: مخارق الشاري الذي قتلناه بنواحي
الموصل ما كانت كنيته ؟ فقال: أبو المهنأ؛ فقال: أنصرف فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد علي
فقال: قد كنيتك أبا المهنأ لإحسانك؛ وأمر لي بمائة ألف درهم؛ فأنصرفت بها وبالكنية.
قال أبو عبد الله بن حمدون: كنا عند الواثق وأمه عليلةٌ. فلما صلى المغرب دخل إليها
وأمر ألا نبرح، فجلسنا في صحن الدار، وكانت ليلةً مقمرةً وأبطأ الواثق علينا؛ فاندفع
مخارق يغني، فأجتمع علينا الغلمان، وخرج الواثق فصاح: يا غلام، فلم يجبه أحد، ومشى
في المجلس إلى أن توسط الدار؛ فلما رأيته بادرت إليه؛ فقال لي: ويلك ! هل حدث في
داري شيءٌ ؟ فقلت: لا يا سيدي. قال: فما بالي أصيح فلا أجاب ؟ فقلت: مخارق
يغنى والغلمان قد أجتمعوا إليه فليس فيهم فضلٌ لسماع غير ما يسمعونه. فقال: عذرٌ والله
لهم يا أبن حمدون وأي عذر ! ثم جلس وجلسنا بين يديه إلى السحر. وقد روى نحو هذه
الحكاية في أمر الغلمان مع مخارق عند المعتصم. وقال محمد بن عبد الملك الزيات: قال لي
الواثق: ما غناني مخارق قط إلا قدرت أنه من قلبي خلق. وكان يقول: أتريدون أن تنظروا
فضل مخارق على جميع أصحابه ؟ انظروا إلى هؤلاء الغلمان الذين يقفون في السماط،
فكانوا يتفقدونهم وهم وقوفٌ فكلهم يسمع الغناء من المغنين جميعا وهو واقفٌ مكانه
ضابطٌ لنفسه، فإذا تغنى مخارق خرجوا عن صورهم فتحركت أرجلهم ومناكبهم وبانت
أسباب الطرب فيهم، وأزدحموا على الحبل الذي يقفون من ورائه.
وحكى أنه خرج مرة إلى باب الكناسة بمدينة السلام والناس يرحلون إلى مكة؛ فنظر إلى
كثرتهم وأزدحامهم، فقال لأصحابه الذين معه: قد جاء في الخبر أن أبن سريج كان يغني في

أيام الحج والناس يمشون فيستوقفون بغنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم
جميعاً لتعلموا أنه لم يكن ليفضلني إلا بصنعته دون صوته؛ ثم اندفع يؤذن، فأستوقف أولئك
الخلق واستلهاهم، حتى جعلت المحامل يغشي بعضها بعضاً.
قالوا: وجاء أبو العتاهية إلى باب مخارق وطرقه فخرج إليه؛ فقال له: يا حسان هذا
الإقليم، يا حكيم أرض بابل، أصبب في أذني شيئا يفرح به قلبي وتتنعم به نفسي وكان في
جماعة منهم محمد بن سعيد اليزيدي فقال: انزلوا، فنزلوا، فغناهم. فقال محمد بن سعيد:
فكدت أسعى على وجهي طرباً. قال: وجعل أبو العتاهية يبكي، ثم قال: يا دواء المجانين،
لقد رققت حتى كدت أن أحسوك، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدما، ولو كان
شراباً لكان ماء الحياة.
وقال أبو الفرج عن عمر بن شبة قال: حدثني بعض آل نوبخت قال: كان أبي وعبد الله بن
أبي سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرهم وقوفا بكناسة الدواب في الجانب الغربي ببغداد
يتحدثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسود وعليه قميصٌ رقيقٌ ورداءٌ مسهم؛
فقال: فيم كنتم؟ فأخبروه. فقال: دعونا من وسواسكم هذا، أي شيء لي عليكم إن
رميت بنفسي بين قبرين من هذه القبور وغطيت وجهي وغنيت صوتا فلم يبق أحد بهذه
الكناسة ولا في الطريق من مشتر ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلا ترك عمله وقرب مني واتبع
صوتي ؟ فقال عبد الله: إني لأحب أن أرى هذا، فقل ما شئت.
فقال مخارق: فرسك
الأشقر الذي طلبته منك فمنعتنيه. قال: هو لك إن فعلت ما قلت. قال: فرمى بنفسه بين
قبرين وتغطى بردائه، ثم أندفع يغني بشعر أبي العتاهية:

نادت بوشك رحيلك الأيّام أفلست تسمع أم بك أستصمام
ومضى أمامك من رأيت وأنت لل باقين حتى يلحقوك أمام
مالي أراك كأنّ عينك لا ترى عبراً تمرّ كأنهنّ سهام
تمضي الخطوب وأنت منتبهٌ لها فإذا مضت فكأنها أحلام

قال: فرأيت الناس يأتون إلى المقبرة أرسالا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومار في
الطريق حتى لم يبق أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه: هل بقي أحدٌ ؟ قلنا: لا، وقد وجب

الرهن. فقام فركب حماره، وعاد الناس إلى صنائعهم؛ وقال لعبد الله: أحضر الفرس؛ قال:
على أن تقيم عندي؛ قال نعم ! فسلم الفرس إليه وبره وأحسن رفده.
وروى عن يحيى المكي قال: خرج مخارقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المتنزهات، فنظر إلى
قوس مذهبة مع بعض من خرج معه، فسأله إياها، وكان المسئول ضن بها، وسنحت ظباءٌ
بالقرب منه؛ فقال لصاحب القوس: أرأيت إن تغنيت صوتا فعطفت علي به خدود هذه
الظباء أتدفع إلي القوس ؟ قال نعم ! فاندفع يغني:

ماذا تقول الظباء أفرقةً أم لقاء
أم عهدها بسليمى وفي البيان شفاء
مرّت بناسانحاتٍ وقد دنا الإمساء
فما أحارت جوابا وطال فيها العناء

قال: فعطفت الظباء راجعةً إليه حتى وقفت بالقرب منه تنظر إليه مصغيةً إلى صوته.
فعجب من حضر من رجوعها ووقوفها؛ وناوله الرجل القوس، فأخذها وقطع الغناء
فعاودت الظباء نفارها ومضت راجعةً على سننها.
وروى عن إسحاق بن إبراهيم قال: دخلت على أبي وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين
يديه وهو يغنيه:

يا ربع بشرة إن أضرّبك البلى فلقد رأيتك آهلاً معمورا

قال: فرأيت أبي ودموعه تجري على خديه من أربعة أماكن وهو ينشج أحر نشيج. فلما
رآني قال: يا إسحاق، هذا والله صاحب اللواء غداً إن مات أبوك.
وروى عن مخارق قال: رأيت وأنا حدثٌ كأن شيخا جالسا على سرير في روضة حسنة،
فدعاني فقال لي: غنني يا مخارق؛ فقلت: أصوتاً تقترحه أو ما حضر ؟ فقال: ما حضر.
فغنيته:

دعى القلب لا يزدد خبالاً مع الذي به منك أو داوى جواه المكتّما
وليس بتزويق اللسان وصوغه ولكنّه قد خالط اللّحم والدّما

فقال لي: أحسنت يا مخارق ! ثم أخذ وترا من أوتار العود فلفه على المضراب ودفعه
إلي، فجعل المضراب يطول ويغلظ والوتر ينتشر ويعرض حتى صار المضراب كالرمح والوتر
كالعذبة عيه وصار في يدي علماً، ثم أنتبهت فحدثت برؤياي إبراهيم الموصلي؛ فقال لي:

الشيخ بلا شك إبليس، وقد عقد لواء صنعتك فانت ما حييت رئيس أهلها.
وقال أحمد بن حمدون: غضب المعتصم على مخارق فأمر أن يجعل في المؤذنين ويلزمهم ففعل
ذلك؛ وأمهل حتى علم أن المعتصم يشرب، فأذنت العصر، فدخل إلى الستر حيث يقف
المؤذن للسلام، ثم رفع صوته جهده وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته،
الصلاة يرحمك الله. فبكى حتى جرت دموعه وبكى كل من حضر، ثم قال: أدخلوه علي
وأقيل علينا؛ ثم قال: سمعتم هكذا قط ! هذا الشيطان لا يترك أحداً يغضب عليه !.
فدخل إليه فقبل الأرض بين يديه؛ فدعاه المعتصم إليه فأعطاه يده فقبلها وأمره بإحضار
عوده فأحضره، وأعاده إلى مرتبته. وأخباره كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية. وكانت وفاته
في أول خلافة المتوكل؛ وقيل: بل في آخر خلافة الواثق. وغنى خمسةً من الخلفاء: الرشيد
والأمين والمأمون والمعتصم والواثق. رحمهم الله تعالى.
أخبار يحيى بن مرزوق المكي
هو أبو عثمان يحيى بن مرزوق المكي، مولى بني أمية، وكان يكتم ذلك لخدمته للخلفاء من
بني العباس؛ وكان إذا سئل عن ولائه أنتمى إلى قريش، ولم يذكر البطن الذي ولاؤه له،
ويستعفى من يسأله عن ذلك.
قال الأصفهاني:
وعمر يحيى المكي مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء ما لم يصبه أحدٌ من نظرائه ومات
وهو صحيح العقل والسمع والبصر. وكان قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدي في
أول خلافته فبقي بالعراق. وكان أبن جامع وإبراهيم الموصلي وفليح يفزعون إليه في الغناء
القديم فيأخذونه عنه، ويعابي بعضهم بعضا بما يأخذونه منه. فإذا خرجت لهم الجوائز
أخذوه منها ووفروا نصيبه. وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدمة. قال: وله كتاب في الأغاني
ونسبها وأجناسها كبير جليل مشهور، إلا أنه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه في
رواياته؛ والعمل على كتاب أبنه أحمد، فإنه صحح كثيرا مما أفسده وأزال ما عرفه من
تخاليط أبيه، وحقق ما نسبه من الأغاني إلى صانعه. قال: وهو يشتمل على نحو ثلاثة

آلاف صوت.
قال أحمد بن سعيد:
كانت صنعة يحيى ثلاثة آلاف صوت، منها زهاء ألف صوت لم يقاربه فيها أحدٌ. وسئل
أبنه أحمد عن صنعة أبيه فقال: الذي صح عندي منها ألف صوت وثلثمائة صوت، منها
مائة وسبعون صوتا، غلب فيها على الناس جميعا من تقدم منهم ومن تأخر، فلم يقم له
أحد فيها.
قال أحمد بن يحيى قال لي إسحاق: يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتاً من أخذها
عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرابح. والله أعلم.
أحمد بن يحيى المكي الملقب بطنين
هو أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي، وكان يلقب طنينا. وهو أحد المحسنين المبرزين
الرواة للغناء المحكمي الصنعة. كان إسحاق يقدمه ويؤثره ويشدو بذكره ويجهر بتفضيله.
قال أبو الفرج: وكتابه المجرد في الأغاني ونسبها أصلٌ من الأصول المعول عليها. قال: وكان
مع جودة غنائه وحسن صنعته أحد الضراب الموصوفين المتقدمين.
قال علي بن يحيى: قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي وقد جرى ذكر أحمد ابن يحيى
المكي : يا أبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى مملوكاً كم كان يساوي ؟ قال: أخبرك
عن ذلك، انصرفت ليلةً من دار الواثق فأجتزت بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه فإذا
أحمد عنده. فلما قاموا لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب: كم يساوي أحمد لو
كان مملوكاً ؟ قلت: يساوي عشرين ألف دينار. قال: ثم رجع فغنى صوتاً؛ فقال لي
الحسن: كم يساوي أحمد لو كان مملوكاً ؟ قلت: يساوي ثلاثين ألف دينار. ثم تغنى صوتا
آخر؛ فقلت للحسن: يا أبا علي أضعفها. ثم أردت الأنصراف فقلت لأحمد: غنني

لولا الحياء وأنّ السّتر من خلقي إذاً قعدت إليك الدهر لم أقم
أليس عندك سكرٌ للتي جعلت ما أبيضّ من قادمات الأس كالحمم

فغناه فأحسن فيه كل الإحسان. فلما قمت للأنصراف قلت: يا أبا علي، أضعف

الجميع. فقال له أحمد: ما هذا الذي أسمعكما تقولانه ولست أدري ما معناه ؟ فقال: نحن
نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري. وقال محمد بن عبد الله بن مالك: سألني
إسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما: من بقي من المغنين ؟ قلت: وجه القرعة محمد بن
عيسى. فقال: صالح كيسٌ؛ ومن أيضا؟ قلت: أحمد بن يحيى المكي. قال: نج نج ! ذاك
المحسن المجمل الضارب المغني، القائم بمجلسه لا يحوج أهل المجلس إلى غيره. وكانت وفاته
في أول خلافة المستعين.
هاشم بن سليمان مولى بني أمية
يكنى أبا العباس. وكان موسى الهادي يسميه أبا الغريض. قال أبو الفرج: وهو حسن
الصنعة غزيرها؛ وفيه يقو الشاعر:
يا وحشتي بعدك يا هاشم غبت فشجوى بك لي لازم
اللّهو واللّذّة يا هاشم ما لم تكن حاضره ما تم
وقال الأصبهاني بسند رفعه إلى هاشم:
أصبح موسى أمير المؤمنين يوما وعنده جماعةٌ فقال: يا هاشم غنني:
أبهار قد هيّجت لي أوجاعا
فإن أصبت مرادي فيه فلك حاجةٌ مقضية. قال: فغنيته، وهو:
أبهار قد هيّجت لي أوجاعا وتركتني عبداً لكم مطواعا
بحديثك الحسن الذي لو كلّمت وحش الفلاة به لجئن سراعا
وإذا مررت على البهار منضّداً في السوق هيّج لي إليك نزاعا
والله لو علم البهار بأنها أضحت سميّته لصار ذراعا
فقال: اصبت وأحسنت، سل حاجتك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر بأن يملأ هذا الكانون
دراهم وكان بين يديه كانون عظيم فأمر به فملئ فوسع ثلاثين ألف درهم. فلما حصلتها
قال لي: يا ناقص الهمة، والله لو سألت أن أملأه لك دنانير لفعلت. فقلت: أقلني يا أمير
المؤمنين. قال: لا سبيل إلى ذلك ولم يسعدك الجد به. وقد رويت هذه الحكاية في موضع
آخر، وذكر أن الذي غناه غير هذا الشعر، وأن الكانون وسع ست بدر، فدفعها إليه.
أخبار يزيد حوراء
هو رجل من أهل المدينة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة؛ ويكنى أبا
خالد. مغن محسنٌ كثير الصنعة، من طبقة أبن جامع وإبراهيم الموصلي. وكان ممن قدم

على المهدي في خلافته فغناه. وكان حسن الصوت حلو الشمائل. فحسده إبراهيم
الموصلي على شمائله وإشاراته في الغناء، فاشترى عدة جوار وشاركه فيهن، وقال له:
علمهن، فما رزق الله تعالى من ربح فيهن فهو بيننا. وأمرهن أن يجعلن وكدهن أخذ
إشارته ففعلن ذلك. فكان إبراهيم يأخذها عنهن هو وأبنه ويأمرهن بتعليم كل من يعرفنه
ذلك حتى شهرها في الناس، فأبطل عليه ما كان منفرداً به من ذلك.
قال عبد الله بن العباس الربيعي:
كان يزيد حوراء نظيفاً ظريفاً حسن الوجه شكلاً، لم يقدم علينا من الحجاز أنظف منه ولا
أشكل، وما كنت تشاء أن ترى خصلةً جميلة لا تراها في أحد منهم إلا رأيتها فيه. وكان
يتعصب لإبراهيم الموصلي على أبن جامع، فكان إبراهيم يرفع منه ويشيع ذكره بالجميل
وينبه على مواضع تقدمه وإحسانه، ويبعث بأبنه إسحاق إليه يأخذ عنه.
وحكى أبو الفرج بسندٍ رفعه إلى يزيد حوراء قال:
كلمني أبو العتاهية في أن أكلم المهدي في عتبة؛ فقلت: إن الكلام لا يمكنني، ولكن قل
شعراً أغنيه به؛ فقال:

نفسي بشيء من الدنيا معلّقةٌ الله والقائم المهديّ يكفيها
إني لأيأس منها ثم يطمعني فيها أحتقارك للدّنيا وما فيها

قال: فعملت فيه لحناً وغنيته. فقال: ما هذا ؟ فأخبرته خبر أبي العتاهية؛ فقال: ننظر
فيما سأل؛ فأخبرت بذلك أبا العتاهية. ثم مضى شهر فجاءني فقال: هل حدث خبرٌ ؟
قلت لا. قال: فأذكرني للمهدي. فقلت: إن أحببت ذلك فقل شعرا تحركه به وتذكره وعده
حتى أغنيه به؛ فقال:

ليت شعري ما عندكم ليت شعري فلقد أخّر الجواب لأمر
ما جوابٌ أولى بكل جميلٍ من جوابٍ يردّ من بعد شهر

قال يزيد: فغنيت المهدي، فقال: علي بعتبة فأحضرت؛ فقال: إن أبا العتاهية كلمني فيك،
فما تقولين ولك عندي وله ما تحبان مما لا تبلغه أمانيكما ؟
فقالت: قد علم أمير المؤمنين ما
أوجب الله علي من حق مولاتي، وأريد أن أذكر هذا لها. قال: فأفعلي. قال: فأعلمت أبا
العتاهية. ومضت أيام فسألني معاودة المهدي؛ فقلت: قد عرفت الطريق، فقل ما شئت

حتى أغنيه به؛ فقال:

أشربت قلبي من رجائك ما له عنقٌ يخبّ إليك بي ورسيم
وأملت نحو سماء جودك ناظري أرعى مخايل برقها وأشيم
ولقد تنسّمت الرّياح لحاجتي فإذا لها من راحتيك نسيم
ولربما أستيأست ثم أقول لا إن الذي وعد النّجاح كريم

قال يزيد: فغنيته الشعر، فقال: علي بعتبة فجاءت؛ فقال: ما صنعت ؟ فقالت: ذكرت
ذلك لمولاتي فكرهته وأبت أن تفعل، فليفعل أمير المؤمنين ما يريد. قال: ما كنت لأفعل
شيئا تكرهه. فأعلمت أبا العتاهية بذلك، فقال:

قطّعت منك حبائل الآمال وأرحت من حلّ ومن ترحال
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي وبنات وعدك يعتلجن ببالي
ولئن طمعت لربّ برقة خلّبٍ مالت بذي طمع ولمعة آل

وقد حكى أبو الفرج أيضا هذه الحكاية وأختصرها، ولم يذكر الأبيات منها
أشربت قلبي من رجائك ما له
إلا أنه غير قوله: أشربت قلبي بقوله: أعلمت نفسي من رجائك.
وقال: فصنع فيه يزيد لحناً
وغناه المهدي. فدعا بأبي العتاهية وقال له: أما عتبة فلا سبيل إليها، لأن مولاتها قد
منعت منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فأشتر ببعضها خيراً من عتبة فحملت إليه،
فأخذها وأنصرف.

وحكى عن حماد بن إسحاق قال:
قال يزيد حوراء: كنت أجلس بالمدينة على أبواب قريش، وكانت تمر بي جاريةٌ تختلف إلى
الزرقاء تتعلم منها الغناء. فقلت لها يوما: افهمي قولي وردي جوابي وكوني عند ظني؛
فقالت: هات ما عندك. فقلت: بالله ما أسمك ؟ فقالت: ممنعة. فأطرقت طيرةً من أسمها
مع طمعي فيها، ثم قلت: بل باذلةٌ ومبذولةٌ إن شاء الله فأسمعي مني. فقالت وهي تتبسم:
إن كان عندك شيء فقل. فقلت:

ليهنك منّي أنّني لست مفشياً هواك إلى غيري ولو متّ من كربي
ولا مانحاً خلقاً سواك محبّةً ولا قائلاً ما عشت من حبكم حسبي

فنظرت إلي طويلا ثم قالت: أنشدك الله، أعن فرط محبة أم أهتياج غلمةٍ تكلمت ؟
فقلت: لا والله إلا عن فرط محبة. فقالت:

فوالله ربّ الناس لا خنتك الهوى ولا زلت مخصوص المحبّة من قلبي

فثق بي فإني قد وثقت ولا تكن على غير ما أظهرت لي يا أخا الحبّ
قال: فوالله لكأنما أضرمت في قلبي ناراً. فكانت تلقاني في الطريق الذي كانت تسلكه
فتحدثني فأتفرج بها؛ ثم أشتراها بعض أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبني وتلاطفني دهرا
طويلا.
أخبار فليح بن أبي العوراء
هو رجل من أهل مكة مولى لبني مخزوم، وهو أحد مغني الدولة العباسية؛ له محلٌ كبير من
صناعته، وهو أحد الثلاثة الذي أختاروا المائة الصوت للرشيد التي بنى أبو الفرج
الأصفهاني كتابه المترجم بالأغاني عليها. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ما سمعت
أحسن من غناء فليح وأبن جامع. وكان المهدي لا يغنيه مغن إلا من وراء الستارة إلا
فليح فإن الستارة كانت ترفع بينه وبين المهدي. وهو أول مغن نظر وجه المهدي.
وروى أبو الفرج الأصفهاني عن يوسف بن إبراهيم عن إبراهيم بن المهدي قال: كتب إلي
جعفر بن يحيى وأنا عامل الرشيد على جند دمشق: قد قدم علينا فليح بن أبي العوراء،
فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كل غناءٍ سمعناه قبله. وأنا محتال لك في تخليصه إليك
لتسمع منه كما أسمعنا. فلم ألبث أن ورد على فليحٌ بكتاب الرشيد يأمر له بثلاثة آلاف
دينار؛ فورد علي منه رجلٌ أذكرني لقاؤه الناس وأخبرني أنه قد ناهز المائة. فأقام عندي
ثلاث سنين، وأخذ جواري عنه كل ما كان معه من الغناء، وأنتشر بعض غنائه بدمشق.
وروى أيضا بسنده إلى أحمد بن يحيى المكي عن فليح بن أبي العوراء قال: كان بالمدينة
فتىً يعشق أبنة عم له، فوعدته أنها تزوره؛ وشكا إلي أنها تأتيه ولا شيء عنده؛ فأعطيته
دينارا للنفقة. فلما زارته قالت له: من يلهينا ؟ قال: صديقٌ لي، ووصفني لها؛ ودعاني
فأتيته؛ وكان أول ما غنيته:
من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا
فقامت إلى ثوبها فلبسته لتنصرف. فتعلق بها وجهد كل الجهد في أن تقيم فم تفعل
وأنصرفت. فأقبل يلومني في أن غنيتها ذلك الصوت. فقلت: والله ما هو شيءٌ أعتمدت به

مساءتك ولكنه شيء أتفق. قال: فلم نبرح حتى عاد رسولها ومعه صرة فيها ألف دينار،
فدفعها إلى الفتى وقال: تقول لك أبنة عمك: هذا مهري، فادفعه إلى أبي وأخطبني، ففعل
وتزوجها.
أخبار إبراهيم الموصلي
هو إبراهيم بن ماهان بن ميمون، وأصله من فارس، ومولده في سنة خمس وعشرين ومائة
بالكوفة، ووفاته ببغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة. قالوا: ومات ماهان وترك إبراهيم
صغيراً، فكفله آل خزيمة بن خازم، فكان ولاؤه لبني تميم. وكان السبب في نسبه إلى
الموصل أنه لما كبر وأشتد وأدرك صحب الفتيان وأشتهى الغناء وطلبه؛ فاشتد أخواله بنو
عبد الله بن دارم عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصل فأقام بها سنة؛ فلما
رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان: مرحباً بالفتى الموصلي، فغلب عليه ثم أرتحل
إلى الري في طلب الغناء، فطال مقامه هناك، وأخذ الغناء الفارسي والعربي.
قال إسحاق: حدثني أبي قال:
أول شيء أعطيته بالغناء أني كنت بالري أنادم أهلها بالسوية لا أرزؤهم شيئا ولا أنفق إلا
من بقية مال كان معي. فمر بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عماله برسالة، فسمعني
عند رجل من أهل الري فشغف بي وخلع علي دواج سمورٍ له قيمة، ومضى بالرسالة
فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكسوةٍ كثيرةٍ، فجاءني إلى منزلي الذي كنت
أسكنه، فأقام عندي ثلاثة أيام ووهب لي نصف الكسوة التي معه وألفي درهم. وكان ذلك
أول مالٍ كسبته من الغناء. فقلت: والله لا أنفق هذه الدراهم إلا على الصناعة التي
أفادتنيها. ووصف لي رجلٌ بالأبلة اسمه: جوانويه وكان حاذقا، فخرجت إليه، وصحبت
فتيانها وأخذت عنهم وغنيتهم فشغفوا بي.
قال إبراهيم: ولما أتيت جوانويه لم أصادفه في منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآني
أحتشمني وكان مجوسيا؛ فأخبرته بصناعتي والحال التي قصدته فيها؛ فرحب بي وأفرد لي
جناحاً في داره ووكل بي جاريةً، فقدمت لي ما أحتاج إليه. فلما كان العشاء عاد إلى

منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغني؛ فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا في شأنهم وضربوا
وغنوا؛ فلم أجد في غناء أحد منهم فائدة؛ وبلغت النوبة إلي فضربت وغنيت؛ فقاموا
جميعا إلي فقبلوا رأسي وقالوا: سخرت بنا، نحن إلى تعليمك إيانا أحوج منك إلينا.
فأقمت على تلك الحال أياما حتى بلغ محمد بن سليمان بن علي خبري، فوجه إلي
فأحضرني وأمرني بملازمته. فقلت: أيها الأمير، لست أتكسب بهذه الصناعة وإنما ألتذ
بالغناء فلذلك تعلمته، وأريد العود إلى الكوفة؛ فلم أنتفع بذلك عنده وأخذل بملازمته
وسألني: من أين أنا ؟ فأنتسبت إلى الموصل، فلزمتني وعرفت بها. ولم أزل عنده مكرماً،
حتى قدم عليه خادم المهدي. فلما رآني عنده قال له: أمير المؤمنين أحوج إلى هذا منك،
فدافعه عني. فلما قدم الخادم على المهدي سأله عما رأى في طريقه ومقصده، فأخبره بما
رأى، حتى أنتهى إلى ذكرى فوصفني له. فأمره المهدي بالرجوع وإشخاصي إليه، فجاء
وأشخصني إلى المهدي، وحظيت عنده وقدمني.
قال: وما سمع المهدي قبلي أحداً من المغنين سوى فليح بن أبي العوراء وسياط؛ فإن
الفضل بن الربيع وصفهما له.
قال: وكان المهدي لا يشرب، فأرادني على ملازمته وترك الشرب، فأبيت عليه. وكنت
أغيب عنه الأيام، فإذا جئته جئته منتشيا؛ فغاظه ذلك مني وضربني وحبسني؛ فحذقت
القراءة والكتابة في الحبس. ثم دعاني يوما فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذل
معهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما تعلمت هذه الصناعة للذتي وعشرة إخواني ولو أمكنني
تركها تركتها وجميع ما أنا فيه لله تعالى. فغضب غضباً شديدا وقال: لا تدخل على موسى
وهارون، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن وأصنعن. فقلت نعم. ثم بلغه أني دخلت
عليهما وشربت معهما وكانا مشتهرين بالنبيذ، فضربني ثلاثمائة سوط وستين سوطا. فقلت
له وأنا أضرب: إن جرمي ليس من الأجرام التي يحل بها سفك دمي، ووالله لو كان سر
أبنيك تحت قدمي ما رفعتهما عنه ولو قطعتا، ولو فعلت ذلك كنت في حالة أبان العبد

الساعي. فلما قلت ذلك ضربني بالسيف في جفنه فشجني، فسقطت مغشياً علي. وقال
لعبد الله أبن مالك: خذه إليك وأجعله في مثل القبر. فدعا عبد الله بكبش فذبحه وسلخه
وألبسني جلده ليسكن الضرب عني، ودفعني إلى خادم له يقال له أبو عثمان سعيد التركي،
فجعلني في قبر ووكل بي جارية. فتأذيت بنز كان في القبر وبقٍ. فقلت للجارية: أصلحي لي
مجمرةً وكندرا ليذهب عني هذا البق ففعلت. فلما دخنت أظلم القبر وكادت نفسي
تذهب، ثم خف ذلك وزال البق، وإذا حيتان مقبلتان نحوي من شق في القبر تدوران
حولي، فهممت أن آخذ واحدةً بيدي اليمنى والأخرى بيدي اليسرى، فإما علي وإما لي،
ثم كفيتهما، فدخلتا في الثقب الذي خرجتا منه. فمكثت في ذلك القبر ما شاء الله، ثم
أخرجت منه. وأحلفني المهدي بالطلاق والعتاق وكل يمينٍ لا فسحة لي فيها ألا أدخل على
أبنيه موسى وهارون أبدا ولا أغنيهما، وخلى سبيلي. قال إبراهيم: وقلت وأنا في
الحبس:

ألا طال ليلي أراعي النجوم أعالج في السّاق كبلاً ثقيلا
بدار الهوان وشرّ الديار اسام بها الخسف صبراً جميلا
كثير الأخلاّء عند الرخاء فلما حبست أراهم قليلا
لطول بلائي ملّ الصديق فلا يأمنّ خليلٌ خليلا

قال: فلما ولي موسى الهادي الخلافة أستتر إبراهيم منه ولم يظهر له بسبب الأيمان التي
حلف بها للمهدي. فلم يزل يطلبه حتى أتي به فلما عاينه قال: يا سيدي، فارقت أم ولدي
أعز الخلق علي؛ ثم غناه:

يا أبن خير الملوك لا تتركنّ غرضاً للعدو يرمى حيالي
فلقد في هواك فارقت أهلي ثم عرّضت مهجتي للزوال
ولقد عفت في هواك حياتي وتغرّبت بين أهلي ومالي

قال إسحاق بن إبراهيم: فموله الهادي وخوله؛ وبحسبك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين
ألف دينار في يوم واحد، ولو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة.
قال حماد بن إسحاق قال لي أبي:
والله ما رأيت أكمل مروءةً من جدك، وكان له طعام يعد أبداً في كل وقت. فقلت لأبي:
كيف كان يمكنه ذلك ؟ قال: كان له في كل يوم ثلاث شياهٍ، واحدةٌ مقطعة في القدور،

وأخرى مسلوخةٌ معلقة، وأخرى قائمة في المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طعموا مما في القدور، فإذا
فرغت القدور قطعت الشاة المعلقة ووضعت في القدور وذبحت القائمة وأتى بأخرى
فأقيمت في المطبخ. وكانت وظيفته لطعامه وطيبه وما يتخذ له في كل شهر ثلاثين ألف
درهم سوى ما كان يجري وسوى كسوته. ولقد كان مرةً عندنا من الجواري الودائع لإخوانه
ثمانون جارية، ما فيهن واحدة إلا ويجري عليها من الطعام والكسوة والطيب مثل ما يجري
لأخص جواريه، فإذا ردت الواحدة إلى مولاها وصلها وكساها. ومات وما في ملكه إلا
ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدين سبعمائة دينار قضيت منها.
وروى عن إسحاق بن إبراهيم قال:
اشترى الرشيد من أبي جاريةً بستة وثلاثين ألف دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل إلى
الفضل بن الربيع وقال له: إنا أشترينا هذه الجارية من إبراهيم ونحن نحسب أنها على صفةٍ
وليست كما ظننا وما قربتها، وقد ثقل علي الثمن وبينك وبينه ما بينكما؛ فأذهب إليه
فسله أن يحطنا من ثمنها ستة آلاف دينار. قال: فأتاه الفضل، فخرج إليه وتلقاه؛ فقال له:
دعني من هذه الكرامة التي لامؤنة فيها، قد جئتك في أمر، ثم أخبره الخبر. فقال له إبراهيم:
إنما أراد أن يبلو قدرك عندي. قال: هو ذاك ؟ قال: فمالي في المساكين صدقةٌ إن لم
أضعفه لك، قد حططتك أثني عشر ألف دينار. فرجع الفضل إليه بالخبر؛ فقال: ويحك !
احمل إليه المال بجملته، فما رأيت سوقةً أنبل منه نفسا. قال إسحاق: وكنت قد أتيت أبي
فقلت: ما كان لحطيطة هذا المال معنىً ولا هو قليل يتغافل عنه، قال لي: يا أحمق، أنا
أعرف الناس به، والله لو أخذت المال منه كملاً ما أخذته إلا وهو كاره ولحقد ذلك، وكنت
أكون عنده صغير القدر، وقد مننت عليه وعلى الفضل وأنبسطت نفسه وعظم قدري
عنده، وإنما أشتريت الجارية بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف
دينار. فلما حمل إليه المال بكماله دعاني وقال: كيف رأيت يا إسحاق، من البصير أنا أم
أنت ؟ فقلت: أنت، جعلني الله فداك. قال: وإبراهيم أول من علم الجواري المثمنات

الغناء فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ورفع من أقدارهن.
ومن أخباره مع الرشيد ما روى عن إسحاق قال حدثني أبي قال:
إن الرشيد غضب علي فقيدني وحبسني بالرقة وجلس للشرب يوما في مجلس قد زينه
وحسنه. فقال لعيسى بن جعفر: هل لمجلسنا عيبٌ ؟ قال: نعم، غيبة إبراهيم الموصلي
عنه. فأمره باحضاري؛ فأحضرت في قيودي، ففكت عني بين يديه، وأمرهم فناولوني
عودا؛ ثم قال: إن يا إبراهيم؛ فغنيته:

تضوّع مسكاً بطن نعمان أن مشت به زينبٌ في نسوةٍ عطرات

فاستعاده وشرب وطرب وقال: هنأتني وسأهنئك بالصلة، وقد وهبت لك الهنئ والمرئ،
فانصرفت؛ فلما أصبحت عوضت منهما مائتي ألف درهم.
قال إبراهيم: دخلت على موسى الهادي فقال لي: يا إبراهيم، إن من الغناء ما ألذ وأطرق
عليه ولك حكمك. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لم يقابلني زحل ببرده رجوت ذلك؛ فغنيته:

وإني لتعروني لذكراك هزة كما أنتفض العصفور بلّله القطر

فضرب بيده إلى جيب دراعته فحطه ذراعا؛ ثم قال: أحسنت والله زدني؛ فغنيت:

فيها حبّها زدني جوىً كلّ ليلةٍ ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

فضرب بيده إلى دراعته فحطها ذراعا آخر وقال: زدني ويلك ! أحسنت والله ووجب
حكمك؛ فغنيت:

هجرتك حتى قيل ما يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فرفع صوته وقال: أحسنت والله ! لله أبوك ! هات ما تريد.
فقلت: يا سيدي عين
مروان بالمدينة. فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان وقال: يا أبن اللخناء !
أردت أن تشهرني بهذا المجلس فيقول الناس: أطربه فحكم عليه فتجعلني سمراً وحديثا !
يا إبراهيم الحراني، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن أخذ كل ما فيه
فحله وإياه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهذا الشعر لأبي صخر الهذلي، وأوله:

عجبت لسعي الدّهر بيني وبينها فلما أنقضى ما بيننا سكن الدّهر

فيا حبّها زدني جوىً كلّ ليلةٍ ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

ويا هجر ليلى قد بلغت بي المدى وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
وإني لتعروني لذكراك هزّةٌ كما أنتفض العصفور بلّله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
أما والذي ابكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذّعر

نبذة من أخباره مع البرامكة

كان لإبراهيم الموصلي مع البرامكة أخبار مستحسنة، سنورد منها طرفا. منها ما حكى
عن مخارق قال:
أذن لنا أمير المؤمنين الرشيد أن نقيم في منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحرم.
فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم وقد أصحبت السماء متغيمةً تطش طشيشا خفيفا.
فقلت: والله لأذهبن إلى أستاذي إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، وأمرت من عندي أن
يسووا لنا مجلسا إلى وقت رجوعي. فجئت إلى إبراهيم، فدخلت إليه، فإذا هو جالس في
رواق له والستارة منصوبةٌ والجواري خلفها؛ فدخلت أترنم ببعض الأصوات وقلت له: ما
بال الستارة لست أسمع من ورائها صوتا ؟ فقال: اقعد ويحك ! غني أصبحت فجاءني
خبر ضيعةٍ تجاورني قد والله طلبتها زماناً وتمنيتها ولم أملكها، وقد أعطي بها مائة الف
درهم. فقلت له: ما يمنعك منها ؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال وأكثر. قال:
صدقت، ولكن لست أطيب نفسا بأن أخرج هذا المال. فقلت: فمن يعطيك الساعة مائة
ألف درهم ؟ قال: والله ما أطمع في ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه ! ثم قال: اجلس،
خذ هذا الصوت. ثم نقر بقضيب على الدواة وألقي علي هذا الصوت:
نام الخليّون من همٍّ ومن سقمٍ وبتّ من كثرة الأحزان لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهداً اعمد ليحيى حليف الجود والكرم
قال: فأخذت الصوت وأحكمته. ثم قال لي: أنصرف إلى الوزير يحيى بن خالد فإنك تجد
الناس على بابه قبل أن يفتح الباب، ثم تجد الباب قد فتح ولم يجلس بعد، فاستأذن عليه

قبل أن يصل إليه أحدٌ، فإنه ينكر مجيئك ويقول: من أين أقبلت في هذا الوقت ؟ فحدثه
بقصدك إياي وما ألقيت إليك من خبر الضيعة وأعلمه أني قد صنعت هذا الصوت
وأعجبني ولم أر أحداً يستحقه إلا جاريته فلانة، وأني ألقيته عليك حتى أحكمته لتطرحه
عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتنصب ويوضع لها كرسي ويقول لك: اطرحه عليها
بحضرتي؛ فأفعل وأتني بما يكون بعد ذلك من الخبر. قال مخارق: فجئت إلى باب يحيى بن
خالد فوجدته كما وصف. وسألني فأعلمته بما أمرني به؛ ففعل كل شيء قاله لي إبراهيم
وأحضر الجارية فألقيته عليها. ثم قال لي: تقيم عندنا يا أبا المهنأ أو تنصرف ؟ فقلت: بل
أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمت ما أذن لنا فيه. فقال يا غلام، احمل مع أبي المهنأ
عشرة آلاف درهم واحمل إلى أبي إسحاق مائة ألف درهم ثمن هذه الضيعة. فحملت
عشرة الآلاف معي، وأتيت منزلي وقلت: أسر يومي هذا وأسر من عندي. ومضى
الرسول بالمال إلى إبراهيم؛ فدخلت منزلي ونثرت على من عندي دراهم من تلك البدرة
وتوسدتها وأكلت وشربت وطربت وسررت يومي كله. فلما أصبحت قلت: والله لآتين
أستاذي ولأعرفن خبره؛ فأتيته فوجدته كهيئته بالأمس ملى مثل ما كان عليه، فترنمت
وطربت فلم يتلق ذلك بما يجب؛ فقلت: ما الخبر ؟ ألم يأتك المال بالأمس ؟! فقال: بلى،
فما كان خبرك أمس ؟ فأخبرته بما كان وقلت: ما تنتظر ؟ فقال: ارفع السجف، فرفعته
فإذا عشر بدر؛ فقلت: فأي شيء بقي عليك في أمر الضيعة ؟ فقال: ويحك ! ما هو
والله إلا أن دخلت منزلي حتى شححت عليها وصارت مثل ما حويت قديما. فقلت:
سبحان الله ! فتصنع ماذا ؟ قال: قم حتى ألقي عليك صوتا صنعته يفوق ذاك. فقمت
فجلست بين يديه؛ فألقي علي:

ويفرح بالمولود من آل برمكٍ بغاة النّدى، والسيف والرمح والنصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان والده الفضل

قال مخارق: فلما ألقى علي الصوت سمعت ما لم أسمع مثله قط وصغر في عيني الأول،

فأحكمته. ثم قال: امض الساعة إلى الفضل بن يحيى، فغنك تجده لم يأذن لأحد بعد وهو
يريد الخلوة مع جواريه اليوم؛ فأستأذن عليه وحدثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه
أني صنعت هذا الصوت وكان عندي أرفع منزلةً من الصوت الأول الذي صنعته بالأمس،
وأني ألقيته عليك حتى أحكمته ووجهت بك قاصداً لتلقيه على فلانة جاريته. فصرت إلى
باب الفضل فوجدت الأمر على ما ذكر، فاستأذنت فوصلت إليه؛ وسألني عن الخبر،
فأعلمته بخبري وما وصل إلي وإليه من المال؛ فقال: أخزى الله إبراهيم ! ما أبخله على
نفسه ! ثم دعا خادما فقال له: اضرب الستارة، فضربها؛ فقال لي: ألقه. فلما ألقيته وغنته
الجارية لم أتمه حتى أقبل يجر مطرفه، ثم قعد على وسادة دون الستارة وقال: أحسن والله
أستاذك وأحسنت أنت يا مخارق. ولم أبرح حتى أحكمته الجارية؛ فسر بذلك سرورا
عظيما وقال: أقم عندي اليوم. فقلت: يا سيدي إنما بقي لنا يوم واحد، ولولا أنني أحب
سرورك لم أخرج من منزلي. فقال: يا غلام، احمل مع أبي المهنأ عشرين ألف درهم وإلى أبي
إسحاق مائتي ألف درهم. فانصرفت إلى منزلي بالمال، وفتحت بدرةً ونثرت منها على
الجواري وشربت وسررت أنا ومن عندي يومنا. فلما أصبحت بكرت إلى إبراهيم أتعرف
خبره وأعرفه خبري، فوجدته على الحال التي كان عليها أولا وآخرا؛ فدخلت أترنم
وأصفق. فقال لي: أدن؛ فقلت: ما بقي عليك ؟ فقال: اجلس وأرفع سجف هذا الباب؛
فرفعته فإذا عشرون بدرةً مع تلك العشر. فقلت: ما تنتظر الآن ؟ فقال: ويحك ! ما هو
إلا أن حصلت حتى جرت مجرى ما تقدم. فقلت: والله ما أظن أحداً نال من هذه الدولة
ما نلت ! فلم تبخل على نفسك بشيء تمنيته دهراً وقد ملكك الله أضعافه ! ثم قال:
اجلس فخذ هذا الصوت. فألقي علي صوتا أنساني صوتي الأولين وهو:

أفي كلّ يومٍ أنت صبٌّ وليلةٍ إلى أمّ بكرٍ لا تفيق فتقصر
أحبّ على الهجران أكناف بيتها فيالك من بيت يحبّ ويهجر
إلى جعر سارت بنا كلّ جسرةٍ طواها سراها نحوه والتهجّر
إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياه عليهم وتبكر

وهو شعر مروان بن أبي حفصة يمدح جعفر بن يحيى قال مخارق: ثم قال لي إبراهيم: هل
سمعت مثل هذا قط ؟ فقلت: ما سمعت قط مثله ! فلم يزل يردده علي حتى أخذته، ثم
قال لي: امض إلى جعفر فافعل به كما فعلت بأبيه وأخيه. قال: فمضيت ففعلت مثل ذلك
وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛ فسر به ودعا خادماً فأمره أن يضرب الستارة،
وأحضر الجارية وقعد على كرسي؛ ثم قال: هات يا مخارق؛ فألقيت الصوت عليها حتى
أخذته؛ فقال: أحسنت يا مخارق وأحسن أستاذك، فهل لك في المقام عندنا اليوم ؟ فقلت:
يا سيدي، هذا آخر أيامنا، وإنما جئت لموقع الصوت مني حتى ألقيته على الجارية. فقال:
يا غلام، احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلي ثلثمائة ألف درهم. فصرت إلى منزلي
بالمال وأقمت ومن عندي مسرورين نشرب طول يومنا ونطرب. ثم بكرت إلى إبراهيم
فتلقاني قائما، ثم قال لي: أحسنت يا مخارق ! فقلت: ما الخبر ؟ قال: اجلس فجلست؛
فقال لمن خلف الستارة: خذوا فيما أنتم عليه ثم رفع السجف فإذا المال. فقلت ما خبر
الضيعة ؟ أدخل يده تحت مسورة وهو متكئ عليها فقال: هذا صك الضيعة اشتراها
يحيى بن خالد وكتب إلي: قد علمت أنك لا تسخو نفسك بشراء هذه الضيعة من مال
يحصل لك ولو حويت الدنيا كلها، وقد أبتعتها من مالي. ووجه إلي بصكها، وهذا المال كما
ترى، ثم بكى وقال: يا مخارق، إذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء، وإذا خنكرت فخنكر لمثل
هؤلاء، ستمائة الف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حصلنا ذلك أجمع وأنا
جالس في مجلسي لم أبرح منه، متى يدرك مثل هؤلاء !.
وروى عنه قال: أتيت الفضل بن يحيى يوما فقلت له: يا أبا العباس، جعلت فداك ! هب
لي دراهم فإن الخليفة قد حبس بره. فقال: ويحك يا أبا إسحاق ما عندي ما أرضاه لك.
ثم قال: هاه ! إلا أن ها هنا خصلةً، أتانا رسول صاحب اليمن فقضينا حوائجه، ووجه
إلينا بخمسين ألف دينار يشتري لنا بها محبتنا. فما فعلت ضياء جاريتك ؟ قلت: عندي

جعلت فداك. قال: فهو ذا، أقول لهم يشترونها منك فلا تنقصها من خمسين ألف دينار؛
فقبلت رأسه ثم أنصرفت. فبكر علي رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولي، فقال:
جاريتك فلانة عندك ؟ قلت: عندي. قال: أعرضها علي فعرضتها عليه؛ فقال: بكم ؟
فقلت: بخمسين ألف دينار ولا أنقص منها دينارا واحدا، وقد أعطاني الفضل بن يحيى
أمس هذه العطية، فقال: هل لك في ثلاثين ألف دينار مسلمة ؟ وكان مشتري الجارية
أربعمائة دينار، فلما وقع في أذني ذكر ثلاثين ألف دينار أريج علي ولحقني زمعٌ، وأشار علي
صديقي الذي معه بالبيع، وخفت والله أن يحدث بالجارية حدثٌ أو بي أو بالفضل بن
يحيى، فسلمتها وأخذت المال. ثم بكرت على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده. فلما نظر
إلي ضحك وقال لي: يا ضيق العطن والحوصلة، حرمت نفسك عشرين ألف دينار. فقلت
له: جعلت فداك، دع ذا عنك، فوالله لقد دخلني شيء أعجز عن وصفه وخفت أن
تحدث بي حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشتري أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرت بقبول
الثلاثين ألف دينار. فقال: لا ضير، يا غلام جيء بجاريته، فجيء بها، فقال: خذ بيدها
وأنصرف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلا منفعتك ولم نرد الجارية. فلما نهضت قال لي:
مكانك، إن رسول صاحب أرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونفذنا كتبه، وقد ذكر أنه
قد جاء بثلاثين ألف دينار يشتري لنا بها ما نحب، فاعرض عليه جاريتك هذه ولا تنقصها
من ثلاثين ألف دينار؛ فأنصرفت بالجارية. وبكر علي رسول صاحب أرمينية ومعه صديقٌ
لي آخر، فقاولني بالجارية؛ فقلت: لن أنقصها من ثلاثين ألف دينار. فقال لي: معي عشرون
ألف دينار مسلمة خذها بارك الله لك فيها. فدخلني والله مثل الذي دخلني في المرة الأولى
وخفت مثل خوفي الأول، فسلمته وأخذت المال. وبكرت على الفضل، فإذا هو وحده.
فلما رآني ضحك وضرب برجله ثم قال: ويحك، حرمت نفسك عشرة آلاف دينار.
فقلت: أصلحك الله، خفت والله مثل ما خفت في المرة الأولى.
فقال: لا ضير، أخرج يا

غلام جاريته فجيء بها؛ فقال: خذها، ما أردناها وما أردنا إلا منفعتك. فلما ولت الجارية
صحت بها: ارجعي فرجعت؛ فقلت: أشهدك جعلت فداك هي حرة لوجه الله تعالى،
وإني قد تزوجتها على عشرة آلاف درهم، كسبت لي في يومين خمسين ألف دينار فما
جزاؤها إلا هذا. فقال: وفقت إن شاء الله تعالى.
وأخباره مع البرامكة كثيرةٌ وصلاتهم له وافرةٌ. وقد ذكرنا منها ما فيه غنيةٌ عن زيادة.
فلنذكر وفاة إبراهيم. كانت وفاته ببغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة، ومات في يوم وفاته
العباس بن الأحنف الشاعر، وهشيمة الخمارة؛ فرفع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمون أن
يصلي عليهم، فخرج وصلى عليهم.
قال إسحاق: لما مرض إبراهيم مرض موته ركب الرشيد حمارا ودخل على إبراهيم يعوده
وهو جالس في الأبزن، فقال له: كيف انت يا إبراهيم ؟ فقال: أنا والله يا سيدي كما قال
الشاعر:

سقيمٌ ملّ منه أقربوه وأسلمه المدواي والحميم

فقال الرشيد: إنا لله ! فما بعد حتى سمع الواعية عليه.
صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع في أحد الأصلين الفتوغرافيين:
هذا آخر الجزء الرابع من نهاية الأرب في فنون الأدب. والحمد لله وحده، وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.
صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع في الأصل الآخر الفتوغرافي:
كمل الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد
بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي المعروف بالنويري عفا الله
عنهم.
أخبار إسحاق بن إبراهيم
هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقد تقدم نسبه في أخبار أبيه. وكان الرشيد
يولع به فيكنيه أبا صفوان. قال أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة إسحاق: وموضعه من العلم،
ومكانه من الأدب، ومحله من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من
أن يدل عليها بوصفٍ. قال: فأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان
الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراءً وأكفاءً ولم يكن له في

هذا نظير. لحق بمن مضى فيه وسبق من قد بقى، وسهل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام
أهل صناعته جميعاً وقدوتهم ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد له
به الموافق والمفارق. على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بغضاً له لئلا يدعى إليه
ويسمى به. وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء
لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانةً من هؤلاء القضاة.
وقد روى الحديث ولقي أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عينينة وهشيم بن بشير
وإبراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير وروح ابن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق
والحجاز. وكان مع كراهته للغناء أضن خلق الله به وأشدهم بخلاً على كل أحدٍ حتى
على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسباً إليه ومتعصباً له فضلاً عن غيرهم. قال:
وهو صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزها تمييزاً لم يقدر عليه أحدٌ قبله.
وقال محمد بن عمران الجرجاني: كان والله إسحاق غرةً في زمانه، وواحداً في عصره علماً
وفهماً وأدباً ووقاراً وجودة رأي وصحة مودة. وكان الله يخرس الناطق إذا نطق، ويحير
السامع إذا تحدث، لا يمل جليسه مجلسه، ولا تمج الآذان حديثه، ولا تنبو النفس عن
مطاولته. إن حدثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غناك أطربك. وما كانت خصلةٌ من
الأدب، ولا جنسٌ من العلم يتكلم فيه إسحاقٌ فيقدم أحدٌ على مساجلته أو مناوأته فيه.
حكى أبو الفرج عن إسحاق قال: دعاني المأمون وعنده إبراهيم بن المهدي وفي مجلسه
عشرون جاريةً قد أجلس عشراً عنة يمينه وعشراً عن شماله. فلما دخلت سمعت من
الناحية اليسرى خطأً فأنكرته. فقال المأمون أسمعت خطأً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين.
فقال لإبراهيم بن المهدي: هل تسمع خطأ؟ قال: لا. قال: فأعاد علي السؤال، فقلت بلى
والله يا أمير المؤمنين، وإنه لفي الجانب الأيسر. فأعاد إبراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى ثم
قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ. فقلت يا أمير المؤمنين، مر الجواري

اللاتي على اليمين يمسكن، فأمرهن فأمسكن، ثم قلت لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فتسمع
ثم قال: ما هاهنا خطأ. فقلت يا أمير المؤمنين، يمسكن وتضرب الثانية، فأمسكن
وضربت الثانية، فعرف إبراهيم الخطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هاهنا خطأ. فقال
المأمون عند ذلك لإبراهيم بن المهدي: لا تمار إسحاق بعدها، فإن رجلاً عرف الخطأ بين
ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجديرٌ ألا تماريه، قال: صدقت.
وقال ابن حمدون: سمعت الواثق يقول: ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في
ملكي، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سريج إلا ظننته أن ابن سريج قد نشر، وإني
ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضراً، فيتقدمه عندي بطيب الصوت، حتى إذا اجتمعا
عندي رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننت أنه يتقدمه ينقص.
وإن إسحاق لنعمةٌ من نعم
الملوك لم يحظ أحدٌ بمثلها. ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر
ملكي.
وحكى عن أحمد بن المكي عن أبيه قال: كان المغنون يجتمعون مع إسحاق وكلهم
أحسن صوتاً منه ولم يكن فيه عيبٌ إلا صوته فيطمعون فيه، ولا يزال بلطفه وحذقه
ومعرفته حتى يغلبهم جميعاً ويفضلهم ويتقدم عليهم. قال: وهو أول من أحدث المجتث
ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجباً من العجب، وكلن في حلقه نبؤ عن الوتر.
وحكى قال: سأل إسحاق الموصلي المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة
لا مع المغنين، فإذا أراد الغناء غناه، فأجابه إلى ذلك. ثم سأله بعد مدةٍ طويلةٍ أن يأخذ له
في الدخول مع الفقهاء فأذن له، قال: فكان يدخل ويده في يد قاضي القضاة يحيى بن أكثم.
ثم سأل إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المقصورة، قال: فضحك
المأمون وقال: ولا كل هذا يا إسحاق! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف دينارٍ وأمر
له بها.
وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهدي مخاطباتٌ ومنازعاتٌ ومحاوراتٌ بسبب الغناء، وكان

الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه. من ذلك ما حكاه إسحاق قال: كنت عند
الرشيد يوماً، وعنده ندماؤه وخاصته وفيهم إبراهيم بن المهدي، فقال لي الرشيد: غن:
شربت مدامةً وسقيت أخرى وراح المنتشون وما انتشيت
فغنيته. فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي: ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت.
فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه، وإن شئت فغنه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذ
ابتدائك إلى انتهائك فدمي حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه
صناعتي وصناعة أبي، وهي التي قربتنا منك واستخدمتنا لك فأوطأتنا بساطك، فإذا
نازعنا أحدٌ بغير علمٍ لم نجد بداً من الإفصاح والذب، فقال: لا غرور ولا لوم عليك. وقام
الرشيد ليبول، فأقبل إبراهيم بن المهدي علي وقال: ويحك يا إسحاق! أتجترئ على وتقول
لي ما قلت يا ابن الفاعلة! لا يكنى. فداخلني ما لم أملك نفسي معه، فقلت له: أنت
تشتمني ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك: يا ابن
الزانية كما قلت لي يا ابن الزانية. أو تراني كنت لا أحسن أن أقول: يا ابن الزانية! ولكن
قولي في ذمك ينصرف كله إلى خالك الأعلم، ولولاك لذكرت صناعته ومذهبه - قال
إسحاق: وكان بيطاراً - قال: ثم سكت، وعلمت أن إبراهيم سوف يشكوني إلى الرشيد،
وسوف يسأل من حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيت ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة
تصير إليك، فلا تزال تتهددني بذلك وتعاديني كما تعادي سائر أولياء أخيك حسداً له
ولولده على الأمر! وأنت تضعف عنه وعنهم، وتستخف بأوليائهم تشفياً، وأرجو ألا
يخرجها الله من الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها. فإن صارت إليك - والعياذ بالله تعالى
من ذلك - فحرامٌ علي حينئذٍ العيش! والموت أطيب من الحياة معك، فاصنع حينئذٍ ما
بدا لك! قال: فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، شتمني
إسحاق وذكر أمي واستخف بي. فغضب وقال لي: ويلك! ما تقول؟ قلت: لا أعلم، فسل

من حضر. فأقبل على مسرورٍ وحسين فسألهما عن القصة فجعلا يخبرانه ووجهه يربد إلى
أن انتهيا إلى ذكر الخلافة فسرى عنه ورجع لونه، وقال لإبراهيم: لا ذنب له، شتمته فعرفك
أنه لا يقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك وأمسك عن هذا. فلما انفض المجلس
وانصرف الناس أمر الرشيد بألا أبرح. وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيري، فساء ظني
وهمتني نفسي. فأقبل علي وقال: يا إسحاق، أتراني لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنيته
ثلاث مرات! أتراني لا أعرف وقائعك وأقدامك وأين ذهبت! ويلك لا تعد! حدثني عنك
لو ضربك إبراهيم أكنت أقتص لك منه فأضربه وهو أخي يا جاهل! أتراه لو أمر غلمانه
فقتلوك أكنت أقتله بك! فقلت: والله يا أمير المؤمنين، قد قتلني هذا الكلام، وإن بلغه
ليقتلني، وما أشك أنه قد بلغه الآن. فصاح بمسرورٍ وقال له: علي بإبراهيم فأحضر، وقال
لي: قم فانصرف. فقلت لجماعة من الخدم - وكلهم كان لي محباً وإلي مائلاً ولي مطيعاً - :
أخبروني بما يجري، فأخبروني من غد أنه لما دخل عليه وبخه وجهله وقال له: أتستحف
بخادمي وصنيعتي وابن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي في مجلسي! وتقدم علي وتستخف
بمجلسي وحضرتي! هاه هاه هاه! وتقدم على هذا وأمثاله! وأنت مالك وللغناء! وما
يدريك ما هو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذي
غذي به وعلمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه، ويدعوك إلى إقامة
الحجة عليه فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه!هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل
وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك، وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك، ثم إظهارك
إياه ولم تحكمه، وادعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن
هذا سوء أدبٍ وقلة معرفةٍ وقلة مبالاةٍ بالخطأ والتكذيب والرد القبيح! ثم قال: والله
العظيم وحق رسوله وإلا فأنا بريءٌ من المهدي إن أصابه أحدٌ بسوءٍ أو أسقط عليه حجرٌ
من السماء أو سقط من دابته أو أسقط عليه سقفه أو مات فجأةً لأقتلنك به. والله!

والله! والله! فلا تعرض له وأنت أعلم! قم الآن فاخرج، فخرج وقد كاد يموت. فلما كان
بعد ذلك دخلت على الرشيد وإبراهيم عنده فأعرضت عن إبراهيم فجعل ينظر إلي مرةً
وإليه مرةً ويضحك، ثم قال: إني لأعلم محبتك لإسحاق وميلك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن
هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لا يكون بمكروهٍ، ولكن
أحسن إليه وأكرمه واعرف حقه وبره وصله، فإذا فعلت ذلك ثم خالف ما تهواه عاقبته
بيدٍ مستطيلةٍ منبسطةٍ ولسانٍ منطلق. ثم قال لي: قم إلى مولاك وابن مولاك فقبل رأسه،
فقمت إليه وقام إلي وأصلح الرشيد بيننا.
قال أبو الفرج: وكان إسحاق جيد الشعر، كان يقول الشعر وينسبه للعرب. فمن ذلك قوله:

لفظ الخدور إليك حوراً عيناً أنسين ما جمع الكناس قطينا
فإذا بسمن فعن كمثل غمامةٍ أو أقحوان الرمل بات معيناٍ
وأصح ما رأت العيون محاجراً ولهن أمراض ما رأيت بات عيونا
فكأنما تلك الوجوه أهلةٌ أقمرن بين العشر والعشرينا
وكأنهن إذا نهضن لحاجةٍ ينهضن بالعقدات من يبرينا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة.
روي عن الأصمعي قال: دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوماً على الرشيد
فرأيناه لقس النفس، فأنشده إسحاق:

وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيءٌ ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى بخيلاً له حتى الممات خليل
وإني رأيت البخل يزرى بأهله فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات التي لو علمته إذا نال خيراً أن يكون ينيل
فعالي فعال المكثرين تجملاً ومالي كما تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل!

قال: فقال الرشيد: لا تخف إن شاء الله، ثم قال: لله در أبياتٍ تأتين بها ما أشد أصولها،
وأحسن فصولها، وأقل فضولها! وأمر له بخمسين ألف درهم.
فقال له إسحاق: وصفك
والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه، فعلام آخذ الجائزة!
فضحك الرشيد وقال:
اجعلوها مائة ألف درهم. قال الأصمعي: فعلمت يومئذٍ أن إسحاق أحذق بصيد الدراهم
مني.

قال أبو العبد بن حمدون: سأل المتوكل عن إسحاق، فعرف أنه كف وأنه بمنزله ببغداد،
فكتب في إحضاره. فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة وقال:
بلغني أن المعتصم دفع إليك في أول يومٍ جلست بين يديه مخدةً، وقال: إنه لا يستجلب ما عند
حرٍ مثل إكرامه. ثم سأله: هل أكل؟ فقال نعم، فأمر أن يسقى. فلما شرب أقداحاً قال:
هاتوا لأبي محمد عوداً، فجيء به فاندفع يغني بشعره:
ما علة الشيخ عيناه بأربعةٍ تغرورقان بدمعٍ ثم ينسكب
قال ابن حمدون: فما بقي غلامٌ من الغلامان الوقوف على الحير إلا وجدته يرقص طرباً وهو
لا يعلم بما يفعل، فأمر له بمائة ألف دينار. ثم انحدر المتوكل إلى الرقة وكان يستطيبها لكثرة
تغريد الطير فيها، فغناه إسحاق:
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنٍن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي والوليد ولم تزل جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي
فضحك المتوكل ثم قال: يا إسحاق، هذه أخت فعلتك بالواثق لما غنيته بالصالحية:
طربت إلى أصيبيةٍ صغار وذكرني الهوى قرب المزار
فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف؟ قال: مائة ألف دينار، فأمر له بمائة ألف دينار وأذن
له بالانصراف. وكان آخر عهده بإسحاق. توفي بعد ذلك بشهرين. وكانت وفاته في شهر
رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين. وكان يسأل الله تعالى ألا يبتليه بالقولنج لما رأى من
صعوبته على أبيه، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له: قد أجيبت دعوتك ولست تموت
بالقولنج ولكنك تموت بضده، فأصابه ذرب في شهر رمضان، فكان يتصدق في كل يومٍ بمكنه
صومه بمائة درهم، ثم ضعف عن الصوم فلم يطقه ومات في الشهر. ولما نعي إلى المتوكل
غمه وحزن عليه وقال: ذهب صدرٌ عظيمٌ من جمال الملك وبهائه وزينته. رحمه الله
تعالى.

أخبار علويه

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف. وجده سيف من الصغد الذين سابهم الوليد
بن عثمان بن عفان واسترق منهم جماعةً اختصهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يعتق الباقين

فقتلوه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان عليٌ هذا مغنياً حاذقاً، ومؤدباً محسناً، وصانعاً
متقناً، وضارباً متقدماً، مع خفة روحٍ وطيب مجالسةٍ وملاحة نوادر. وكان إبراهيم
الموصلي علمه وخرجه وعني بتحذيقه جداً، فبرع وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل
ومات بعد إسحاق الموصلي بيسير. وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جربٌ، فشكاه إلى
يحيى بن ماسويه، فبعث إليه بدواءٍ مسهلٍ وطلاء، فشرب الطلاء وأطلى بالدواء، فقتله
ذلك. قال: وكان علويه أعسر، فكان عوده مقلوب الأوتار: ألبم أسفل الأوتار كلها ثم
المثلث فوقه ثم المثنى ثم الزير، فكان عوده إذا كان في يد غيره يكون مقلوباً، وإذا أخذه
كان في يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستوياً. وكان إسحاق يتعصب له في أكثر
أوقاته على مخارق. وقال حماد ابن إسحاق: قلت لأبي: أيما أفضل عندك مخارق أم
علويه؟ فقال: يا بني، علويه أعرقهما فهماً بما يخرج من رأسه، وأعلمها بما يغنيه ويؤديه، ولو
خيرت بينهما من يطارح جواري، أو شاورني من يستنصحني لما أشرت إلا بعلويه، لأنه
يؤدي الغناء، وإذا صنع شيئاً صنه صنعةً محكمةً، ومخارق لتمكنه من حلقه وكثرة نغمه لا
يقنع بالأخذ منه، لأنه لا يؤدي صوتاً واحداً كما أخذه ولا يغنيه مرتين غناءً واحداً لكثرة
زوائده فيه، ولكنهما إذا اجتمعا عند خليفةٍ أو سوقةٍ غلب مخارق على المجلس والجائزة
بطيب صوته وكثرة نغمه.
وقال أبو عبد الله بن حمدون: حدثني أبي قال: اجتمعت مع إسحاق يوماً في بعض دور
بني هاشم، وحضر علويه فغنى أصواتاً ثم غنى من صنعته:
ونبئت ليلى أرسلت بشفاعةٍ إلي فهلا نفس ليلى شفيعها!
فقال له إسحاق: أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن!أحسنت ما شئت! فقام علويه
من مجلسه فقبل رأس إسحاق وعينيه وجلس بين يديه وسر بقوله سروراً كثيراً، ثم قال أنت
سيدي وابن سيدي وأستاذي وابن أستاذي، ولي إليك حاجةٌ.
قال: قل، فوالله إني أبلغ
فيها ما تحب. قال: أيما أفضل أنا عندك أم مخارق؟ فإني أحب أن أسمع منك في هذا

المعنى قولاً يؤثر ويحكيه عنك من حضر، فشرفني به. فقال إسحاق: ما منكما إلا محسنٌ
مجمل، فلا ترد أن يجري في هذا شيء. قال: سألتك بحقي عليك وبتربة أبيك وبكل حق
تعظمه إلا حكمت! فقال: ويحك والله لو كنت أستجير أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب،
فأما إذا أبيت إلا ذكر ما عندي، فلو خيرت أنا من يطارح جواري ويغنيني لما اخترت
غيرك، ولكنكما إذا غنيتما بين يدي خليفةٍ أو أميرٍ غلبك على إطرابه واستبد عليك
بجائزته. فغضب علويه وقام وقال: أف من رضاك وغضبك!
وكان الواثق بالله يقول: علويه أصح الناس صنعةً بعد إسحاق، وأطيب الناس صوتاً بعد
مخارق، وأضرب الناس بعد زلزل وملاحظ، فهو مصلي كل سابق نادر وثاني كل أول،
وأصل كل متقدم. وكان يقول: غناء علويه مثل نقر الطست يبقى ساعةً في السمع بعد
سكوته.
وقال عبد الله بن طاهر: لو اقتصرت على رجلٍ واحدٍ يغني لما اخترت سوى علويه، لأنه
إن حدثني ألهاني، وإن غناني أشجاني، وإن رجعت إلى رأيه كفاني.
وقال محمد بن عبد الله بن مالك: كان علويه يغني بين يدي الأمين، فغنى في بعض غنائه:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

وكان الفضل بن ربيع يضطغن عليه شيئاً، فقال للأمين: إنما يعرض بك ويستبطئ المأمون في
محاربته إياك، فأمر به فضرب خمسين سوطاً وجر برجله حتى أخرج، وجفاه مدة، حتى
سأل كوثراً أن يترضاه له فترضاه له ورده إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم. فلما قدم
المأمون تقرب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحب، وقال: إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا
تتعرض لما يغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يتلفك ثم لا يقدر بعد ذلك على تلافي ما فرط
منه، ثم قرب من المأمون بعد ذلك.
قال علويه: أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح، فلقيني عبد الله بن إسماعيل المراكبي مولى
عريب فقال: أيها الظالم المعتدي، أما ترحم ولا ترق! عريبٌ هائمةٌ من الشوق إليك تدعو
الله وتستحكمه عليك وتحلم بك في نومها في كل ليلةٍ ثلاث مرات. قال علويه: فقلت أم

الخلافة زانية ومضيت معه. فحين دخلت قلت: أستوثق من الباب فإني أعرف الناس
بفضول الحجاب، وإذا عريبٌ جالسةٌ على كرسيٍ تطبخ ثلاث قدورٍ من دجاج. فلما رأتني
قامت فعانقتني وقبلتني وقالت: أي شيءٍ تشتهي؟ فقلت: قدراً من هذه القدور، فأفرغت
قدراً بيني وبينها فأكلنا، ودعت بالنبيذ فصبت رطلاً فشربت نصفه وسقتني نصفه، فما
زلت أشرب حتى كدت أن أسكر. ثم قالت: يا أبا الحسن، غنيت البارحة في شعرٍ لأبي
العتاهية أعجبني، أفتسمعه وتصلحه؟ فغنت:
عذيرى من الإنسان لا إن جفوته صفا لي ولا إن صرت طوع يديه
وإني لمشتاقٌ إلى ظل صاحبٍ يروق ويصفو إن كدرت عليه
فصيرناه مجلسنا. وقالت: قد بقي فيه شيء، فلم أزل أنا وهي حتى أصلحناه. ثم قالت:
أحب أن تغني أنت أيضاً فيه لحناً ففعلت، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثاً. ثم جاء
الحجاب فكسروا الباب واستخرجوني، فدخلت على المأمون فأقبلت أرقص من أقصى
الإيوان وأصفق وأغني بالصوت، فسمع المغنون والمأمون ما لم يعرفوه فاستطرفوه، وقال
المأمون: ادن يا علويه ورده، فرددته عليه سبع مرات، فقال لي في آخرها عند قولي: يروق
ويصفو إن كدرت عليه: يا علويه خذ الخلافة وأعطني هذا الصاحب.
وقال علويه: قال إبراهيم الموصلي يوماً: إني قد صنعت صوتاً وما سمعه مني أحدٌ بعد،
وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن ألقيه عليك وأهبه لك، ووالله ما فعلت هذا
بإسحاق قط، وقد خصصتك به، فانتحله وادعه، فلست أنسبه إلى نفسي، وستكسب به
مالاً. فألقى علي:
إذا كان لي شيئان يا أم مالكٍ فإن لجاري منهما ما تخيرا
فأخذته عنه وادعيته، وسترته طول أيام الرشيد خوفاً من أن أتهم فيه وطول أيام الأمين،
حتى حدث عليه ما حدث وقدم المأمون من خراسان، وكان يخرج إلى الشماسية فيتنزه،
فركبت يوماً في زلالي وجئت أتبعه، فرأيت حراقة على بن هشام، فقلت للملاح: اطرح زلالي
على الحراقة ففعل، واستؤذن لي فدخلت وهو يشرب مع الجواري، وما كانوا يحجبون

جواريهم، فغنيته الصوت فاستحسنه جداً وطرب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا
صوتٌ صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحدٌ قبلك، فازداد به عجباً وطرباً، وقال للجارية:
خذيه عنه ، فألقيته عليها حتى أخذته، فسر بذلك وطرب، وقال لي: ما أجد لك مكافأةً
على هذه الهدية إلا أن أتحول عن هذه الحراقة بما فيها وأسلمه إليك، فتحول إلى أخرى
وسلمت لي بخزانتها وجميع آلاتها وكل شيء فيها، فبعت ذلك بمائة ألفٍ وخمسين ألف
درهم، واشتريت ضيعتي الصالحية.
وقال علويه: خرج المأمون يوماً ومعه أبياتٌ قد قالها وكتبها في رقعةٍ بخط يده وهي:

خرجت إلى الصيد الظباء فصادني هناك غزالٌ أدعج العين أحور
غزالٌ كأن البدر حل جبينه وفي خده الشعرى المنيرة تزهر
فصاد فؤادي إذ رماني بسهمه وسهم غزال الإنس طرف ومحجر
فيا من رأى ظبياً يصيد، ومن رأى أخاً قنصٍ يصطاد قهراً ويقسر

قال: فغنيته فأمر لي بعشرين ألف درهم.
أخبار أخبار معبد اليقطيني
قال أبو الفرج: كان معبد هذا غلاماً مولداً من مولدي المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من
أهلها، واشتراه بعض ولد على بن يقطين. واخذ الغناء بالعراق عن إسحاق وابن جامع
وطبقتهما، وخدم الرشيد ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات في أيامه. وكان أكثر انقطاعه
إلى البرامكة. وروى أبو الفرج الأصفهاني حكايةً عنه أحببت أن أذكرها في هذا الموضع،
وهي ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي، قال حدثني معبد الصغير
المغني مولى علي بن يقطين قال: كنت منقطعاً إلى البرامكة أحدثهم وألازمهم. فبينما أنا
ذات يوم في منزلي إذ أتاني آتٍ فدق بابي، فخرج غلامي ثم رجع إلي فقال لي: على الباب
فتىً ظاهر المروءة يستأذن عليك، فأذنت له، فدخل شابٌ ما رأيت أحسن وجهاً منه ولا
أنظف ثوباً ولا أجمل زياً منه من رجلٍ دنفٍ عليه آثار السقم ظاهرة.فقال لي: إني أحاول
لقائك منذ مدة ولا أجد إلى ذلك سبيلاً، وإن لي حاجةً. فقلت: وما هي؟ فأخرج ثلاثمائة

دينار فوضعها بين يدي فقال: أسألك أن تقبلها وتصنع في بيتين قلتهما لحناً تغنيني به.
فقلت: هاتهما فأنشدني:
والله يا طرفي الجاني على بدني لتطفئن بدمعي لوعة الحزن
أو لأبوحن حتى يحجبوا سكني فلا أراه وقد أدرجت في كفني
قال: فصنعت فيه لحناً ثم غنيته إياه، وأغمي عليه حتى ظننته قد مات، ثم أفاق فقال
أعد، فديتك! فناشدته الله في نفسه وقلت: أخشى أن تموت، فقال: هيهات! أنا أشقى من
ذلك. وما زال يخضع لي ويتضرع حتى أعدته، فصعق صعقةً أشد من الأولى حتى ظننت
أن نفسه قد فاضت. فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه، وقلت: يا هذا، خذ
دنانيرك وانصرف عني، قد قضيت حاجتك وبلغت وطراً مما أردته، ولست أحب أن
أشرك في دمك. فقال: يا هذا، لا حاجة لي في الدنانير، وهذه مثلها لك، ثم أخرج ثلاثمائة
دينارٍ فوضعها بين يدي وقال: أعد الصوت علي مرةً أخرى وحلٌ لك دمي! فشرهت نفسي
في الدنانير، وقلت: لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط. قال: وما هي؟
قلت:أولاهن أن تقيم عندي وتتحرم بطعامي. والثانية أن تشرب أقداحاً من النبيذ تطبب
قلبك وتسكن ما بك. والثالثة أن تحدثني بقصتك. قال: أفعل ما تريد. فأخذت الدنانير
ودعوت بطعامٍ فأصاب منه إصابة معذرٍ، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحاً، وغنيته بشعر
غيره في معناه وهو يشرب ويبكي،ثم قال: الشرط أعزك الله! فغنيته صوته فجعل يبكي
أحر بكاءٍ وينشج أشد نشيجٍ وينتحب. فلما رأيت ما به قد خف عما كان يلحقه ورأيت
النبيذ قد شد قلبه، كررت عليه صوته مراراً. ثم قلت: حدثني حديثك، فقال: أنا رجلٌ
من أهل المدينة خرجت متنزهاً في ظاهرها وقد سال العقيق في فتيةٍ من أقراني وأخداني،
فبصرنا بفتياتٍ قد خرجن لمثل ما خرجنا له، فجلسن حجرةً منا، وبصرت منهن بفتاةٍ
كأنها قضيبٌ قد طله الندى، تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما. فأطلنا

وأطلن حتى تفرق الناس، وانصرفن وانصرفنا وقد أبقت بقلبي جرحاً بطيئاً اندماله، فعدت
إلى منزلي وأنا وقيذ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها
أثراً، ثم جعلت أتتبعها في طرق المدينة وأسواقها، وكأن الأرض أضمرتها فلم أحس لها
بعينٍ ولا أثر، وسقمت حتى أيس مني أهلي. وخلت بي ظئري فاستعلمتني حالي وضمنت
لي كتمانها والسعي فيما أحبه منها، فأخبرتها بقصتي، فالت: لا بأس عليك، هذه أيام الربيع
وهذه سنة خصبٍ وأنواءٍ وليس يبعد عنك المطر، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذٍ وأخرج
معك فإن النسوة سيجئن، فإذا فعلن ورأيتها اتبعها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك
وبينها وأسعى لك في تزويجها. فكأن نفسي اطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه،
فقويت وطعمت وتراجعت إلى نفسي. وجاء مطرٌ بعقب ذلك وسال العقيق وخرج الناس
وخرجت مع إخواني إليه، فجلسنا مجلسنا الأول بعينه، فما كنا والنسوة إلا كفرسي
رهان، فأومأت إلى ظئري فجلست، وأقبلت على إخواني فقلت: لقد أحسن القائل:

رمتني بسهمٍ أقصد القلب وانثنت وقد غادرت جرحاً به وندوبا

فأقبلت على صواحباتها وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول:

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجاً يشفي السقام قريباً

فسكت عن الجواب خوفاً من أن يظهر مني ما يفضحني وإياها، وعرفت ما أرادت. ثم
تفرق الناس وانصرفنا، وتبعتها ظئري حتى عرفت منزلها، وصارت إلي فأخذت بيدي
ومضينا إليها،فلم نتلطف حتى وصلت إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حالٍ مخالسةٍ ومراقبةٍ،
حتى شاع حديثي وحديثها وظهر ما بيني وبينها، فحجبها أهلها وسدوا أبوابها، فما زلت
أجهد في لقائها فلا أقدر عليه، وشكوت ذلك إلى أبي لشدة ما نالني وسألته خطبتها لي.
فمضى أبي ومشيخة أهلي إلى أبيها فخطبوها، فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضحها
ويشهرها لأسعفته بما التمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقق قول الناس فيها بتزويجه

إياها، فانصرفت على يأسٍ منها ومن نفسي. قال معبد: فسألته أن ينزل بجواري، وصارت
بيننا عشرة. ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أول صوتٍ غنيته صوتي في
شعر الفتى، فشرب وطرب عليه طرباً شديداً، وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثاً فما
هو؟ فحدثته، فأمر بإحضار الفتى فأحضر من وقته، واستعاده الحديث فأعاده، فقال: هي
في ذمتي حتى أزوجك إياها، فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى
الرشيد فحدثه الحديث، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعاً فأحضرنا، وأمر بأن أغنيه
الصوت فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفتى، فأمر من وقته بكتابٍ إلى عامل
الحجاز بإشخاص الرجل وابنته وجميع أهله إلى حضرته، فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى
أحضروا. فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأحضر، وخطب إليه الجارية للفتى
وأقسم عليه ألا يخالف أمره، فأجابه وزوجها إياه، وحمل إليه الرشيد ألف دينارٍ لجهازها
وألف دينارٍ لنفقة طريقه، وأمر للفتى بألف دينارٍ ولي بألف دينار، وأمر جعفرٌ لي وللفتى
بألف دينار. وكان المديني بعد ذلك من ندماء جعفر بن يحيى.

أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بني تميم، كوفي المولد والمنشأ. والرف لقبٌ غلب عليه. وكان
مغنياً ضارباً صالح الصنعة مليح النادرة. وكان أسرع خلق الله أخذاً للغناء وأصحهم
أداءً له وأذكاهم. وكان إذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثاً أداه لا يكون بينه وبين من أخذه
عنه فرقٌ فيه. وكان متعصباً على ابن جامع مائلاً إلى إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق،
وكانا يرفعان منه ويقدمانه ويأخذان له الصلات من الخلفاء. وكانت فيه عربدةٌ إذا سكر.
فعربد بحضرة الرشيد مرةً، فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول إليه وجفاه وتناساه. قال أبو
الفرج: وأحسبه مات في خلافته أو خلافة الأمين. ومن أخباره في جودة الأخذ وسرعة
الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال: غنى ابن جامع يوماً بحضرة الرشيد:

جسورٌ على هجري جبانٌ عن الوصل كذوب عداتٍ يتبع الوعد بالمطل

مقدم رجلٍ في الوصال مؤخرٌ لأخرى يشوب الجد في ذاك بالهزل
يهم بنا حتي إذا قلت قددنا وجاذبني عطفاه مال إلى البخل
يزيد امتناعاً كلما زدت صبوةً وأزداد حرصاً كلما ضن بالبذل
فأحسن فيه ما شاء وأجمل، فغمزت عليه محمد الرف وفطن لما أردت، واستحسنه
الرشيد وشرب عليه واستعاده مرتين أو ثلاثاً. ثم قمت إلى الصلاة وغمزت الرف فجاءني،
وأومأت إلى مخارق وعلويه وعقيد فجاءوني، فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأداه كأنه لم يزل
يرويه، ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنوه. ثم عدت إلى المجلس، فلما انتهى الدور إلي
ابتدأت فغنيته قبل كل شيءٍ غنيته. فنظر إلى ابن الجامع محدداً طرفه، وأقبل علي الرشيد
وقال: أكنت تروي هذا الصوت؟ قلت: نعم يا سيدي. فقال ابن الجامع: كذب والله ما
أخذه إلا مني الساعة. فقلت: هذا صوتٌ أرويه قديماً، وما فيمن حضر أحدٌ إلا وقد
أخذه مني. وأقبلت عليهم فقلت لهم: غنوه، فغناه علويه ثم عقيد ثم مخارق. فوثب ابن
جامع فجلس بين يديه فحلف بحياته وبطلاق امرأته أن اللحن صنعه منذ ثلاث ليالٍ وما
سمع به قبل ذلك الوقت. فأقبل الرشيد علي وقال: بحياتي اصدقني عن القصة، فصدقته،
فجعل يضحك ويصفق ويقول: لكل شيء آفةٌ، وآفة ابن جامع الرف.
قال إسحاق بن إبراهيم: كان محمد الرف أروى خلق الله تعالى للغناء وأسرعهم أخذاً لما
سمعه، ليست عليه في ذلك كلفة، إنما يسمع الصوت مرةً واحدةً وقد أخذه. وكنا معه في
بلاء إذا حضر، فكان كل من غنى منا صوتاً فسأله عدوٌ له أو صديق بأن يلقيه عليه
فبخل ومنعه إياه وسأل محمد الرف أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرةً واحدةً حتى أخذه
وألقاه على من سأله. قال: وكان أبي يبره ويصله ويجديه من كل جائزةٍ وفائدةٍ تصل إليه.
وكان محمد الرف مغرًى بابن جامع خاصةً من بين المغنين لبخله، وكان لا يفتح ابن جامع
فاه بصوت إلا وضع عينيه عليه أصغى بسمعه عليه حتى يحكيه.
وكان في ابن جامع بخلٌ
شديدٌ لا يقدر معه على أن يسعفه ببرٍ ورفد. وساق نحو ما تقدم إلا أنه قال: إن الرف

أخذ الصوت لأول مرةٍ وألقاه على إسحاق فأخذه عنه في ثلاث مرار؟ قال حماد: وللرف
صنعة يسيرة، وذكر منها أصواتاً.
أخبار محمد بن الأشعث
قال أبو الفرج: كان محمد بن الأشعث القرشي ثم الزهري كاتباً، وكان من فتيان أهل
الكوفة وظرفائهم، وكان يقول الشعر ويغني فيه. فمن ذلك قوله في سلامة زرقاء بن رامين:

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدي صدعٌ يقيم طوال الدهر والأبد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه وكيف يشعب صدع الحب في الكبد
إلا بوصل التي من حبها انصدعت تلك الصدوع من الأسقام والكمد

وكان ملازماً لابن رامين ولجاريته سلامة الزرقاء، فشهر بذلك، فلامه قومه في فعله فلم يحفل
بمقالتهم، وطال ذلك منه ومنهم، حتى رأى بعض ما يكره في منزل ابن رامين، فمال إلى
سحيقة جارية زريق ابن منيح مولى عيسى بن موسى، وكان زريق شيخاً كريماً نبيلاً،
يجتمع إليه أشراف أهل الكوفة من كل حيٍ، وكان الغالب على منزله رجلاً من ولد القاسم
بن عبد الغفار العجلي كغلبة محمد بن الأشعث على منزل ابن رامين، فتلازما على ملازمة
زريق. وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث:

يا بن رامين بحت بالتصريح في هواي سحيقة ابن منيح
قينةٌ عفةٌ ومولًى كريمُ ونديمٌ من اللباب الصريح
ربعيٌ مهذبٌ أريحيٌ يشتري الحمد بالفعال الربيح
نحن منه في كل ما تشتهي الأن فس من لذةٍ وعيشٍ نجيح
عند قومٍ من هاشمٍ في ذراها وغناءٍ من الغزال المليح
في سرورٍ وفي نعيمٍ مقيم قد أمنا من كل أمرٍ قبيح
فاسل عناً كما سلوناك إني غير سالٍ عن ذات نفسي وروحي
حافظٌ منك كل ما كنت قد ضي عت مما عصيت فيه نصيحي
فالقى ما حييت منى لك الده ر بودٍ لمنيتي ممنوح
يا ابن رامين فالزمن مسجد الح ي بطول الصلاة والتسبيح

قال عمر بن نوفل وهو راوي هذه الأبيات: فلم يدع ابن رامين شريفاً بالكوفة إلا تحمل به
على ابن الأشعث وهو يأبى أن يرضى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تحمل عليه بالجحواني،
وهو محمد بن بشر بن جحوان الأسدي وكان يومئذٍ على الكوفة، فكلمه فرضي عنه وعاد

إلى زيارته، ولم يقطع منزل زريق. وقال في سحيقة:
سحيقة أنت واحدة القيان فما لك مشبهٌ فيهن ثاني
فضلت على القيان بفضل حذقٍ فحزت على المدى قصب الرهان
سجدن لك القيان مكفراتٍ كما سجد المجوس لمزربان
ولا سيما إذا غنت بصوتٍ وحركت المثالث والمثاني
شربت الخمر حتى خلت أني أبو قابوس وقاس أو عبد المدان
فإعمال اليسار على الملاوي ومن يمناك ترجمة البيان
ولمحمد بن الأشعث أصوات لها فيها غناء. منها:
رحبت بلادك يا أمامه وسلمت ما سجعت حمامه
وسقى ديارك كلما حنت إلى السقيا غمامه
إني وإن أقصيتني شفقٌ أحب لك الكرامة
وأرى أمورك طاعةً مفروضةً حتى القيامة
وله غير ذلك من الأصوات.
أخبار عمرو بن بانة
قال أبو الفرج الأصفهاني: هو عمر بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف. وكان أبوه
صاحب ديوان ووجهاً من وجوه الكتاب، ونسب إلى أمه. وكان مغنياً محسناً، وشاعراً
صالح الشعر، وصنعته صنعة متوسطة، وكان مرتجلاً. قال: وكتابه في الأغاني أصل من
الأصول. وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء، ويخالف إسحاق ويتعصب
عليه تعصباً شديداً ويواجهه بنفسه. وهو معدودٌ في ندماء الخلفاء ومغنيهم، على ما كان
به من الوضح. وفيه يقول الشاعر:
أقول لعمرٍو وقد مر بي فسلم تسليمةً جافية
لئن فضولك بفضل الغنا ء فقد فضل الله بالعافية
وقال أحمد بن حمدون: كان عمرو حسن الحكاية لمن أخذ عنه الغناء، حتى كان من
يسمعه لو توارى عن عينه عمرو لم يشك في أنه هو الذي أخذ عنه، لحسن حكايته. وكان
محظوظاً ممن يعلمه، ما علم أحداً قط إلا خرج نادراً مبرزاً. وله أخبارٌ مع الخلفاء وإنعامٌ
منهم عليه، منهم المتوكل على الله. رحمه الله.
أخبار عبد الله بن العباس الربيعي
هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن ربيع. والربيع، على ما يدعيه أهله، ابن
يونس بن أبي فروة. وآل أبي فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لقيطٌ وجد منبوذاً كفله يونس،

فلما خدم المنصور ادعى عليه. قال أبو الفرج الأصفهاني:
وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً
محسناً جيد الصنعة نادرها. قال: وهو أول من غنى بالكنكلة في
الإسلام.
وكان سبب دخوله في الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه
قال: كان سبب دخولي
في الغناء وتعلمي إياه أني كنت أهوى جاريةً لعمتي رقيةٍ بنت
الفضل بن الربيع، وكنت لا
أقدر على ملازمتها والجلوس معها خوفاً من أن يظهر ما لها
عندي، فيكون ذلك سبب
منعي منها، فأظهرت لعمتي أني أشتهي أن أتعلم الغناء ويكون
ذلك في سترٍ عن جدي -
وكان جدي وعمتي على حالٍ من الرقة علي والمحبة لي لا نهاية
وراءها، لأن أبي توفي في
حياة جدي الفضل - فقالت: يا بني، وما دعاك إلى ذلك؟ فقلت:
شهوةٌ غلبت على قلبي،
إن منعت منها مت غماً - قال: وكان لي في الغناء طبعٌ قويٌ -
فقالت لي: أنت اعلم وما
تختاره، والله ما أحب منعك من شيء، وإني كارهةٌ أن تحذق في
ذلك وتشتهر فتسقط
ويفتضح أبوك وجدك. فقلت: لا تخافي من ذلك، فإنما آخذ منه
مقدار ما ألهو به. ولازمت
الجارية لمحبتي إياها بعلة الغناء، فكنت آخذ عنها وعن
صواحباتها حتى تقدمت الجماعة
حذقاً وأقرت لي بذلك، وبلغت ما كنت أريد من الجارية، وصرت
ألازم مجلس جدي. ثم لم
يكن يمر لإسحاق ولا لابن جامع ولا للزبير بن دحمان ولا لغيرهم
صوتٌ إلا أخذته، وكنت
سريع الأخذ، إنما كنت أسمعه مرتين أو ثلاثاً وقد صح لي.
وأحسست في نفسي قوةً في
الصناعة، فصنعت أول صوتٍ صنعته في شعر العرجي:
أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً
مهلهلا
ثم صنعت:
أقفر من بعد خلةٍ شرف فالمنحنى فالعقيق فالجرف
وعرضتهما على الجارية التي كنت أهواها وسألتها عما عندها
فيهما، فقال: لا يجوز أن
يكون في الصنعة فوق هذا. وكان جواري الحارث بن بسخنر
وجواري أبيه يدخلن إلى
دارنا فيطرحن على جواري عمتي وجواري جدي ويأخذن أيضاً ما
ليس عندهن،

فأخذنهما مني، وسألن الجارية عنهما فأخبرتهن أنهما من صنعتي. ثم اشتهرا حتى غني
الرشيد بهما يوماً فاستظرفهما، وسأل إسحاق هل تعرفهما؟ فقال: لا، وإنهما لمن أحسن
الصنعة وجيدها ومتقنها. ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفاً من عمتي وحذراً أن يبلغ
جدي أنها ذكرتني، فانتهرها الرشيد فأخبرته القصة، فوجه من وقته فدعا بجدي فقال له: يا
فضل، أيكون لك ابنٌ يغني ثم يبلغ في الغناء المبلغ الذي يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما
إسحاق وسائر المغنين ويتداولهما الجواري القيان فلا تعلمني بذلك، كأنك رفعت قدره عن
خدمتي في هذا الشأن! فقال له جدي: وحق ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتك وإلا فأنا بريءٌ
من بيعتك وعلى العهد والميثاق والعتق والطلاق إن كنت علمت بشيءٍ من هذا قط إلا
منك الساعة. فمن هذا من ولدي؟ قال: عبد الله بن العباس هو، فأحضرنيه الساعة.
فجاء جدي وهو يكاد أن ينشق غيظاً، فدعاني، فلما خرجت إليه شتمني وقال: يا كلب
بلغ من أمرك أنك تجسر على أن تتعلم الغناء بغير إذني! ثم زاد ذلك حتى صنعت، ولم
تقنع بهذا حتى ألقيت صنعتك على الجواري في داري، ثم تجاوزهن إلى جواري الحارث
بن بسخنر، فاشتهرت، وبلغ أمير المؤمنين فتنكر لي ولامني، وفضحت آباءك في قبورهم
وسقطت للأبد إلا من المغنين! فبكيت مما جرى علي وعلمت أنه صدقني، فرحمني وضمني
إليه وقال: قد صارت الآن مصيبتي في أبيك مصيبتين، إحداهما به وقد مضى وفات،
والأخرى بك وهي موصولةٌ بحياتي، ومصيبةٌ باقية العار علي وعلى أهلي بعدي، وبكى
وقال: عز علي يا بني أني أراك أبداً ما بقيت على غير ما أحب، وليست لي في هذا الأمر
حيلةٌ لأنه أمرٌ قد خرج عن يدي. وقال: جئني بعودٍ حتى أسمعك وأنظر كيف أنت، فإن
كنت تصلح للخدمة في هذه الفضيحة وإلا جئت بك منفرداً وعرفته خبرك واستعفيته لك.
فأتيت بعودٍ وغنيت غناءً قديماً، فقال: لا، بل صوتيك الذين صنعتهما، فغنيته إياهما،
فاستحسنهما وبكى، ثم قال: بطلت والله يا بني وخاب أملي فيك. فواحزناً عليك وعلى

أبيك! فقلت: ليتني مت قبل ما أنكرته أو خرست! ومالي حيلة! لكني وحياتك يا سيدي
- وإلا فعلى عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمينٍ يحلف بها حالف لازمة لي - لا
غنيت أبداً إلا لخليفةٍ أو ولي عهدٍ. فقال: قد أحسنت فيما نبهت عليه من هذا. فركب
أمر بي فأحضرت، ووقفت بين يدي الرشيد وأنا أرعد، فاستدعاني واستدناني حتى
صرت أقرب الجماعة إليه، ومازحني وأقبل علي وسكن مني، وأمر جدي بالانصراف،
وأومأ إلى الجماعة فحدثوني وسقيت أقداحاً وغنى المغنون جميعاً، وأومأ إلى إسحاق
بعينيه أن أبدأ فغن إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك ليكون أملح وأجمل بك. فلما
جاءت النوبة إلي أخذت عوداً ممن كان إلى جنبي وقمت قائماً واستأذنت في الغناء،
فضحك الرشيد وقال: غن جالساً، فغنيت لحني الأول، فطرب واستعاده ثلاث مراتٍ
وشرب عليه ثلاثة أنصاف. ثم غنيت الثاني فكانت هذه حاله، فسكر ودعا بمسرورٍ
وقال: احمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينارٍ وثلاثين ثوباً من فاخر ثيابي وعيبةً
مملوءةً طيباً، فحمل ذلك كله معي. قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولي عهد أن يعلم من
الخليفة بعد الخليفة هو أم غيره دعاني وأمرني أن أغني، فأعرفه يميني فيستأذن الخليفة في
ذلك، فإن أذن لي في الغناء علم أنه ولي عهدٍ وإلا عرف أنه غيره، حتى كان آخرهم الواثق
فدعاني في أيام المعتصم وسأله أن يأذن لي في الغناء، فأذن لي ثم دعاني من الغد فقال: ما
كان غناؤك إلا سبباً لظهور سري وأسرار الخلفاء قبلي! والله لقد هممت أن آمر بضرب
رقبتك! لا يبلغني أنك امتنعت من الغناء عند أحد، فوالله لئن امتنعت لأضربن عتقك!
فأعتق من كنت تملكه يوم حلفت، وطلق من كان عندك يومئذٍ، وأرحنا من يمينك هذه
المشئومة. فقمت وأنا لا أعقل جزعاً منه، فأعتقت جميع ما كان بقي عندي من مماليكي
الذين حلفت يومئذٍ وهم في ملكي ثم تصدقت بجملة، واستفتيت في يميني أبا يوسف
القاضي حتى خرجت منها، وغنيت بعد ذلك إخواني جميعاً حتى اشتهر أمري، وبلغ

المعتصم خبري فتخلصت منه.
وروى أبو الفرج أيضاً عن الصولي عن الحسين بن يحيى قال:
قلت لعبد الله ابن العباس:
إنه بلغني لك خبرٌ مع الرشيد أول ما شهرت بالغناء فحدثني به،
فقال: نعم! أول صوتٍ
صنعته:
أتاني يؤامرني في الصبو ح ليلاً فقلت له غادها
فلما دار لي وضربت عليه بالكنكلة، عرضته على جاريةٍ لنا يقال
لها راحة، فاستحسنته،
وأخذته عني. وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلي، فسمعها
يوماً تغنيه وتناغي به جاريةً
من جواريه، فاستعادها إياه فأعادته، فقال: لمن هذا الصوت؟
قالت: صوتٌ قديمٌ. قال:
كذبت لو كان قديماً لعرفته. وما زال يداريها ويتغاضب عليها
حتى اعترفت له أنه من
صنعتي، فعجب من ذلك. ثم غناه يوماً بحضرة الرشيد ليغرب به
على المغنين، فاستحسنه
الرشيد، فقال له: لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب
وخشي أن يكذبه فينمى إليه
الخبر من غيره، وخاف من جدي إن يصدقه، فقال له: مالك لا
تجيبني؟ قال: ما يمكنني يا
أمير المؤمنين. فاستراب بالقصة، فأقسم الرشيد أنه إن لم
يعرفه عاقبه عقوبةً توجعه، وتوهم
انه لعلية بنت المهدي أو لبعض حرمه فأستطير غضباً. فلما رأى
إبراهيم الجد منه صدقه
فيما بينه وبينه سراً. فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له:
أيصنع ولدك غناءً يرويه الناس
ولا تعرفني! فجزع وحلف بحياته وبيعته انه ما عرف ذلك قط ولا
سمع به إلا في وقته
ذلك. وساق باقي الخبر نحو ما تقدم.
قال عبد الله بن العباس: دخل محمد بن عبد الملك الزيات على
الواثق وأنا بين يديه أغنيه
وقد استعادني صوتاً فأعدته، فاستحسنه محمد بن عبد الملك
وقال: هذا والله يا أمير
المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه، فقال: أجل!
هذا والله مولاي وابن مولاي
لا يعرفون غير ذلك. فقال: ليس كل مولى يا أمير المؤمنين
مولى لمواليه، ولا كل مولى يتجمل
بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظرفٍ وأدبٍ وصحة عقلٍ
وفضل علمٍ وجودة شعر. فقال
له: صدقت يا محمد. فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك
شاكراً لحسن محضره،

فقلت في أضعاف كلامي: وأفرط الوزير، أعزه الله تعالى، في وصفي وتقريظي في كل شيءٍ
حتى وصفني بجودة الشعر، وليس ذلك عندي، وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة. ولو كان
عندي أيضاً شيءٌ من ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ويحكيه في هذا المجلس الرفيع
المشهور. فقال: والله يا أخي لو عرفت مقدار قولك:

يا شادناً رام إذ م ري في الشعانين قتلى
يقول لي: كيف أصبح ت؟ كيف يصبح مثلي

لما قلت هذا القول. والله لو لم يكن لك شعرٌ في عمرك إلا قولك: كيف يصبح مثلي لكنت
شاعراً مجيداً. وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس في نصرانيةٍ كان يهواها ولا يصل إليها
إلا إذا خرجت إلى البيعة؟ وله معها أخبارٌ وأشعارٌ له فيها أصواتٌ. منها قوله:

إن في القلب من الظبي كلوم فدع اللوم فإن اللوم لوم